تاريخ
الدولة العثمانية العلية

المعروف بكتاب

التحفة الحليمية
في تاريخ الدولة العلية

تأليف

ابراهيم بك حليم
مفتش أوقاف دمنهور

مؤسسة الكتب الثقافية

ملتزم الطبع والنشر والتوزيع
مؤسسة الكتب الثقافية فقط

الطبعة الأولى
١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م



مؤسسة الكتب الثقافية

الصنائع - بناية الإتحاد الوطني - الطابق السابع - شقة ٧٨
هاتف المكتب: ٢٤٨٢٦٣ - ٢٤٤٣٦١ - المنزل: ٣١٥٧٥٩
ص.ب: ٥١١٥/١١٤ - برقيا: الكتبكو - تلكس: ٤٠٤٥٩
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمة المؤلّف

الحمد لله الذي جعل الانسان في الارض خليفة، والصلاة والسلام على صاحب الشريعة الحنيفية المنيفة، وعلى آله وأصحابه ذوي السير المرضية، والفتوحات العلية. وبعد:

فإنّي لما رأيت حوادث ربع القرن الماضي وما فيه من الامور العظام، ودوام التعصبات الحاصلة من الدول ضد الاسلام عموماً والدولة العلية خصوصاً، وما عليه اخواننا المسلمون من تضارب الافكار، وما يبثه الاجانب في مشارق الارض ومغاربها فيهم من الدسائس في صفة الارشاد، خصوصاً في مدارسهم، ويقصدون بذلك قطع آمالهم من حسن مستقبلهم، ووصفهم ألدولة العلية في الماضي والحاضر بما لا ينطبق على الحقيقة. فخوفاً من احتمال التأثير على أفكار من لم يعلم وقائع الدولة العلية وأدوارها الماضية، أردت خدمة للأمّة أن أؤلف كتاباً صغير الحجم، سهل المطالعة، حاوياً نتائج الوقائع السالفة اجمالاً، دون التعرض لمفرداتها خوفاً من التطويل، من ابتداء السلطان عثمان الاول الى جلوس مولانا السلطان المعظم، والخاقان المفخم، السلطان الغازي (عبد الحميد خان الثاني) خلد الله ملكه، لان الماضي مرآة المستقبل عقلاً، وللعقل اصابة بالظن ومعرفة ما سيكون بما كان. وزدت واقعة تونس الحاصلة في سنة ١٢٩٨، ذكرتها موعظة للأمّة الاسلامية ليتبع رجالها طرق الرشاد، وانما يتذكر أولو الالباب. ثم أردفت ذلك بذكر وصية بطرس الكبير وبعض من أعمال الدول في مبادي الحرب الاخيرة. والله الموفق للصواب، واليه المرجع والمآب.

* * *

(معذرة المؤلف)

إنّي أعتذر مقدّماً لحضرات قراء هذا الكتاب فيما يرونه من التقصير حيث أني لست من حضرات العلماء الافاضل، ولا من الكتاب الاماثل، ولا من متخرّجي المدارس. وغاية الامر هو أنه قد وفقني الله تعالى بمنه وكرمه لقراءة القرآن الشريف في مكاتب بلادنا القوقاسية قبل مهاجرتنا منها، ودخلت المكتب بالغاً من العمر ثمان سنوات بغير توسط أهلي في أول الأمر.

ولم يمض على ذلك سوى سنة واحدة وبعض أشهر حتى قامت الحرب الاخيرة بين الروسيا والجراكسة فهاجر والدي رحمه الله تعالى بعائلته من وطنه الاصلي إلى جهة، ومنها إلى جهة أخرى، ومنها إلى جهة ثالثة وهي ساحل البحر الاسود. وقد استمرت الحرب ثلاث سنين، ثم استولت الروسيا على بلادنا، فهاجر ثلاثة أرباع الجراكسة، بل أكثر، إلى بلاد الدولة العلية. وكنت ممن هاجر مع والدي وهم بضع مائة ألف بيت أوعائلة كما ذكرت ذلك تواريخ الاتراك. ولا تسل عما قاسى الأهالي من المشاق والمتاعب، وما أصابهم من تلف الاموال بعد قتل عشرات الآلاف من الرجال في هذه الحرب الطويلة، ولم يكن عند الجراكسة مدافع قط.

وبعد انتهاء الحرب وحضورهم إلى سواحل البحر الاسود، لم يحضر أحد منهم من متاعه إلا قليلاً، بل أغلبهم لم يحضر معه شيئاً قط، حتى من ازدحامهم في السفن لم يقبل الملاحون شيئاً من المتاع، بل كانوا يلقونه في البحر. وأما المواشي فقد تركها أصحابها بالجبال، والبعض تمكن من بيعها لمن لم يهاجر بأبخس ثمن. ولقد رأيت من باع الثور البقر بروبيل واحد، وهو الريال المسكوفي الذي يساوي فرنكين ونصفاً تقريباً، وكان الثور يساوي في زمن الأمن قبل المهاجرة من عشرين ريالاً لغاية خمسة وعشرين. ورأيت النعجة الجيدة تباع بعملة يقال لها أباس وهي تساوي قرشاً صاغاً ونصفاً بالعملة المصرية، وقس على ذلك.

ولما هاجروا إلى بلاد الدولة أيّدها الله ساعدتْهم مساعدة عظيمة، وأمدّتهم حتى صاروا في سعة، وهذا من مصداق قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الارضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَة﴾[1].

وكان من ضمن النوائب العظمى احراق عساكر الروسيا البيوت بمن فيها من الارواح والاشباح والاثاثات. وذلك أنه عند زحف الجيش الروسي على الأماكن الموجود فيها الشيوخ

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٠.

والنساء والولدان، لتغيب الرجال في الحرب، كانوا يهربون خفافاً بأرواحهم، ويتركون من لم يكن له قدرة على المشي مثل المرضى والطاعنين في السن الاقصى والعميان، لظنهم أن العساكر لا تأخذهم أسراء. ثم بعد حرق البيوت ورجوع العساكر عنها يعود الهاربون ليأخذوا من تركوهم في البيوت محمولين على الاعناق أو الدواب، فيجدونهم مُحَرَّقين مع البيوت. ولقد رأيت بعيني وأنا مع والدي العظام محروقة، فحسبنا الله ونعم الوكيل.

ثم إنّي لم أجد فرصة لتحصيل العلوم مع أني كنت مغرماً بها وما عندي من البضاعة القليلة اكتسابي بطرق الاجتهاد الطبيعية في أثناء المساعي المعيشية من التجارة في مبادي الامور، ومن الخدمات الزراعية. وعلاوة على ذلك فان لغتي الفطرية غير العربية الشريفة. ولكثرة أشغالي المفروض أداؤها عليّ في أوقاتها، جعلت ساعتين بين العصر والمغرب من الأ يام التي لم أكن متغيباً فيها في المرور، لجمع وتسويد وتبييض هذا الكتاب، آخذاً من التواريخ التركية، مُلْتزماً الراجح من الروايات لعدم التطويل. فبذا لم أدع من أشغالي المفروضة عليّ شيئاً. ولم أقصد من هذا التأليف فخراً ولا سُمْعَةً بل الخير أردت. كما وأنّي جعلت ثمن هذا الكتاب اعانة للسكة الحديدية الحجازية.

ثم أذَكِّرُ من يَتَذَكَّر بأن التواريخ الإفرنكية لها صبغة خصوصية فيما ينسب للإسلام وللدولة العلية حتى الآن، فمن يجد فيها ما يخالف المدوّن بهذا الكتاب من الوقائع فليعتبره من هذا القبيل، حيث إن أصحاب التواريخ التركية على اختلاف أوقاتهم لم يقصدوا خلاف ضبط الوقائع الرسمية، وهم أدرى بما في بيوتهم.

* * *

(ثمرة علم التاريخ)

التواريخ والاشتغال بها بقصد نفع الامة والدين أمر مهم لا تقل أهميته عن غيره، بل يعتبر انه من متممات الخدمات الدينية حيث كانت النية خالصة، للحديث الشريف: «**انما الأعمال بالنيات**» [١].

وذلك أن من ضمن قوام الدين حفظ بلاد الاسلام من الاعداء. ولا يتيسر ذلك إلا بمعرفة ما يلزم، وهي أمور كثيرة، منها معرفة مبادي ونتائج ما مضى لتكون دروساً للاجراءات اللازمة للحاضر والمستقبل. ومنها معرفة أقاليم وبلاد الممالك. ومنها معرفته القوى البرية والبحرية في العالم. والحاصل أن معرفة التواريخ واجبة من هذا القبيل.

ولقد ثبت يقيناً إضمحلال بعض الممالك والجيوش بسبب جهل وغلطات القوّاد أو الحكام مع كثرة جيوشهم على جيوش أعدائهم، وكذلك لسبب مهارة القوّاد وحسن تدبيرهم وعدلهم وانصافهم انتصروا على أعدائهم مع قلة جيوشهم. وقد قال جلَّ وعلا: ﴿ **كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كثيرة باذنِ الله والله معَ الصابرِينَ** ﴾ [٢].

وبالإختصار فان معرفة الحوادث الماضية أعظم درس للانسان ليتَّبع الأحسن. ومما يثبت ذلك وجود القصص العديدة في القرآن الكريم لمعرفة ما كان من قبل والاتعاظ به، وإن كان بعضها أنزل تسلية للنبي ﷺ، والبعض رداً على المتعنّتين وإجابة للسائلين، لكن القرآن الشريف على العموم هو للنبي ﷺ ولأمته إلى يوم القيامة للاتعاظ بما فيه من الأوامر والنواهي والقصص.

* * *

---

(١) البخاري ومسلم ١٥١٥/٤/١٩٠٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

(السياسة)

السياسة في هذا العصر هي عبارة عن تفكر الامم في معرفة الوسائط الموجبة لامتلاك بلاد الغير خصوصاً الضعفاء والجهلاء، وطرقها لا نهاية لها. فهي تزيد في أمم بوجود الرجال الماهرين في هذا الفن وقوّة دولتهم، وتنقص وتضمحل في الامم المتصفة بضد ذلك.

والمهارة لدى السياسيين هي اخفاء الغرض واظهار غيره في أحاديثهم وتهديداتهم ونصائحهم الغير صحيحة، حيث أن غرضهم الوحيد هو إغتصاب بلاد الغير، وإذلال الأمم الضعفاء، وإضعاف الأقوياء بتسليط بعضهم على بعض. وهذه الامور هي ضد الشرف على خط مستقيم. والاعجب أن من يكون بهذه الصفة من الرجال يكون له القدر الجليل لدى العالم.

وأما الدولة العلية أيّدها الله فلم تتخذ هذا المسلك الفظيع في وقت من الأوقات، وطرق الاغتصاب متعددة لا نهاية لها، ولنذكر بعض أمثالها. ذلك أنهم يدّعون أن روح التمدن الحقيقي وجميع مكارم الاخلاق حلّت فيهم دون غيرهم حتى صاروا كأنهم المنزهون عن كل عيب، فيغتر بذلك البسطاء ويستسلمون لهم، وبهذا الإدّعاء وذلك الإستسلام يغتصبون البلاد.

ومبادي الاغتصاب أنهم يبعثون رجال السياسة الموصوفين بما ذكر آنفاً جواسيس، ويسمون أنفسهم سواحين إلى البلاد والأقطار، ويساعدونهم بكل ما يلزمهم من مال ورجال وسلاح وغير ذلك. فهؤلاء ينظرون البلاد بعين الناقد البصير، ويحررون مذكرات بما يرونه من الاحوال وعوائد البلاد وطباع أهاليها، وما يلزم اجراؤه من وجوه الاحتيال بما يناسب لكل قطر وبلد. وبعد عودتهم إلى بلادهم يعرضون هذه المذكرات ويزيدون عليها بأحاديثهم الشفاهية.

وبعد ذلك يجهّزون وفداً برياً أو اسطولاً مُرَكَّباً من أحسن السفن الموجودة عندهم، ويزيّنون رجاله بأحسن الملابس والاسلحة بقيادة أمهر الرجال في فن الخداع والسياسة الموصوفة آنفاً ببعض هدايا وبرسائل من الملوك مزينة بزخارف الكلام الذي يوهم محبة المرسل إليه، المنوي نهب بلاده. فبوصول هذا المندوب إلى عاصمة الملك أو الأمير المرسل إليه، يطلب مقابلته لتسليمه الهدايا والتحف التي أحضرها من لدن سيده، وليست في الحقيقة هدايا بل رزايا جلبها إليه. وحينما يؤذن له بالمثول بين يديه لا تسل عما يظهره من الاجلال والخضوع عند مقابلته لذلك الامير المخدوع. ثم يذكر له ما عليه سيده من الشفقة ومحاسن الاخلاق والمروءة والشهامة والغنى والقوة، ويُعَزِّز ذلك بأمثلة وهمية مصداقاً لما يقول. ثم يرجو الأمير في زيارة السفن يقصد بذلك رهبته بعظمة المراكب

والأسلحة وملبوسات الرجال وغير ذلك، وليدهش الامير ورجاله، فيجاب إلى طلبه. وفي وقت الزيارة يذكر رجال الوفد لحاشية الامير والأعيان من تلك الدروس ما ذكره رئيسهم للأمير، ثم يعودون، وربما تكرر مثل ذلك. ثم يذهب وفد آخر سواء كان برئاسة الأول أو غيره بالصفة المذكورة أو أعظم، وبعد ذلك يلتمسون تعيين قنصل لتوثيق عرى المحبة وتبادل التجارة، فينالون ذلك.

ثم يرسلون بعض التجار إلى تلك الجهة للتجارة في الظاهر، وعمل المشاكل في الباطن، ويطلبون التصريح بعمل شركة ما، ويشترون قطعة أرض للدرجة المناسبة، بشروط مشتملة على ألفاظ مبهمة قابلة للتأويل بجملة معان مختلفة.

ثم يطلبون الترخيص بفتح المدارس بحجة تعليم أولادهم، ومن يرغب من غيرهم، بمصاريف على طرفهم. وعندما يجابون إلى طلبهم يملأونها بطوائف المبعوثين الدينيين، بحجة أن وجودهم بالمدارس أمر ضروري. ثم تتبع الإمتيازات شيئاً فشيئاً.

وكل هؤلاء يظهرون في المبادي من الأدب واللطف ومحاسن الأخلاق ما يبهر العقول. ثم يأتي دور الشكل التصنعي، بمعنى أنهم يخترعون المشاكل بأيديهم، ويدّعون أن الحق معهم. ويساعدهم على ذلك وجود الألفاظ المبهمة ذات المعاني المختلفة بالشروطات الموضوعة لهذا الغرض، ليرى منها ظاهراً أن الحق معهم. وأمّا الشعوب المظلومة فإنهم لا يرون من حقائق الامور شيئاً لغفلتهم، فيتمسكون بما لهم من الحقوق الظاهرة. ثم يأتي دور التهديد والوعيد وطلب التعويض الغير معقول ثم التدخل الفعلي ثم الطامة الكبرى. هذا هو العدل والتمدّن والشفقة والشهامة عندهم.

وتوجد أساليب أخرى يستعملونها لهذه المآرب، منها: إلقاء الدسائس بين التابع والمتبوع بأشكال يطول شرحها. ومنها إلقاء الدسائس بين دولتين. ويعتقدون أن كل هذه الأفعال وأمثالها ضروب من حسن السياسة والتمدّن.

ولا يظن أحد فيما ذكر بهذه الكلمات الوجيزة أنه قد انحصرت وسائل الاغتصاب، لا بل تلزم لها مجلدات لاستيفائها. وإنما اختصرنا كما هي خطتنا في هذا الكتاب، لأن ما ذكرناه يكفي لمعرفة ما لم يُذْكَرْ من هذا القبيل. ثم أننا لم نقصد بما ذكر حكومة ولا دولة معينة كما يتضح من سياق الكلام.

* * *

(مبحث عن أحوال الدولة العلية على وجه الاجمال)

نظراً لموقع بلاد الدولة جُغْرافِيّاً حَيْثُ أن عاصمتها، وجزءاً عظيماً بأوروبا البعض تحت سيادتها، والبعض من أملاكها قديماً وحديثاً، مجاور لأكثر الدول خصوصاً في هذا العصر، حيث أن البحر الأبيض المتوسط حر لجميع أساطيل الدول كالمعاهدات، فلم تبتل دولة إسلامية بمعشار ما ابتليت به هذه الدولة من كثرة محاربتها لاعتداء الدول عليها كما يتضح مما يأتي. وقد قال الله تعالى: **﴿لَتُبْلَوُنَّ في أمْوالِكم وأنفُسِكم ولتَسْمَعُنَّ مِن الـّذينَ أوتُوا الكتابَ مِن قَبلِكم وَمِنَ الذين أشْركوا أذى كثيراً وَإنْ تَصْبِرُوا وتَتَّقوا فانَّ ذلكَ مِنْ عزْمِ الأمورِ﴾**[1].

نعم إن دولة الامويين بالأندلس انقرضت بأسباب إعتداء الإفرنج عليها، وبالاخص دولة أسبانيا التي إستولت عليها بعد أن نهبت الأموال، وهتكت الأعراض، وقتلت من لم يتنصر إلا من هرب، كما هو مُسَطَّر في كتب التواريخ بأفظع ما يكون.

لكن الدولة العلية خلدها الله تعالى إلى يوم القيامة حروبها مستمرة ستة قرون وربع مع كثيري العدد والعُدَدِ من الأعداء، برّاً وبحراً، أفراداً وأزواجاً، وجموعاً من الدول، وعلى الأخص دولتا الروسيا وأوستريا (النمسا) معاً، وهما كانتا أعظم الدول قوّة، واستمر حربهما مع الدولة متقطعاً أكثر من قرن ونصف، وهما متفقتان على ذلك. وأحياناً تكون دولة الفرس وحكومات البلقان معهما كما سترى.

ولقد مرت على الدولة العلية أخطار عظيمة وضعف عام ومشاكل متنوّعة ومتفرّقة بمقاصد عجيبة بسبب إختلاف مشارب الدول، وإظهارهنّ غير ما في ضمائرهنّ في المخابرات والمداولات والمعاهدات، فبعضهنّ يحرّض الدولة على الحرب مع إحداهنّ، والبعض الآخر ينهاها عنه، هذا وهذا في قالب نصح لها. والبعض يطلب طلبات لمصالحه خارجاً عن الموضوع عند ما يرى أن موقف الدولة في غاية الحرج. وهلم جرا بما يماثل ذلك، مما يُحيِّر العقول. والله تعالى حفظها من هذه المكائد ونسأله أن يديم حفظها إلى يوم القيامة.

وقد ينطبق عليها الحديث الشريف الوارد في الصحيحين: عن معاوية بن أبي سفيان عن رسول الله ﷺ قال: **«لا تزالُ أمّة مِن أمّتِي قَائمَةً بأمرِ الله لا يَضُرُّهم مَن خَذَلَهم ولا مَن خالَفَهم حتّى يأتِيَ**

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٦.

أمرُ الله»[١]. ولا خلاف في أنّ في هذا العصر، لا توجدُ أمة مسلمة ينطبق عليها هذا الحديث الشريف، إلا الدولة العلية التي هي خادمة الإسلام في نفس الأمر: فليست دولة متسلطة على العباد كتسلط تيمورلنك وأمثاله. وهذا لا يُعْلَمُ إلا لمن يتأمل جيّداً، أعني لقوم يعقلون ويقدرون الامور حق قدرها. أمّا الذين في قلوبهم مرض فلا يعلمون ولا يعقلون.

وهذه بلاد اليمن والحجاز وطرابلس الغرب التي هي من عنصر الإسلام مُدينة للدولة العلية بالحقوق كحق الوالد على ولده حيث إنها تصرف مبالغ جسيمة سنوياً على حفظ هذه البلاد مع أن إيراداتها ربما لا تبلغ ربع المصاريف، وأهلها معافون من الخدمة العسكرية حتى لحفظ بلادهم، عدا أهالي طرابلس الغرب. فإن مولانا السلطان حفظه الله علمهم فن الحرب بكل عناية، وذلك للمساعدة على حفظ بلادهم من إعتداء الأعداء الخارجية عليها، لبعدها عن سائر بلاد الدولة ولقربها من بلاد دول الغرب. وقد عصوا الدولة عند طلبها تعليمهم فنون الحرب في أوّل الأمر. فأهل هذه البلاد يكثرون العصيان للدولة، ويسمعون ويصدّقون دسائس الاجانب، وينبذون نصائح الدولة وراء ظهورهم، وينافقونها ويعصونها من حين إلى حين، ولا يرجعون عن غيِّهم إلا بزاجر القوّة، وأكثرهم يبغضون الدولة أكثر مما يبغضون أعداءهم الأجانب، الساعين لابتلاع بلادهم. وما هذا إلا من ضعف إيمانهم، والجهل المحض أو التجاهل، وعدم التبصر في عواقب الامور، وغفلتهم عن دسائس الاجانب. أو لم ينظروا حال المسلمين الذينْ وقعوا تحت سلطة الأجانب، وما وصلوا إليه من الذل والهوان، فلا يقدر أحد يتكلم ولا همساً ضد حكومته الاجنبية، ولا في حق أحد ما من رجالها المسيطرين عليهم، ومع ذلك لا يتعظون، كأنهم صم بكم عمي لا يعقلون. وتراهم وهذه حالهم يخرجون على الدولة العلية الشفوقة بهم، الساهرة على رفعة شأنهم. إن هذا لهو البلاء المبين. هذا من جهة الأمم على وجه الإجمال.

وأما من جهة الأفراد، فإن مرض النفاق، وفساد الأخلاق، وحب الشهوات والمجاهرة بالمحرّمات، قد انتشرت فيهم وتمكّنت من نفوسهم، فجلبوا الويل على أنفسهم بما كسبت أيديهم، ﴿ظَهَر الفسادُ في البرّ والبحْرِ بِمَا كسبَتْ أيْدِي النّاسِ﴾[٢]. وهؤلاء الفاسدو الأخلاق شقّوا عصا طاعة الدولة العلية، وخرجوا عليها، يسلقونها بألسنة حداد.

---

(١) مسلم ١٥٢٤/٣/١٠٣٧.

(٢) سورة الروم، الآية: ٤١.

نعم ان الأمة الإسلامية لم تسلم من الخوارج من عهد الخلفاء الراشدين إلى الآن، لكن ضررهم في هذا العصر أشد لكثرة عناصر المسلمين، واختلاط الأعداء في البلاد، ودخول بعض بلاد الإسلام تحت نفوذ الدول الأجانب.

ثم إن فريقاً من المسلمين البسطاء يظنون ان وجود هؤلاء الخوارج ما هو إلا من ظلم الدولة، وليس الأمر كذلك. لأن الخوارج قديماً وحديثاً عبارة عن أناس غلبت عليهم الشقاوة من حيث لا يشعرون. فإن خوارج سيدنا عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه كانوا يسبونه وينسبون له الكفر بقولهم: يقول الله تعالى: ﴿إن الحُكْمُ إلاّ لله﴾[1]. وعليّ بن أبي طالب يريد الحكم لنفسه، وأمثال ذلك، مع أن درجة هذا الامام رضي الله تعالى عنه لا يجهلها أحد من أهل السنة والجماعة.

وهنا فريق آخر يطلب الحرية ولا يفقه معناها، لأن الحرية الشرعية هي مساواة الأفراد في الحقوق الشخصية، ليتسنى لكل فرد من الأفراد أن يجتمع مباشرة مع كبراء الأمة وأمراءهم، ويتكلم معهم بما يريد بغير تحقير ولا ازعاج. والقضاة يحكمون بالشريعة السماوية على الحقير والوزير وعلى أنفسهم. وبالإختصار فالحرية هي إقامة أحكام الشرع الشريف بأسرها، ولم يتم ذلك إلا في زمن الخلفاء الراشدين.

وقد توهّم المارقون والمنافقون ان الحرية هي إطلاق ألسنة السفهاء على أعراض الأصفياء بلا قيد، واستباحة المحرّمات في محلات الموبقات بغير رقيب ولا ممانع. أو ما يتشدّق به المتشدّقون في لغو أحاديثهم من الكلام الضار بالأمّة كما يشاؤون. مع أن من هذا الكلام ما يوجب التشويش على الدوام، وإطلاع الأعداء على دواخل الأمور والعورات، وينبني على ذلك فساد كبير. كيف لا وقد ورد عن رسول الله ﷺ: «مَن آمن بالله واليومِ الآخِرِ فَلْيتَكلّمْ بخيرٍ أو لِيَصْمِتْ»[2]. ولقد حدثت حروب بسبب ذلك.

والحاصل أن الحرية الغير الشرعية لا حدّ لها، وهي مذهب الإشتراكيين في أوروبا، وفكر بعض الخوارج من الأمة الإسلامية، وغرضهم أنه لا يكون حاكم ولا محكوم، ولا ملك ولا أمبراطور، ويكون العالم كلهم في درجة واحدة الخ، وهذا مستحيل. وبعض هذا الفريق يزعم أن الحرية المشابهة للحرية الشرعية موجودة في أوروبا،وهذا لا أصل له. نعم ان في أوروبا شبه حرية

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٧. سورة يوسف، الآية: ٤. سورة يوسف، الآية: ٦٧.
(٢) البخاري والترمذي.

لأصفياء الفرنساويين مثلاً في المساواة، ولكن أين هذه المساواة في الجاوا والجزاير والمدغسكر وأمثالها رغماً عما تظهر الحكومات من وضع القوانين بصفة ظاهرها يخالف باطنها، الاول العدل والثاني ضده، يقصدون بذلك إظهار العدل للعالم.

فتبين مما ذكر أن جميع ما زعمه الأعداء في حق الدولة العلية باطل. نعم أصاب الدولة العلية وسلاطينها وعظماءها بعض ما أصاب دول العالم من فتنة وقتل ومصائب، لكن من الممكن أن نقول إنها أقل من غيرها في هذا الباب. حيث ان أغلب ملوك أوروبا في القرون الماضية كما في نهاية الظلم، وان أممهم كانوا في غاية الهمجية، تباع وتشرى مع الأراضي كالأنعام، ولم يجدوا لأنفسهم رائحة الحرية. بل لم يكن لهم شعور بأن ملوكهم من ذرية آدم مثلهم إلا بعد قرون طويلة وظلم شديد، بعد ما اختلطوا بالاسلام في الحروب الصليبية، وبالدولة الاموية من قبلها في الاندلس، فسرت فيهم روح الإنسانية شيئاً فشيئاً، حتى قويت فيهم ونمت. وبعد حروب أهلية تحصلوا على نوع من الحرية، حتى صارت الآن ملوكهم مقيَّدة بقيود القوانين الوضعية، هذا بعض أحوالهم.

ولو تركناهم لاختلافهم عنا في الشرائع والأديان والعادات، ونظرنا أحوال أمم وملوك الإسلام في القرون الماضية، لوجدنا أن مصائبهم في هذا الصدد أعظم من مصائب الدولة ورجالها والأمم التي تحت يدها، حالة كون الأولين كانوا قريبين لعصر الخلفاء والصحابة وصدر الإسلام. ولم يكن المسلمون من عناصر كثيرة مثل مسلمي الدولة العلية، فضلاً عن المسيحيين المختلفي العناصر والمذاهب. ومع هذا فإن آراء الأفراد والشعوب كانت متباينة بما لا يوصف، لدرجة أن العلماء في نفس بغداد كانوا يقاتلون بعضهم بعضاً مراراً في السنة الواحدة، وما كان لهم من عذر خلاف إختلاف المذاهب والتحزب. ولو نظرنا ما وقع بين سيدنا عليّ بن أبي طالب ومعاوية والصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين ونظرنا واقعة سيدنا عثمان رضي الله تعالى عنه في تعصب فريق من الأمة عليه وقتله ظلماً، لوجب علينا أن نعذر السلاطين وأمثالهم فيما يقع منهم.

ثم على المسلم أن لا يتسرع بمؤاخذة هذا الملك وذاك السلطان، أو هذا الأمير أو ذاك الوزير في أغلب ما يسمع في شأن أحدهم بما لا يرتاح إليه ضميره، لأهمية مراكزهم وغيرتهم عليها أكثر مما يغار المرء على أهله وماله، ولربما تخالف الحقائق ما يسمع عنهم. وأما أحكام السلاطين في الازمنة السالفة بالقتل والنفي ونحو ذلك فهي مبنية على أشياء، منها ما هو ظاهر وما هو خاف. حيث أنهم لا يقتلون أحداً من الطريق المسلوك، بل لا بد من وشاية اليهم. فالواشي لا يقول أنه واشٍ، بل

يجعل قوله من باب النصيحة على حسب ذمته، والخلفاء والسلاطين كانوا يعتبرون المخبرين شهوداً في أحكامهم لا وشاة بقصد السوء.

نعم، لا بد من أنه أحياناً يكون المحكوم عليه مظلوماً، لكن هذه الحالة موجودة في كل مكان وزمان، وفي كل الحاكم. وتبعة المظلوم لا تكون على القضاة والحكام ما لم يتعمدوا، بل على الشهود ومن يقوم مقامهم، وكذلك حكم الخلفاء والسلاطين والملوك والامراء.

ومن هذا القبيل نقول: أن أبا جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيين قَتَلَ بغير سبب معلوم أبا مسلم الخرساني، مع أن أبا مسلم المذكور هو الذي أسس الدولة العباسية، وله عليه فضل كبير، وكان المنصور يضارع الإمام مالكاً في العلم والورع قبل توليته الخلافة. وكذلك قتل الخليفة هارون الرشيد جعفراً البرمكي. واقتتال كل من الأمين والمأمون إبْنَي هارون الرشيد، ثم قتل الأول. وكذلك قتل محمد المنتصر العباسي أباه الخليفة المتوكل على الله. وكون المقتدر بالله الخليفة العباسي خلع مرتين أو ثلاثاً قهراً عنه. وغير ذلك من هذا القبيل مما يطول ذكره. وما كان فيهم عناصر مختلفة الأجناس والأديان من مسلمين وغير مسلمين معشار ما في الدولة العلية من العناصر المختلفة المذكورة.

ثم إن عذر الدولة العلية أكثر من كافة دول الإسلام الماضية والحاضرة لعدم إمكانها إستجلاب محبة جميع هذه العناصر خصوصاً في الأمور المدسوسة عليها.

ومن أعذارها أيضاً إتساع البلاد، واضطرارها في سالف الزمن إلى إعطاء التفويضات للولاة في الادارة وغيرها لصعوبة المواصلات، وعدم وجود تلغرافات وسكك حديدية وسفن بخارية. وكانت تلك التفويضات مضرة في حقيقة الأمر غالباً، حيث أنه إذا ظَلَمَ أحد الولاة الرعيّة وطغى وشعرت الدولة بذلك عزلته وولت غيره، فالمعزول إذا كان من ذوي القوّة ربما يعصي، وتضطر الدولة لاعطاء قوّة حربية للوالي الجديد لتأبيد سلطته ولإخراج سلفه. حتى جاء زمن السلطان محمود، البطل الهمام، فأبطل هذه العادة المضرة من ضمن مآثره الحميدة في إيجاد الحياة الجديدة للدولة.

ولحد الآن تعذر الدولة فيا يحصل أحياناً في أطارف المملكة من التشويشات بين العناصر المختلفة، حيث لم يكن أحد في الدول أوسع مملكة من الدولة العلية خلاف الروسيا. ولا أقصد من ذلك مستعمرات إنكلترا الكثيرة، حيث أنها تخالف شكلاً بلاد الدولة العلية، التي تبلغ تقريباً أكثر من عشرة آلاف كيلومترات طولاً، وكذلك عرضاً براً وبحراً، مع عدم وجود كثرة السكك الحديدية وصعوبة انشائها وغير ذلك.

فبذا لا يلتفت إلى أقوال المتشدّقين في شأن الدولة. وبماذا يؤوّل هؤلاء والذين يعصون الدولة أحياناً مثل أمراء اليمن ومن على شاكلتهم ما ورد في القرآن الشريف، من قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنُوا أطيعُوا الله وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمر مِنْكم﴾[(١)]. هل في هذا العصر موجود خليفة أحق من السلطان المعظم بالطاعة له وتحريم مخالفته. أو لم يكن للآية الشريفة حكم في هذا العصر، تالله إنهم لفي ضلال مبين. ولم يكن لهم جواب عن ذلك ولا أوهن من بيت العنكبوت. وأين هم من الحديث الشريف الوارد في الصحيحين، عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله قال: «عَلَى المَرْءِ المُسْلِمِ السَّمْعُ والطَّاعَةُ فيما أحبَّ أوْ كرِهَ إلاّ أنْ يُؤمَرَ بِمَعْصِيَةٍ الله فَلا سَمْعَ وَلا طاعَةَ»[(٢)]. فهل يأمر الخليفة بمعصية الله؟

وقد كثرت المجالس والمدارس في عصره ومنعت الموبقات، فهو حفظه الله تعالى يحكم بواسطة تلك المجالس. نعم ان جلالته مهاب من الله تعالى، وكل من في قلبه مرض يهرب من عدل سطوته، ولجلالته من المزايا والفضائل ما لا يدخل تحت حصر. وهو الذي جيَّش الجيش العظيم، وفيه من رباط الخيل الآلاف المؤلفة المسوّمة، عملاً بقوله تعالى: ﴿وأعِدُّوا لهم ما استطعتم مِنْ قُوَّةٍ ومن رِبَاطِ الخيلِ تُرهِبُون به عَدُوَّ الله وعدُوَّكم﴾[(٣)] الخ الآية. وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه وعن رسول الله ﷺ قال: «مَن آحْتبَس فرَساً في سبيلِ الله إيماناً واحتِساباً وتصديقاً بوعدِه فانَّ شِبَعَهُ وَرِيَّهُ ورَوْثَهُ وبَوْلَهُ في ميزانِه يَومَ القيامة»[(٤)]. فما بال من احتبس أكثر من مائة ألف مثلاً.

أو لم يسمع الذين يصدقون الدسائس قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تُطيعوا فَريقاً مِن الذين أوتُوا الكتابَ يَرُدّوكم بعد إيمانِكم كافرين﴾[(٥)]. وجلالته قائم بشعائر الدين يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، حتى منع الخمر والفسوق وشدّد النكير عليها، إتباعاً لقول الله تعالى: ﴿وَلْتَكنْ منكم أمَّةٌ يَدْعونَ إلى الخيرِ ويأمرونَ بالمعروف ويَنْهَوْنَ عَن المنكرِ﴾ الآية[(٦)]. وإتباعاً لما ورد في صحيح مسلم، عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.
(٢) صحيح البخاري ومسلم ١٤٢٩/٣/١٨٣٩.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.
(٤) البخاري.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٠٠.
(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

رَأى مِنكُمْ مُنكراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ. فَإنْ لَمْ يَسْتطِعْ فَبِلِسانِهِ. فَإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ. وَذلِكَ أضْعَفُ الإيمانِ﴾(١). فهل أحد قائم بهذا الأمر مثل جلالته؟ كلا، فلماذا لا يقتدي أفراد الأمة بجلالته. ألم يسمعوا هذا الحديث؟

وقد فرض الله على الأمة القيام بطاعة أوامره ونواهيه وبمحبته، لما ورد في الصحيحين: عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ أَطاعَنِي فَقَدْ أَطاعَ الله، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى الله، وَمَنْ يُطِعِ الأَمِيرَ أَطاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِ الأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي**»(٢).

فتأملوا رحمكم الله في معنى هذا الحديث الشريف حيث جعل ﷺ طاعة الأمير طاعة له ومعصية الأمير معصية له. فالخليفة حفظه الله هو أمير الأمراء العمومي، الحامي عن الدين والدنيا، المحافظ على دماء المسلمين، فإذا حكم واجتهد فأخطأ فله أجر، واذا حكم واجتهد فأصاب فله أجران. وقد ورد في الصحيحين عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**اذا حَكَمَ الحاكِمُ فاجْتَهَدَ فَاصابَ فلهُ أجرانِ، واذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجْرٌ**»(٣).

هذا ويقال أن بعض المتشدقين الجهلة يقولون أخذاً من الدسائس، أن عساكر الدولة أقل درجة في التنعم من عساكر الدول. ولم يعلموا أن الدولة العلية تضاهي الدول العظمى في القوّة وغيرها، مع أن وارداتها لا تبلغ السدس من إيرادات الدول التي تضاهيها في القوّة والمنعة، وما ذلك إلا من الإقتصادات التي يعجز عنها غيرها.

ثم إن المسلمين لم يوجدوا في الدنيا للتباهي بالغنى والملبوسات الفاخرة والمسابقة مع غيرهم من أهل الدنيا في التنعم، بل وجدوا لإعلاء كلمة الله تعالى. فكانت الصحابة رضوان الله عليهم حفاة عراة جياعاً عطاشى بخلاف أعدائهم المتزينين والمتنعمين بالغنى والثروة، وهم أساس المسلمين وأئمتهم ونحن مقتدون بهم. وقد ورد في الصحيحين عن عمر رضي الله عنه قال: «**دَخَلْتُ على رَسُولِ الله ﷺ فَإذا هُوَ مُتَّكِىء على رِمالِ حَصيرٍ قد أثَّرَ في جنبِهِ. فَقُلْتُ: أَسْتَأْنِسُ يا رَسُولَ الله. قال: نَعَمْ. فَجَلسْتُ. فَرَفَعْتُ رَأسِي في الْبَيْتِ. فَوَالله ما رَأَيْتُ فيهِ شَيْئاً يَرُدُّ الْبَصَرَ إلاّ أَهَبَةً ثلاثَةً. فَقُلْتُ: ادْعُ الله أنْ يُوَسِّعَ عَلَى أمَّتِكَ، فَقَدْ وَسَّعَ عَلَى فارِسَ والرُّومِ ولا يَعْبُدُونَ الله. فَاسْتَوَى جالِساً، ثُمَّ قالَ: أَفي**

(١) صحيح مسلم ٤٩/٦٩/١.
(٢) صحيح مسلم ١٨٣٥/١٤٦٦/٣.
(٣) صحيح البخاري ومسلم ١٧١٦/١٣٤٢/٣.

شكٌّ أنْتَ يا ابْنَ الخَطَّابِ، أولئكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّباتُهُمْ في الحَيَاةِ الدُّنيا. فَقُلْتُ: اسْتَغْفِرْ لي يا رَسُولَ الله»[١]. ويعلم من الحديث الشريف أنّ تخشن المسلم لا يشينه بل يرفعه.

ثم إن الدولة العلية دولة حربية بالرغم عنها ذات نفقات دائمة كثيرة من كثرة الاعداء والمتحزبين، فلا لوم عليها إذا لم تكن دولة تجارية صناعية من الدرجة الأولى، نظراً لما ذكر. ولأن التجارة والصناعة من شأن الأمة. فلو كانت الأمة نشيطة، ولا أقصد من ذلك الأتراك وحدهم، لأن أغلبهم جنود، لكانت التجارة والصناعة والزراعة متوفرات. فإذاً اللوم على الأمة لا على الدولة، ومع ذلك فعندها الفابريقات اللازمة لها. والحاصل أن التخشن أو عدم تزين العساكر ونحوهما لا يشين الدولة في نظر المؤمنين المتنوّرين والعقلاء.

فتذكر يا من مُلِيء دماغه وفؤاده بالدسائس، ما ورد في الصحيحين عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: (ما شَبِع آلُ محمدٍ من خُبْزِ شَعيرٍ يومين مُتَتابعَيْنِ حَتّى قُبِض رسولُ الله ﷺ)[٢]. وفيهما عنها، قالت: (كانَ يأتي علينا الشهرُ ما نُوقِدُ فِيهِ ناراً إنما هو الأَسْوَدَانِ التَّمرُ والماء إلاّ أنْ نُؤتَى باللحم)[٣]. وفيهما، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تَسُبُّوا أصحابِي فَوَالذي نفسِي بِيدِهِ لو أنَّ أحدَكُمْ أنْفَقَ مثلَ أُحُدٍ ذَهباً ما بلَغَ مُدَّ أحدِهِمْ ولا نَصِيفَهُ»**[٤]. فاذا كانوا وهم أفضل الامة بلا خلاف وغزاة الله وأحزابه لا يُنْقِصُ قَدْرَهم عُرِيُّهم ولا جوعهم، بل عدّ ذلك من كمالاتهم، ومن أسباب فضلهم وشرفهم. فلا عار على عساكر الدولة لو جاعوا أحياناً أو تمزقت ملابسهم.

فبدلاً عما يتشدّق المتشدقون بمثل هذه الأقوال الفارغة وهم في سكرة تنعمهم في ظل الدولة، عليهم أن يوقظوا ويعظوا الأمة المتنعمة بنعمة الله تعالى في عزّ هذه الدولة بمساعدتهم إخوانهم العساكر، الذين هم تحت السلاح في الحر القايظ والبرد القارص، لحفظهم من المخالب ببعض دراهم أو ملبوسات، إقتداء بما فعل جلالة الخليفة حفظه الله تعالى، واتباعاً لما ورد في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«الْمُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ وَلا يَشْتُمُه. وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ. وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ الله بها عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ**

(١) صحيح البخاري ومسلم ١١١٣/٢.

(٢) رواه البخاري في كتاب الأطعمة باب ما كان النبي ﷺ وأصحابه يأكلون، ورواه مسلم في كتاب الزهد والرقائق.

(٣) رواه البخاري في كتاب الرقائق باب كيف كان عيش النبي وفي كتاب الهبة، ورواه مسلم في كتاب الزهد والرقائق.

(٤) الفتح الكبير ٣/ ٣٢٤: رواه أحمد والبيهقي وأبو داود والترمذي عن أبي سعيد ومسلم وابن ماجه عن أبي هريرة.

كُرَبِ يَوْمِ القِيَامَةِ. وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ الله تعالى يَوْمَ القِيَامَةِ»[(١)] . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أن النبي ﷺ قال: «لا يَسْتُرُ عَبْدٌ عَبْداً في الدُّنيا إلاَّ سَتَرَهُ الله يَوْمَ القِيَامَةِ»[(٢)] .

ثم ومن أهم ما يجب على المسلم أن لا يغتاب أحداً ممن يرى أفعاله لا يرتاح إليها ضميره، وبالأخص خليفة المسلمين. وقد قال الله تعالى: ﴿ولا يغْتَبْ بعضُكم بعضاً أيُحِبُّ أحَدُكم أن يأكُلَ لَحْمَ أخِيهِ مَيْتاً فكرِهْتُمُوه﴾[(٣)] الخ الآية. حتى ولو كان في المغتاب ما يقال عنه فلا يجوز ذكره، فقد ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتَدْرُونَ مَا الغِيبَةُ؟ قلتُ: الله وَرَسُولُهُ أعْلَمُ. قال: ذِكْرُكَ أخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ. قلت: وَإنْ كانَ في أخِي مَا أقولُ. قال: إنْ كانَ فِيهِ ما تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ»[(٤)] . ولا يغتر بما يراه من الفتن، فقد ورد في صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص: (أنه أقْبَلَ مَعَ النَّبي ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ العَالِيَةِ. حَتَّى إذَا مَرَّ بِمَسْجِدِ بَنِي مُعَاوِيَةَ، دَخَلَ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ. وَصَلَّيْنا مَعَهُ، وَدَعَا رَبَّهُ طَـويلاً. ثُمَّ انْصَرَفَ إلَيْنا. فَقَالَ: سَأَلتُ رَبِّي ثَلاثاً. فَأعطاني ثِنْتَيْن وَمَنَعَنِي وَاحِدَة. سَأَلتُ رَبِّي أنْ لا يُهْلِكَ أمَّتِي بالسَّنَةِ[(٥)] فَأعطانيها. وَسَألتُ رَبِّي أنْ لا يُهْلِكَ أمَّتي بِالغَرَق فَأعطانيها. وَسَألتُ رَبِّي أنْ لا يَجْعَلَ بَأسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعنيها)[(٦)]. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سَتَكُونُ فِتَن القَاعِدُ فيها خَيْرٌ مِنَ القَائِمِ، وَالْقَائمُ فِيها خَيْرٌ مِنَ الماشي وَالْمَاشي فِيها خَيْرٌ مِنَ السَّاعي، مَنْ تَشَرَّفَ لَها تَسْتَشْرِفْهُ، وَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أوْ مَعَاذاً فَلْيُعذْ بِهِ»[(٧)] . وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، لأنَّ الظَّنَّ أكْذَبُ الْحَدِيثِ. وَلا تَجَسَّسُوا ولا تحسَّسُوا، ولا تَنافَسُوا[(٨)]، ولا تَحاسَدُوا، وَلا تَبَاغَضُوا، وَلا تدابَرُوا[(٩)]، وكونوا عبادَ الله إخْواناً كَما أمَرَكُم. المُسلمُ أخُو المسلمِ، لا يَظْلِمُه، ولا يَخْذُله، ولا يَحْقِرُه. التَّقوَى هَهُنَا، التقوى ههنا، التقوى ههنا، ويُشير إلى صدرِه. بِحَسْبِ

---

(١) ورواه أحمد والبيهقي عن ابن عمر والبخاري في المظالم ومسلم في البر والذكر وأبو داود في الأدب والترمذي في الحدود والبر والقرآن وابن ماجه في مقدمته.

(٢) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب باب بشارة من ستر الله تعالى عليه عيبه . . .

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

(٤) ورواه أحمد وأبو داود والترمذي كلهم من أبي هريرة، كنز العمال ٣/ ٨٠١٢.

(٥) أي القحط والجدب.

(٦) أخرجه أحمد عن سعد ومسلم في كتاب الفتن باب هلاك هذه الأمة من غير لفظ: ثلاثاً، ورواه أيضاً ابن شيبة وابن خزيمة وابن حبان عن عامر بن سعد عن أبيه بهذا اللفظ.

(٧) رواه أحمد في مسنده والبيهقي عن أبي هريرة.

(٨) أي لا ترغبوا فيما رغبه الغير من أسباب الدنيا وحظوظها.

(٩) أي لا يعط أحد ظهره لأحد

امْرِء من الشَرِّ أنْ يَحقِرَ أخاهُ المسلمَ. كُلُّ المسلمِ على المسلم حرامٌ، دمُه وعِرضُه ومالُه. انّ الله لا ينظرُ إلى أجسادِكم ولا إلى صُوَرِكم وأعمالِكم، ولكن ينظرُ إلى قلوبكم» (١) . وفيها عنه: «**سئل رسول الله ﷺ: أيُّ الناسِ أكرمُ؟ قال: أكرمُهم عند الله أتقاهُمْ**» (٢) .

وقد يختلج في الأفكار ويتراءى للإنسان وقائع ظاهرها في غير محلها، ويعترض عليها. فلا ينبغي أن يتسرع بالإعتراض والإغتياب، ولذا أبرىء نفسي ممن يقدح أو يغتاب أحداً عند مطالعته هذا الكتاب. وقد يمكن أخذ موعظة عظيمة في ذلك من الحديث الشريف الوارد في الصحيحين عن ابن عمر قال: (حَرَق رسول الله ﷺ نخلَ بني النَّضِير وقطَع وهي البُوَيْرة(٣) . فنزل: ﴿**ما قَطَعْتُمْ مِن لِينَةٍ أو تَركتمُوهَا قائمةً على أصولِهَا فبأذنِ الله وَلِيُخْزِيَ الفاسقينَ**﴾(٤). وذلك أن بعضهم وجدوا في أنفسهم شيئاً من قول بني النضير، إذْ قالوا: إن هذا فعل الفساد، والأنبياء كيف يأمرون بفعل الفساد، فأنزل الله تعالى الآية بأن ذلك باذنه. فذهبت وساوس الشيطان من قلوب الذين وجدوا في أنفسهم شيئاً.

ثم لا يخلو الزمن من حدوث الخيانة أو شبه الخيانة، فانظر ما حدث في عهد رسول الله ﷺ من هذا القبيل، كما ورد في الصحيحين عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال: «**بَعَثَنِي رَسُولُ الله ﷺ أَنا وَالزُّبَيْرَ وَالمِقْدَادَ، فَقالَ: إنْطَلِقُوا حَتَّى تَأتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ(٥)، فَإنَّ بِها ظَعِينَةً مَعَها كِتابٌ فَخُذُوهُ مِنْها. قال: فَانْطَلَقْنا تَتَعادى بِنا خَيْلُنا حتى أَتَيْنا الرَّوْضَةَ فَإذا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ. فَقُلْنا: أَخْرِجي الكِتابَ. فَقالَتْ: مَا مَعي مِنْ كِتابٍ. فَقُلْنا: لِتُخرِجي الكِتابَ أَوْ لَتُلْقِيَنَّ الثِّيابَ. فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِها. فَأَتَيْنا بِهِ النَّبيَّ ﷺ، فَإِذَا فِيهِ: مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى أَناسٍ مِنَ المُشْرِكِينَ، مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ النَّبي ﷺ. فَقالَ عليه الصلاة والسلام: يَا حَاطِبُ، مَا هذا؟ فقال: يَا رَسُولَ الله، لا تَعْجَلْ عَلَيَّ إنِّي كُنْتُ امْرَءاً مُلصَقاً في قُرَيْشٍ وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ. وَكانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ المُهاجِرينَ لَهُمْ قَرَاباتٌ يَحْمُونَ بِها أَهْلَهُمْ وَأَموالَهُمْ بِمَكَّةَ، فَأَحْبَبْتُ إذْ فاتَني ذلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ مِنْهُمْ يَداً يَحْمُونَ بِها قَرابَتِي. وما فَعَلْتُهُ كُفْراً وَلا ارْتِدَاداً عَنْ دِيني، وَلا أَرْضى بالكُفْرِ بَعْدَ**

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب البر باب تحريم الظن وأخرج طرفاً منه البخاري في الأدب. وقوله: التقوى ههنا هي عند الترمذي في البر وأحمد بن حنبل كما رواه أيضاً أبو داود والبيهقي كما في الجامع الصغير، كلهم عن أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة كتاب الفضائل باب من فضائل يوسف عليه السلام، ورواه البيهقي عن أبي هريرة كما في الجامع الصغير وكنز العمال.

(٣) موضع لبني النضير بها نخيل وغيرها. (٤) سورة الحشر الآية ٥. (٥) موضع بقرب حمراء الاسد من المدينة.

امْرِءٍ من الشَرِّ أنْ يَحقِرَ أخاهُ المسلمَ. كُلُّ المسلمِ على المسلم حرامٌ، دمُه وعِرضُه ومالُه. انّ الله لا ينظرُ إلى أجسادِكم ولا إلى صُوَرِكم وأعمالِكم، ولكن ينظرُ إلى قلوبِكم» [١] . وفيها عنه: «سئلَ رسول الله ﷺ: **أيُّ الناسِ أكْرمُ؟ قال: أكرمُهم عند الله أتقاهُمْ»** [٢] .

وقد يختلج في الأفكار ويتراءى للإنسان وقائع ظاهرها في غير محلها، ويعترض عليها. فلا ينبغي أن يتسرع بالإعتراض والإغتياب، ولذا أبرىء نفسي ممن يقدح أو يغتاب أحداً عند مطالعته هذا الكتاب. وقد يمكن أخذ موعظة عظيمة في ذلك من الحديث الشريف الوارد في الصحيحين عن ابن عمر قال: (حَرَق رسول الله ﷺ نخلَ بني النَّضِير وقطَع وهي البُوَيْرة[٣] . فنزل: **﴿ما قَطَعْتُمْ مِن لِينَةٍ أو تَركتمُوهَا قائمةً على أصولِهَا فبأذنِ الله وَليُخْزِيَ الفاسقينَ﴾**[٤]. وذلك أن بعضهم وجدوا في أنفسهم شيئاً من قول بني النضير، إذْ قالوا: إن هذا فعل الفساد، والأنبياء كيف يأمرون بفعل الفساد، فأنزل الله تعالى الآية بأن ذلك باذنه. فذهبت وساوس الشيطان من قلوب الذين وجدوا في أنفسهم شيئاً.

ثم لا يخلو الزمن من حدوث الخيانة أو شبه الخيانة، فانظر ما حدث في عهد رسول الله ﷺ من هذا القبيل، كما ورد في الصحيحين عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال: «**بَعَثَنِي رَسُولُ الله ﷺ أنا وَالزُّبَيْرَ وَالمِقْدادَ، فَقالَ: إنْطَلِقُوا حَتَّى تَأتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ**[٥]**، فَإنَّ بِها ظَعِينَةً مَعَها كِتابٌ فَخُذُوهُ مِنْها. قال: فَانْطَلَقْنا تَتَعادى بِنا خَيْلُنا حتى أتَيْنا الرَّوْضَةَ فَإذا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ. فَقُلْنا: أخْرِجي الكِتابَ. فَقَالَتْ: مَا مَعي مِنْ كِتاب. فَقُلْنَا: لِتُخْرِجي الكِتابَ أَوْ لَتُلْقِيَنَّ الثِّيابَ. فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِها. فَأَتَيْنا بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَإذَا فِيهِ: مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى أُنَاسٍ مِنَ المُشْرِكِينَ، مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ النَّبي ﷺ. فَقالَ عليه الصلاة والسلام: يَا حَاطِبُ، مَا هذا؟ فقال: يَا رَسُولَ الله، لا تَعْجَلْ عَلَيَّ إنِّي كُنْتُ امْرَءاً مُلصَقاً في قُرَيْشٍ وَلَمْ أكُنْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ. وَكانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ المُهاجِرينَ لَهُمْ قَرَاباتٌ يَحْمُونَ بِها أَهْلَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِمَكَّةَ، فَأَحْبَبْتُ إذْ فاتَنِي ذلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ مِنْهُمْ يَداً يَحْمُونَ بِها قَرابَتي. وما فَعَلْتُهُ كُفْراً وَلا ارْتِدَاداً عَنْ دِيني، وَلا أَرْضَى بالكُفْرِ بَعْدَ**

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب البر باب تحريم الظن وأخرج طرفاً منه البخاري في الأدب. وقوله: التقوى ههنا هي عند الترمذي في البر وأحمد بن حنبل كما رواه أيضاً أبو داود والبيهقي كما في الجامع الصغير، كلهم عن أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة كتاب الفضائل باب من فضائل يوسف عليه السلام، ورواه البيهقي عن أبي هريرة كما في الجامع الصغير وكنز العمال.

(٣) موضع لبني النضير بها نخيل وغيرها. (٤) سورة الحشر الآية ٥. (٥) موضع بقرب حمراء الاسد من المدينة.

وأوصيهم أيضاً بالمحافظة التامة على إقامة شعائر دينهم، وعدم قبول مساسها مطلقاً، حتى لا يكونوا من الذين خسروا أنفسهم في الدنيا والآخرة من أجل حطام الدنيا الفانية.

فاذا استضعف الناس ولم يحافظوا على كرامة دينهم خشية الاذى، فقد حقت عليهم الذلة، ولا عذر لهم لدى الخالق جل وعلا يوم القيامة. فقد قال الله تعالى: ﴿ **إنَّ الذين تَوفاهُم الملائكةُ ظالِمي أنفُسِهم قالوا فِيمَ كنتم قالوا كنّا مُسْتَضْعَفين في الارضِ قالوا: ألم تكنْ أرضُ الله واسعةً فَتُهاجِروا فيها فأولئك مأواهم جَهنَّمُ وساءت مصيراً إلا المُستضعَفِين مِن الرجالِ والنساء والوِلْدانِ لا يَستطيعونَ حِيلةً ولا يَهتدُونَ سبيلاً فأولئك عسَى الله أنْ يَعفُوَ عنهم وكان الله عَفوّاً غَفوراً ومنْ يُهاجِرْ في سبيلِ الله يَجِدْ في الارضِ مُراغَماً كثيراً وَسَعةً ومَن يَخرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهاجِراً إلى الله ورسولِه ثم يُدرِكْهُ الموتُ فقد وقَعَ أجرُهُ على الله وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾ [1]. وفي الحديث: « **من فَرَّ بِدينِه مِن أرضٍ إلى أرضٍ وان كان شِبْراً من الارضِ استَوْجَبتْ له الجنةُ، وكان رفيقَ ابراهيمَ ونبيِّه محمدٍ ﷺ** » [2].

وبالإختصار إنه لا يجوز للمسلم أن يقيم في بلد لا يستطيع أن يحفظ دينه فيها، وبمعنى أوضح أن من لم يتمكن من إقامة دينه في بلد كما يجب، وعلم أنه يتمكن من اقامته في غيره، حقت ووجبت عليه المهاجرة. حيث لله الحمد بابها مفتوح في كل وقت إلى الأراضي الواسعة في بلاد الدولة العلية.

ولما كان أهم شيء في هذه الدنيا للمسلم حفظ دينه فقد فرض الله عليه الجهاد والقتال لأجل ذلك. ولكنه لا يجوز للمسلم أن يقاتل المسلمين مع غير أهل ملته، وبالأخص عساكر الخليفة أيده الله تعالى بنصره. ومصداق ذلك أنه خرج من مكة أناس ممن أسلموا ولم يهاجروا، إلى غزوة بدر مع المشركين، فقتلوا. فأنزل الله تعالى فيهم وفي أمثالهم: ﴿ **ان الذين توفاهم الملائكة** ﴾ الآية الماضية.

ثم أوصي من يزعم من المسلمين بجواز إيصال الأذى إلى غير أهل ملته الغير المحاربين بأن هذا الزعم باطل. ومن يفعل شيئاً من ذلك فقد خالف الله ورسوله والشريعة الإسلامية. وأن الواجب هو معاملتهم بالمعروف ومكارم الأخلاق.

[1] سورة النساء، الآية: ١٠٠.

[2] لم أقف على هذا الحديث في كافة المصادر التي لدينا إلا أن الديلمي رد حديثاً عن أبي الدرداء هذا لفظه: من فرّ بدينه من أرض إلى أرض مخافة الفتنة على نفسه ودينه كتب عند الله صدّيقاً فإذا مات قبضه الله شهيداً.

ثم أوصي عقلاء النصارى الذين هم من رعايا حكومات الإسلام، وعلى الأخص الدولة العلية التي لها كثير منهم، بل معظمهم، بأن يتدبروا في الأمور ومعاملاتهم مع حكوماتهم وخلطائهم المسلمين، لأنهم خير لهم من الأجانب الذين يظهرون لهم بياض أسنانهم والشفقة عليهم، ويخدعونهم بأنواع الأوهام بالإستقلال وما شاكله. وفي الحقيقة هم يخدمون مصالحهم ومصالح دولهم ليس إلا.

ولقد إنخدعت الأمّة البولونية وغيرها وكان عاقبتها ما هو معلوم من تمزيقها وإذلالها حتى أنهم منعوا أن يتكلموا بلغتهم الأصلية وغير ذلك من أنواع الإذلال على يد من خدعهم من أهل ملّتهم. ولا عبرة بمن نال الإستقلال الموقت إذ أن الظروف قضت بذلك رغماً عن الجميع إلى انتهاز الفرص.

وأما الدولة العلية أيدها الله بنصره فإنها منحت النصارى وغيرهم الحرية التامّة في دينهم ومعابدهم ولغاتهم ومدارسهم مع احترام رؤساء دياناتهم ومعافاتهم من العسكرية، وغير ذلك من تلقاء نفسها، قديماً وحديثاً، مما لا يتحصلون على معشاره من غيرها.

وليعلموا أنهم إذا صاروا تحت يد دولة أجنبية يكونون غرباء في بلادهم، وأذلاء يساقون في الجيش إلى الأمام في المواقع الحربية، لان ضباطهم الأجانب يفضلون بقاء أبناء جنسهم عنهم، ويجعلونهم شبه خدمة لهم كسياس ونحوهم. بخلاف ما إذا عرفوا حق حسن العشرة مع الدول الإسلامية، فيكونون أعزاء وتحفظ نعمهم وراحاتهم مع عزهم عند الأجانب أيضاً، ولعلهم لا يشعرون بالنعم التي هم فيها الآن لأن الإنسان لا يشعر بقيمة النعم غالباً إلا بعد زوالها، كما ولا يشبع من الطمع الوهمي.

فالعاقل من يعلم الاشياء من قبل التجارب قياساً على ما مضى وما هو معروف. والحاصل ان طلباتهم الوهمية هي كطلبات بني إسرائيل، إذ قالوا: لَنْ نصبرَ على طعامٍ واحدٍ، فادعُ لنا ربَّك يُخرجْ لَنا ممّا تُنبتُ الارضُ من بَقْلِها وقِثّائها وفُومِها وعَدَسِها وبَصلِها. فردّ الله عليهم بقوله: ﴿أتَسْتبدِلون الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ﴾[1]. أو كإنسان سئمت نفسه من المأكولات الفاخرة فمالت إلى غيرها ولو أدنى منها. فالعاقل هو الذي يتأمّل ويتفكر في الامور ليختار أحسنها وأسلمها عاقبة. والله الموفق للصواب. ولا أعني بذلك إلا الذين تنطبق عليهم هذه الحالة خاصة.

* * *

(١) سورة البقرة، الآية: ٦١.

(الحكومة المطلقة)

تمنى بعض الشبان وغيرهم من قصراء النظر من المسلمين، من زيادة إختلاطهم بالأجانب في بلادهم، ورؤيتهم دستوراتهم المقيدة بها ملوكهم بالقوانين الوضعية، ووجود مجالس مضادة لحكوماتهم ظاهراً، أن تكون الدولة العلية مثلهم. وهذه الافكار غير موافقة. لان دول الاسلام بدأت ومضى لها ثلاثة عشر قرناً وجميعها مع تعدّدها وتنوّعها في مشارق الارض ومغاربها، صغيرها وكبيرها، بهذه العادة، وتقدّمهم ونموّهم الهائل لغاية القرن السادس أمر معلوم. مما يقطع قول الاعداء من أن تأخير المسلمين هو لهذا السبب، أو رجوع القوة الاسلامية وعظمتها تكون مبنية على وجود المجلس المذكور. اذ لم يبدأ فيها التقهقر بعد ذلك إلا بتفرقهم وانحرافهم عن الشرع الشريف، حتى سلط الله عليهم الأمّة التترية من الشرق والإفرنجية من الغرب. فالاولى استولت على ثلثي ممالك الاسلام تقريباً. والثانية استولت على معظم بلاد الشام، وهدّدت مصر مراراً.

فكانت وطأة الاولى هائلة وفظيعة فوق ما يتصوّر. ولكن الله منّ على الأمّة الاسلامية بعد تأديبها بإسلام التتر. فعادت القوّة لها كما كانت بل أكثر.

وأما الثانية فبعد الحروب العديدة المتقطعة بينها وبين المسلمين المعروفة بالحروب الصليبية نحو قرن ذهبت مغلوبة من حيث أتت. فبعد انقراض الدولة العباسية في منتصف القرن السابع قطعت آمال المسلمين من رجوع القوّة الاسلامية ولو بأقل مما كانت عليه قبلاً.

ولم يمض على ذلك قرن حتى منّ الله تعالى برجوع القوّة وزيادة كما ذكر، فظهرت الدولة العثمانية خلدها الله تعالى إلى يوم القيامة بقوّة عظيمة، وبهجة عجيبة، كالبدر في أفق السماء بما أبهر العقول.

وبما أن مثل الدولة العلية التي هي ذات الشريعة السماوية، السائرة في أحكامها بمقتضى الفتاوى الشرعية، لا تحتاج إلى قوانين وضعية مخالفة للشرع، ولا إلى تشكيل مجلس يكون خصماً لها كبرلمانات أوربا، حيث أن الشريعة السماوية كافية لكل ما يحتاج إليه الانسان إلى يوم القيامة. وغاية ما تحتاج إليه الدولة هو تنفيذ الشرع الشريف والقوانين المسنونة منه ليس إلاّ. كما وأن جسم الدولة مركب من عناصر كثيرة مختلفة الاجناس والاديان والمذاهب ومتباينة في المشارب والاغراض، يبغضون بعضهم بعضاً كما هو المشاهد عياناً، فتشكيل مجلس نيابي ضد الحكومة من هذه العناصر يشبه حديقة مشيدة الابنية وضع فيها عدد من السباع والنمور والذئاب

والثعالب مع الأغنام والأرانب والدجاج وما أشبه ذلك رجاء أن يحفظ بعضهم بعضاً، فهل يرجى ذلك؟ كلا، فضلاً عن أن لكل من هذه العناصر يداً أجنبية تحركها بما يضر مصالح الدولة.

ولقد تشكل هذا المجلس في أوائل جلوس مولانا السلطان بأمر جلالته، وكانت نتيجة مداولات أعضائه مهيئة لحرب الروسية الأخيرة التي أضرت بالدولة.

والحاصل أن وصف أعداء الدولة لها بأنها دولة إستبدادية ما هو إلا من ضمن التعصبات الحاصلة يريدون بذلك الشر لها لمآرب في النفوس، وكراهة في الصدور. فالدولة التي كتابها السماوي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، المنزه عن الغلط، المسنونة قوانينها منه بناء على فتاوى شرعية، وذات مجالس نظامية، لا توصف بدولة إستبدادية إلاّ في نظر الاعداء.

ومع ذلك فللدولة مجلس شورى مشكل من أعظم رجالها لإعطاء أفكاره بالحرية التامة. وبعد ذلك يعرض قرارهم على مجلس الوزراء، ثم على جلالة السلطان. ومجلس آخر يعقده السلطان عند اللزوم من مشيري الدولة والصدور العظام السابقين. ولا شك أن هذه المجالس هي عبارة عن الشورى الشرعية الواردة في القرآن، بقوله تعالى: ﴿**وشاوِرْهم في الامرِ**﴾[١].

ولكن جمع محبة جميع هذه العناصر في الدولة، أو في شخص جلالة السلطان من المحال. والدليل على ذلك أن أعداء الأنبياء صلوات الله عليهم، كانوا يقولون فيهم أشنع مما يقول أعداء الدولة فيها، مع أنهم معصومون وموصوفون بجميع الكمالات البشرية، منزهون عن النقائص، ولا يفعلون إلا بوحي سماوي.

فبذا يرى أن أقوال الأعداء أو الجهلاء في هذا الخصوص لا تشين الدولة، فأوصافها هي محاسن الأخلاق والشهامة والمروءة والشفقة وإغاثة الملهوف ونصرة المظلوم وقبول من يلتجيء إليها مستغيثاً من غير تحيز لجنسه، ولا دينه ولا مذهبه، وحمايته مما يخاف ولو من عدوّ جبار كما تثبت ذلك التواريخ. ولقد أغاثت فرنسا من اسبانيا، وملك أسوج من بطرس الكبير وغيرهما. فأي شيء من هذه الخصال الحميدة في دولة غيرها. على أن القويّ في هذا العصر إذا افترس بضعيف مظلوم ملأ الآفاق بصراخه، لا يجد من يغيثه، مع أن سكان الجبال الهمجية، إذا تعدّى أحد منهم على آخر اجتمع كبراؤهم ومنعوا الظالم عن المظلوم منهم. فالدول الزاعمة بالتمدّن المتناهي إذا كانوا صادقين

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

في زعمهم هذا، فليتفق منهم على الاقل ثلاثة لإغاثة الحكومات الضعفاء بغير تعصب ولا ميل لأي ملة أو جنس كان، والا فلا تمدّن ولا شهامة ولا مروءة. فلذا ترى المؤمنون العقلاء يقدّسون ويعظمون سلاطين آل عثمان، حيث أيد الله بهم الاسلام ستة قرون وربع، وهي تقرب من نصف حياة الاسلام، ونسأل الله تعالى أن يؤيد الاسلام بهم إلى يوم القيامة.

وأما وجود مجالس نيابية في أوربا فهذا أمر ضروري، والأمة لها الحق في ذلك، حيث ان شرائع البلاد وضعية من صنع البشر فضروري من اشتراك الامم في وضعها.

وأما شريعة الاسلام فقد تولى الله تعالى بنفسه تشريعها، فلا يجوز أن يشاركه أحد وهو لا شريك له. فهذا هو الفرق بينهم وبين الدولة. فهل أنتم منتهون يا أصحاب هذه الأفكار؟

ثم نذكر فريقاً من الأمة الاسلامية، وهم المخلصون المحبون للدين والدولة والوطن، المتسلط على أفكارهم القنوط واليأس من رجوع العز والعظمة للإسلام، بأن هذا غير جائز لا شرعاً ولا عقلاً ولا عادة. فقد قال الله تعالى: ﴿**لا تَقنَطوا مِنْ رحمَةِ الله**﴾ (١). ورحمته تعالى ليست مقيدة بالآخرة، بل كل شيء يصيب الانسان من نعمة الله من جلب نفع أو دفع ضر فهو من رحمة الله، (**وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين**﴾ (٢). فارسال سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام في الدنيا متعلق بما ذكر من دنيوي وأخروي. وقال تعالى: ﴿**ولا تَيْأسوا مِن رَوْحِ الله إنه لا يَيأسُ مِنْ رَوحِ الله إلا القومُ الكافرون**﴾ (٣). وقال تعالى: ﴿**ويَخلُقُ ما لا تعلمون**﴾ (٤). وغير ذلك مما في القرآن والاحاديث.

وأما عقلا فليعلم مثل هؤلاء أن الإسلام بدأ بشخص واحد وهو رسول الله ﷺ ثم خديجة ثم أبو بكر رضي الله تعالى عنهما ثم أفراداً وأزواجاً، وهم محاطون بالألوف من طغاة وعتاة وصناديد كفار قريش، ويعذبون من قدّر عليه ذلك منهم بأنواع العذاب، حتى أعز الله الإسلام شيئاً فشيئاً، وما كان يصدّق فرد واحد من البشر بأن سكان جزيرة العرب يملكون بلاد فارس والروم في ذاك الوقت في ظرف ربع قرن كما حصل، بل ولا إلى يوم القيامة. فضلاً عن ذلك فإن بعد إنتقال الرسول عليه السلام إرتد أكثر أهل اليمن، فقاتلهم أبو بكر والصحابة رضي الله عنهم حتى أعز الله الإسلام بما لا يتصوّر.

(١) سورة الزمر، الآية: ٥٣.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٨٧.
(٤) سورة النحل، الآية: ٨.

وإذا قال قائل ان ذلك كان لأجل النبي وإظهار دينه وإخلاص الصحابة في الدين، فنقول: إن الرسول عليه السلام أرسل إلينا جميعاً بشيراً ونذيراً لإعلاء كلمة الله، ولم يكن لرسالته ميعاد تنتهي إليه، وما يمنعنا نحن من الإخلاص في الدين مثل الصحابة حتى تكون لنا النصرة كما كانت لهم.

ولما كانت خطتنا الإختصار في هذا الكتاب فتكفي هذه الأمثال لهؤلاء الرجال لرجوعهم عن هذه الأوهام، ولا يجعلون ثقتهم بالله قليلة ونسأل الله التوفيق.

ثم إن فريقاً آخر عليهم واجبات هم مقصرون فيها، وهم الأغنياء والرؤساء والحكام.

فالأولون لعدم مساعدتهم لحكوماتهم بما يعينهم على مشروعاتهم الخيرية لحفظ بلادهم، فإن بعضهم إذا قام ببعض مساعدات بعد تكرار التردّد والوساوس، ولم يحصل عقب ذلك ما كان يؤمله من أمور الدنيا، ندم على هذه المساعدة وعزم وجزم على أن لا يساعد مرة أخرى.

فليعلم هؤلاء الأغنياء أن النصرة لا تأتي بهذه الأحوال، وإنما الأعمال بالنيات، ولله خزائن السموات والأرض. فالصحابة رضي الله تعالى عنهم كانوا ينفقون ما ملكت أيديهم في سبيل الله، فأغناهم الله تعالى بعد الشدائد الهائلة لسلامة نياتهم وصبرهم. وقد ورد في الصحيحين، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ فِيهِ الْعِبَادُ إلاَّ وَمَلَكَانِ يَنْزِلانِ. يَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً. وَيَقُولُ الآخَرُ: اللهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً»** (١). وفيهما عنه، أن رسول الله قال: **«قال الله تعالى: أَنْفِق يُنْفَقْ عَلَيْكَ»** (٢). وفيهما، عن أسماء بنت أبي بكر الصديق قالت: قال رسول الله ﷺ: **«أَنْفِقِي وَلا تَحْصِي فَيُحْصى عليكِ، وَلا تُوعِي فَيُوعَى عَلَيْكِ»** (٣). أي لا تشحي فيشح الله عليك، ويجازيك بالتقتير في رزقك، ولا يخلف عليك.

ألم يعلم هؤلاء الأغنياء أن الأعداء إذا سادوا على بلادهم لا تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم التي هم حريصون عليها شيئاً، فضلاً عن ذهاب مجدهم وعزهم. وربما يذهب منهم دينهم أو دين أولادهم وذرياتهم على تمادي الأيام.

ألم يعلم هؤلاء أن الإنسان يأمن على وديعته عادة عند الأغنياء أمثالهم، فكيف لا يأمنون على وديعتهم عند مالك الممالك سبحانه وتعالى مالك الدنيا والآخرة بإنفاق بعض من أموالهم في سبيله.

---

(١) رواه النسائي عن أبي هريرة ورواه بنحوه البخاري ومسلم كما في كنز العمال ٦/ ١٦٠١٦ - ١٦١٢١.

(٢) رواه أحمد والبيهقي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: قال الله تعالى: «أنفق يا ابن آدم أنفق عليك.

(٣) رواه مسلم في صحيحه كتاب الزكاة باب الحث في الإنفاق، ورواه أحمد والبيهقي عن أسماء بنت أبي بكر كما في كنز العمال ٦/ ١٥٩٥٠.

وقد قال تعالى: ﴿مَنْ ذا الذي يُقرِضُ اللهَ قرضاً حَسناً فيُضاعِفَه له وله أجرٌ كريمٌ﴾ (١). وقال تعالى: ﴿وما أنفقتم مِن شيءٍ فهو يُخلِفُه وهو خيرُ الرازقين﴾ (٢). إلى غير ذلك مما يطول شرحه.

وقد وعد الله الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله بمضاعفة الجزاء من عشرة إلى سبعمائة إلى مالا نهاية، كما قال الله تعالى: ﴿مَنْ جاء بالحسنةِ فله عَشْرُ أمثالِها﴾ (٣). وقال سبحانه وتعالى: ﴿مَثَلُ الذين يُنفِقون أموالَهم في سبيلِ الله كمَثَلِ حبَّةٍ أنبتَتْ سَبْعَ سنابِلَ في كلِّ سُنبُلةٍ مائةُ حبَّةٍ واللهُ يضاعِفُ لِمنْ يشاء واللهُ واسعٌ عليمٌ﴾ (٤). وقال جلَّ وعلا: ﴿ومن يُوقَ شُحَّ نفسِه فأولئك هُمُ المُفلِحون﴾ (٥). وفي النسائي: قال رسول الله ﷺ: «شَرُّ ما في الرَّجُلِ شُحٌّ هالِعٌ وجُبْنٌ خالِعٌ» (٦). وفيه: «لا يجتمع غُبارٌ في سبيلِ الله ودُخان جَهنَّمَ في جوفِ عبدٍ أبداً (٧)، ولا يَجتمِعُ الشُّحُّ والايمان في قلبِ عبْدٍ أبداً» (٨).

والحاصل أن المؤمن يجب عليه أن يتذكر أن شدة الحرص على الأموال ربما أوجبت إتلافها بمصائب غيبية كأصحاب الجنة الذين ذكرهم الله تعالى في سورة نۤ، بقوله تعالى: ﴿إنَّا بلَوْناهم كما بلَوْنا أصحابَ الجنَّةِ إذْ أقسَموا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِين ولا يَسْتثنُون فطاف عليها طائفٌ مِن ربِّك وهم نائمون فأصْبحَتْ كالصَّرِيم﴾ (٩)، الآيات. ومعنى ما ورد عنهم: أنهم كانوا إخوة من أهل الصلاة، وكانت هذه الجنة لأبيهم بقرب صنعاء اليمن، وكان يأخذ منها قوت سنة ويتصدق بالباقي على المساكين. فلما مات قالوا: إن فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر. فعزموا وحلفوا على أن يصرموها خفية عن المساكين، فأحرقها الله تعالى جزاء على شح أنفسهم بمنع المساكين.

والحاصل أن من يعتقد أن ما ينفقه في سبيل الله من ماله الحلال ينقص أمواله ويترتب عليه

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٥.

(٢) سورة سبأ، الآية: ٣٩.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٦١.

(٥) سورة الحشر، الآية: ٩. سورة التغابن، الآية: ١٦.

(٦) الهلع شدة الجزع والخلع شدة الخوف الذي يكاد ينخلع منه الفؤاد، والحديث رواه البخاري في تاريخ وأبو داود في سننه عن أبي هريرة.

(٧) رواه ابن زنجويه عن أبي هريرة وعن عائشة كما في كنز العمال ٤/ ١٠٧٠٢.

(٨) قوله: ولا يجتمع الشح والإيمان. . . هذا الجمع بين طرف الحديث هذا والذي قبله من لعله من صنع المؤلف، أما هذا الحديث فقد أخرجه ابن شيبة وهناد والترمذي والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان وابن جرير في تهذيبه، جميعهم عن أبي هريرة.

(٩) سورة القلم، الآية: ١٧.

فقره، فهو قليل الثقة بالله، وربما يُحْرَمُ من ماله بهذا السبب، فنعوذ بالله من ضعف الدين وشح النفس. إنما يتذكر أولو الالباب.

وأما واجبات الرؤساء والحكام فهي إتحادهم وإنضمامهم على بعضهم، لإيجاد القوّة المترتب عليها حفظ بلادهم، وإتحاد الجميع مع أكبرهم شأناً وأقواهم عملاً، وهو الخليفة الأعظم سلطان الدولة العلية. لأن كلاً منهم يعتبر نفسه بأنه أعظم وأشرف من الآخر، وهذا هو الضلال المبين، والبلاء الجسيم، ورأس كل المصائب، وهو عين التفرق الممنوع شرعاً، والمنهي عنه بل إن هذا التنافس الفاسد، والوهم العقيم، هو السبب الوحيد في خراب البلاد وضياعها وتشويه وجه أهل الإسلام عموماً.

ألم يأن لهم أن يتداركوا هذه العلة القاتلة للإسلام بمحوها ويتخذوا بدلها طرق الرشاد وهي الإتحاد والتعاون والتعاضد والتحابب في الله تعالى كما أمر بقوله: ﴿**إنّما المؤمنون إخْوَة فأصلحوا بين أخَوَيْكُمْ**﴾ [(١)]. وآتباعاً لما ورد في صحيح مسلم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَقُولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ القِيَامَةِ: أَيْنَ المُتَحابُّون بِجَلالي. اليَوْمَ أظِلُّهُمْ في ظِلّي. يَوْمَ لا ظِلَّ إلاّ ظِلّي**» [(٢)]. ولا يترتب على ذلك حرمان أحد من حكومته أو مملكته، بل إنما يترتب عليه حفظ البلاد من الإغتيال. ولا يغرنّكم الدسائس المقصود بها دوام التفرق بين المسلمين لسهولة الإغتيال.

ولقد مر علينا من أمثال ذلك ما يكفي لإيقاظنا، ولعل حضرات علماء الإسلام من جميع العناصر في مشارق الأرض ومغاربها، يتوسطون في إحياء الإتحاد العام والتحابب بواسطة تزاورهم وإتحادهم بالإخلاص التام فيما يعظون به الأمم والحكام الإسلامية إذ هم أولى بذلك، فإذا قاموا بهذه المهمة التي هي أكبر خدمة للإسلام حيث ينقذونه من الخطر العظيم المحدق به فقد قاموا بوظائفهم الحقيقية المفروضة عليهم، حيث إنهم ورثة الأنبياء وهم محترمون لدى العالم.

والحمد لله قد صار المسلمون الآن أكثر من كافة الأعصار الماضية، وهم ثلثمائة مليون تقريباً، أكثر من ثلثي النصارى، ويقرب عددهم من نصف سائر الأمم.

وعلى الأغنياء والحكام إعانة هؤلاء الأفاضل بما يمكنهم من قيامهم بهذه المهمة من مال وغيره، حيث قضاء الحاجات لا يكون إلاّ بالدراهم، وإلاّ فلا تعود عادة عظمة الإسلام كما كانت.

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٠.

(٢) معنى لا ظل إلاّ ظلي: أي ظل العرش لنفي التشبيه. والحديث أخرجه مسلم في كتاب البر باب فضل الحب في الله وأحمد عن أبي هريرة.

ثم إن السبب الوحيد لانحطاط قدر المسلمين هو شيء واحد وإن كان له فروع، وذلك هو الإنحراف عن الشرع الشريف الحاصل من الأمم. وقد قال الله: ﴿ما أصابك مِنْ حَسنةٍ فَمِنَ الله وما أصابك من سَيئةٍ فمِنْ نفسِك﴾[1]. وليست نفس الإصابة من الإنسان، وإنما أسبابها أعمال الإنسان، كما قال تعالى: ﴿وما أصابكم من مُصيبةٍ فَبِا كسبَتْ أيديكم انّ الله لا يُغيِّرُ ما بِقومٍ حتى يُغيِّروا ما بأنفسِهم﴾[2]. وقال تعالى: ﴿واتَّقوا فِتْنةً لا تُصِيبنَّ الذين ظَلَموا منكم خاصَّةً واعلموا أن الله شديدُ العقابِ﴾[3].

فلو نظرنا بعين البصيرة لوجدنا الحالة في الشعوب أصعب مما يتصورها الإنسان، وإنما الشعور لاهية إلا القليل. وهكذا إذا فشت في أمة أو بلدة عادة قبيحة، فأهلها لا يشعرون بها مثل الأمة المستقيمة.

فيا أيها العلماء والعظماء، إن اعوجاج الأمم عن الشرع الشريف قد بلغ إلى أسوأ حال، أفلا تسعون في اعتداله، ولو بإزالة جزء منه بقدر ما في الامكان، فكل راع مسئول عن رعيته.

وقد كثر الفساد وزادت البدع، مع ما هو جار من العوائد القبيحة المخالفة للشرع التي كانت في الأمم قبل إسلامهم مثل الندب والوشم وأمثالها. ولكن في الأعصار الماضية كان العلماء والامراء يأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر ويقيمون عليهم الحدود، فكان الله حافظهم في بلادهم من تسلط غيرهم عليهم، لأن الله لا يحب الجهر بالسوء.

وربما يستغرب البعض من ضربنا الأمثال بالندب والوشم وهما من عادات العامة التي يظنون أنها جائزة، مع أنه ورد في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود: «لُعِنَ الواشِماتُ والمُتَوَشِّماتُ»[4] فهو منهي عنه. وقال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الخُدُودَ، وشَقَّ الجُيُوبَ، وَدعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّة»[5]. فلو استقامت الأمم، ما أصابتها هذه المصائب، وما جاءت إلاّ من ارتكاب المحرمات إنتقاماً من الله.

(١) سورة النساء، الآية: ٧٩.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٣٠.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٥.

(٤) الوشم هو الدق المعروف والواشمات فاعلات الوشم والمتوشمات طالبات الوشم لأنفسهن، والحديث رواه البخاري في كتاب اللباس باب الوصل في الشعر وأحمد والبيهقي عن ابن مسعود، وروي بنحو هذا أيضاً عن ابن عمر في مسند أحمد والسنن الكبرى للبيهقي.

(٥) الحديث رواه أحمد والبيهقي في سننه والترمذي والنسائي وابن ماجه جميعهم عن ابن مسعود كما في كنز العمال ١٠/ ٤٢٤٣٧.

ومن البديهي أنه لا يمكن وجود حكومة رؤفة شفوقة لينة العريكة مع شعوب عاصية عاتية، قد كثر فيها الكذب والفسوق والعصيان بالقتل والسرقة وشهادة الزور والغيبة والنميمة وأكل الحرام، منهمكة في ارتكاب المحرمات سراً وجهراً. وكذلك لا توجد حكومة جائرة ظالمة في أمة مستقيمة الأحوال، مطيعة لله ورسوله وأولي الأمر منهم. بل كما يكونون يولي عليهم، فقد قال الله تعالى: ﴿ وكذلك نُوَلّي بعضَ الظالمين بعضاً ﴾ (١).

وبالإختصار إنه إذا آستقامت الأمة فلا تقدر حكومتها على ظلمها، وهذا لا ينافي وجود بعض حكام أو ولاة دأبهم الطمع والظلم، وهم غافلون عن أنهم مسؤولون عما يعملون، فإنهم رعاة وكل راع مسؤول عن رعيته كما جاء في الحديث الشريف. فليعلم هؤلاء الولاة أنهم إن ظلموا أو جاروا، فسؤوليتهم لدى الخالق سبحانه وتعالى لا تشبه مسؤولية الأفراد، لأن الفرد يقدر أن يظلم فرداً مثله فقط، وأما هم فيمكنهم أن يظلموا بكلمة واحدة آلافاً أو ملايين من النفوس، فإذا وضع الله هذه الذنوب في كفة موازينهم، فكيف يكون الحال ﴿ وَمَنْ خفّتْ موازينُه فأُمُّهُ هَاوِيَه وما أدراك ماهِيَهْ نارٌ حاميَة ﴾ (٢).

فليتقوا الله وليتذكروا، فقد ورد في الحديث الشريف عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أحَبُّ الناسِ الى الله يومَ القيامةِ وأدناهم عنده مجلِساً إمامٌ عادلٌ، وأبغضُ الناسِ إلى الله وأبعدُهم منه مجلساً إمامٌ جائرٌ» (٣). (الترمذي). وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ المُقْسِطِينَ عِنْدَ الله يوم القيامة عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحمنِ وَكِلْتا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الذينَ يَعْدِلُونَ في حُكْمِهِمْ وَأَهْليهِمْ وَمَا وُلّوا» (٤). ومن المعلوم ان الله سبحانه وتعالى منزه عن الجوارح والمكان، وأن ما ورد في الحديثين الشريفين وأمثالهما من قرب وبعد ونحو ذلك، فالتأويل راجع إلى تفضل الرب على العبد بما يسره. وأما الوصف كاليد ونحوها فقد ورد على صيغة يفهمها البشر، ولها تأويل يليق بجلال الله سبحانه وتعالى. وإن كان هذا أمر معروف في كتب الإسلام، لكن أوضحناه هنا مختصراً حتى إذا اطلع من لم يعلم ذلك على هذين الحديثين وأمثالهما أراح نفسه من الإعتراض المشين أو الإرتباك.

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٩.

(٢) سورة القارعة، الآية: ٨ - ١١.

(٣) الحديث رواه الترمذي وأحمد في مسنده عن أبي سعيد. ورواه البيهقي بنحوه في شعب الإيمان أيضاً عن أبي سعيد كما في كنز العمال ٦/ ١٤٦٠٤ - ١٤٦٠٧.

(٤) الحديث مسلم في صحيحه كتاب الإمارة باب فضيلة الإمام العادل وأحمد والنسائي عن ابن عمرو. والحديث من المتشابه الذي لا يحمل على ظاهره، ونقول كما قال الشافعي، رحمه الله: نؤمن بما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله.

والحاصل أن مثل عدل الحاكم الكبير كمثل غيث يعجب الزراع، فيحيي به الله قوت آلاف أو ملايين من النفوس. وكذلك ظلم الحاكم الكبير كمثل رجل أشعل فتيلة ألغام هائلة فانفجرت فأهلك بها الألوف من الناس، أو كزلزلة عظيمة هلك بها ألوف أو ملايين. فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً.

ولذا نقول أن الدول والأمم تشبه الأفراد من حيث تعرض لها الأمراض، فالإختلافات الداخلية في الممالك تشبه الأمراض الباطنية. وأسبابها الحكام الجهلاء الظالمون، ودواؤها الحكام العادلون مع الحزم والعلم. والمشاكل الخارجية كالقروح الظاهرة في الأجسام، ودواؤها القوّة واليقظة.

ولقد أصيبت الدولة العلية من هذه الأمراض بما لو كان في غيرها لكانت القاضية. والحمد لله قد تجدّدت لها حياة جديدة قوية فهي في النمو المستمر. نسأل الله تعالى دوام نموّها وتزايد قوّتها إلى ما شاء الله إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير، وأطال الله عمر مولانا السلطان الأعظم عبد الحميد خان الثاني، وأنجاله الكرام، وخديوينا المعظم عباس الثاني وأنجاله الكرام آمين.

* * *

[١] السلطان عثمان الاول

السلطان الأول هو عثمان خان الغازي بن ساوجي بك بن أرطغرل بك بن سليمان شاه بك بن فياألب رئيس قبيلة قابي بآسيا الوسطى، وإلى هذا ينتهي النسب الصحيح وما بعده مختلف فيه. وكانت ألقابهم (قابي خان)، ومعناه خان قابي.

وكان من أمرهم أنه لما ظهر التتر من أقصى آسيا، واستولوا على البلاد الإسلامية، وأفسدوا فيها بالقتل والسلب والنهب، هاجر سليمان شاه من وطنه مدينة ماهان بقبيلته العظيمة البالغ عدد محاربيها ألفا فارس إلى الأناضول، في القرن السابع من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام، فأقام بمدينة اخلاط. فلما انتشر التتر وقربوا من تلك المدينة، هاجر منها إلى أذربيجان.

وبعد مدّة أراد الرجوع إلى وطنه الأصلي، فسار مع قبيلته إلى أمام قلعة جعبر من أعمال ولاية أورفه، وعند عبورهم نهر الفرات وقع فيه سليمان شاه ومات غريقاً، ودفن تحت القلعة المذكورة، وكان له أربعة أولاد، وهم سنقورتكين وكون طوغدي [١]، وهذان عادا إلى وطنهما ولم يعلم لهما أحوال. وأرطغرل بك [٢] ودندان، وهذان سارا بالقبيلة إلى أرضروم بالأناضول، ووضعوا خيامهم بمحل يسمى (صرملوچقور صحراسي) [٣].

وصار أرطغرل بك رئيساً على القبيلة، وأرسل إبنه ساوجي بك إلى السلطان علاء الدين السلجوقي يلتمس منه مسكناً له ولقبيلته ومرعى لمواشيهم، وكان سلطاناً على جزء عظيم بالأناضول، فأجاب له الطلب، وتوفي ساوجي بك وهو عائد إلى أبيه.

ثم تصادف أن فرقة من التتر كانت تحارب عساكر السلطان علاء الدين وإذا بأرطغرل بك مار عليهم، فهجم بقبيلته على التتر فانهزموا شر هزيمة، فكافأه السلطان علاء الدين بطومانيج واسكي شهر [٤] بواديهما. ثم إنه مات في سنة ٦٨٠ هجرية بالغاً من العمر فوق ٩٠ سنة، فصار حفيده

(١) أي ولد النهار أو طلعة الشمس.
(٢) أي رجل عقاب.
(٣) أي صحراء نقرة القصب.
(٤) أي المدينة القديمة، وهي مدينة مشهورة.

عثمان كوندزألب [١] رئيساً على القبيلة، وهو المؤسس للدولة العثمانية خلدها الله إلى يوم الدين.

ولنذكر بعض وقائعه المهمة قبل توليته السلطنة، وذلك أن والي الولايات التابعة لامبراطورية القسطنطينية، أعني دولة بزنتيس التي كان مقرها وقتئذ الأستانة، كان يسمى تكفور. فالتكفوريون المجاورون لعثمان وقبيلته كانوا يعتدون على قبيلته فيضطر للمقاومة. وفي أغلب الوقائع يكون النصر له، حتى استولى على جملة قلاع وجهات كثيرة، وصار يضم ما يكتسبه إلى ممالك السلطنة السلجوقية حتى إنه استولى في سنة ٦٨٥ هجرية على (قره جه حصارى) [٢]، فلقبوه بالغازي، ودعوا له في الخطبة. ولما استشهد أخوه في هذه الواقعة خاف تكفور بله جك من إستفحال العداوة، فأراد الغدر بقتل عثمان.

وتفصيله أن تكفور المذكور تزوّج بإبنة تكفور (يارحصار)، في سنة ٦٨٩. ودعا عثمان للوليمة في صحراء جاقربيكار، وأعدّ رجالاً للفتك به، وكان رسول الدعوة يسمى كوسه ميخال حاكم حَرْمَنْ قبا، وكان وفياً لعثمان وصديقاً له باطناً بسبب محاسن أخلاقه وشجاعته ومروءته، فأخبره سراً بما هو منوي فشكره عثمان على ذلك، وأجاب الدعوة، وقال له: إني سأحضر وبعون الله لا يحصل لي ضرر.

ثم إنه جمع فرقة من شجعان الفرسان وجعل بعضهم كميناً، وأرسل ٤٠ شجاعاً في زي مساكين إلى قلعة بله چك وأمرهم بضبط القلعة حال إشارته إليهم.

أما هو، فإنه ذهب إلى الوليمة وجلس متيقظاً، وإذا برسول أتاه بضبط القلعة بمن أرسلهم فقام وأظهر شبه الفرار، وإذا برجال الغدر ظهروا وراءه. وعند وصولهم الكمين ظهر عليهم واقتتلوا معهم، فانهزم رجال الغدر، فغنم عثمان العروس وما معها. وأرسل في الحال محافظاً للقلعة، وفتح أيضاً قلعة إِنَهْ كُول، وسميت العروس نِيلُوفَرْ، وزوّجها لإبنه أورخان، فولدت منه سليمان باشا والسلطان مراد الأول، وهي التي بنت كوبري نهر بروسة المشهور، ولحد الآن يسمى نهر وادي بروسة نيلوفار على إسمها، وهي مدفونة بمدفن أورخان بعلها ببروسة.

وفي سنة ٦٩٩ هجرية الموافق ١٢٩٩ ميلادية، إنقرضت السلطنة السلجوقية بموت السلطان علاء الدين السلجوقي في قونية بلا ذرية، فاجتمع الوزراء والأعيان وقرروا أنه لا يليق للسلطنة

---

(١) أي قهرمان النهار، وهو ابن ساوجي بك السابق ذكر وفاته.

(٢) محل مشهور بالأناضول.

سوى عثمان الغازي، فعرضوا عليه هذا الأمر، فأجاب طلبهم وصار سلطاناً من هذا التاريخ، وجعل مقر سلطنته يكي شهر[١].

ثم إن التكفوريين الأربع، وهم حكمدار بروسة، وحكمدار اطره نوس، وحكمدار كستل، وحكمدار كتّه، إتفقوا على معاداة السلطان عثمان وهجموا على مدينة يكى شهر محل السلطنة فقابلهم السلطان بجوار قيون حصار. وبعد قتال إنهزم المتفقون، وقتل تكفور كستل وهرب تكفور كتّه إلى ارنوس.

وفي سنة ٧١٧ أنشأ السلطان قلعة على مسافة ربع ساعة من بروسة بالقرب من المياه المعدنية الموجودة الآن، وعيَّن عليها ابن أخيه الأصغر آق تيمور. وأنشأ قلعة أخرى، وعيَّن لها مملوكه بلبان چق سردارا فحاصر بروسة. وقد أسلم كوسه ميخال المعهود فعينه السلطان رئيساً على فرقة من الجيش، فاستولى هو وأورخان بن السلطان على قره حصار ولغكة وجادرلق ويكيجه بغير قتال، وعلى آق حصار[٢] وتكفور بيكار بالحرب، وعلى قلعة قره جيش بعد أسر محافظها. وكذا استولى أورخان على بروسة صلحاً.

وعقب ذلك مرض السلطان عثمان في سنة ٧٢٦ وأوصى ابنه أورخان بما لزم. ثم توفي رحمة الله عليه، وكان مولده في سنة ٦٥٦.

ومن المصادفات الغريبة أن مولد هذا السلطان كان قبل انقراض الخلفاء العباسيين في بغداد بسنة واحدة، ولله في خلقه شؤون.

* * *

(١) أي المدينة الجديدة.
(٢) أي الحصار الأبيض.

(أسماء معاصري السلطان عثمان من الملوك وجهاتهم)

أوروبا

الأستانة : بزنتيس أي امبراطورية الاستانة.
الأستانة : ميخال بالولوغوس.
الأستانة : انديريقو بالولوغوس، ثم إبنه ميخال اندير يقوس الثالث.
الأندلس : عمر المرتضى .... حاكم.
فرنسا : فيليب الرابع، ثم ابنه لؤي العاشر، ثم جان الأول، ثم فيليب الخامس ثم شارلي الرابع .... ملوك.
إنكلترا : إدوارد الثاني، ثم وارغون الثالث .... ملوك.
قاستيل : فردنيند الرابع، ثم إبنه ألفونس الحادي عشر، ثم ملك قنبور إدوار، ثم ولارس الرابع.
بوهميا ولهتسان (بولونية) : وان سلاس الرابع، ثم جان .... ملوك.
المجر : شارلي روبرت .... ملك.
المانيا : فردريك الثاني، ثم قوزاد الرابع، ثم ريشاردوس، ثم رودولف الأول، ثم هنري .... ملوك.
ساردنيا : فيلب الأول .... أمبراطور.
نابولي : شارلي .... أُمبراطور.

آسيا

بغداد : بايروخان، ثم كمن جاتوخان .... حاكم.
الروم : السلطان ركن الدين، ثم إبنه غياث الدين كي خسرو الثالث.
خرسان : أرغون خان .... حاكم.
آسيا : محمود غازان خان، ثم محمد خدا بنده، ثم أبو سعيد بهادرخان.
عراق العجم : الأمير مظفر .... حاكم.

الصين : قابله قانه منقوخان، ثم إبنه وبعد خلعه تايتو.
لاهور : السلطان جلال الدين، ثم إبنه أبو سعيد عثمان.

أفريقيا

تونس : المستقر بالله .... حاكم.
مصر : الحاكم بأمر الله العباسي، ثم المستكفي بالله، ثم السلطان الملك الناصر .... خلفاء.
فاس : يعقوب بن عبد الخالق، ثم إبنه أبو سعيد عثمان .... حكام.

* * *

[٢] السلطان أورخان الأول

السلطان الثاني هو السلطان أورخان. وقد ولد في سنة ٦٨٠. وتولى السلطنة في ١٧ رمضان سنة ٧٢٦، بالغاً من العمر ٤٦ سنة. فمدّة سلطنته ٣٥ سنة. وكانت عاصمته أولايكي شهر، ثم بروسة. واتخذ أخاه علاء الدين وزيراً له، وفوّض له الأمور الإدارية، وهو أول وزير في الدولة العثمانية.

وفي سنة ٧٢٧ أرسل أمبراطور قسطنطينية إمداداً عظيماً إلى تكفور أزميد لمحاربة أورخان، وانبنى على ذلك إستيلاء عبد الرحمن الغازي وقور كورألب على حصار قندرة ومحاصرتها قلعة إيدوس، فأرسلت إبنة محافظها مكتوباً إلى عبد الرحمن الغازي ترشده عن الطرق المسهلة لفتح القلعة، ففتحت بسببها، وأرسل الغازي المشار إليه الغنائم مع البنت المذكورة إلى السلطان، فأكرمها غاية الإكرام، وزوّجها بعبد الرحمن الغازي المذكور.

وفي سنة ٧٢٨ فتح السلطان بنفسه أزميد وقيون حصارى وغيرهما.

وفي سنة ٧٢٩ سنّ الوزير علاء الدين قانوناً للإدارة، وفتح ضرب خانة فضرب نقوداً كثيرة باسم أورخان، وأنشأ جيشاً منتظماً من المسلمين باسم يكي جرى [(١)]، وخيّر غير المسلمين في الدخول في الجيش، فدخل البعض.

وفي سنة ٧٣١ حصلت مناوشات بين الأروام والمسلمين، نتج منها فتح مدينة أزمبيق، وعين فيها سليمان باشا ابن السلطان محافظاً، وقد سلم الأروام الساكنون في ضواحيها أنفسهم للمحافظ المذكور. وفي هذا العام توفي الوزير علاء الدين، وعين بدله سليمان باشا المذكور. وفي أثناء ذلك طلب أمبراطور القسطنطينية الصلح فقبله منه السلطان. ومن سنة ٧٣٢ لغاية سنة ٧٤٥ لم تحصل حروب بل اشتغل السلطان بنظام الداخلية. وفي سنة ٧٤٦ جدّد السلطان الصلح مع الأمبراطور، وذهب بعائلته إلى اسكودار، وهي مدينة بآسيا أمام الأستانة، فاستقبله الأمبراطور، ثم عاد.

---

(١) أي العسكر الجديد.

وبعد ذلك إتفق الأمبراطور مع حكومة الونديك على مضادة السلطان. وهذا أول اتفاق بين ملوك المسيحيين على مضادة العثمانيين. فعين السلطان إبنه سليمان باشا الوزير سردارا في عموم روملي ومعه كوسه ميخال والحاج إيلي وغيرهما من الأمراء.

وفي سنة ٧٥٦ عبروا البحر الأ بيض واستولوا على كليبولي، وفي أثناء ذلك حصلت فتنة في عائلة أمبراطور الأستانة، وطلب من سليمان باشا الإعانة، فأرسل إليه رجالاً. وإذا بالأروام وحكومات المجر والصرب والبلغار والأفلاق اتحدوا على محاربة العثمانيين وطردهم من أوروبا، وهذا الإتفاق الثاني منهم. فاضطر سليمان باشا إلى سرعة مقابلتهم وبعد قتال عنيف إنتصر عليهم. وأعقب ذلك زلزلة عظيمة فهدمت أغلب القلاع والمدن ولم تشغل سليمان باشا عن الحرب بل فتح تكفور طاغي وما حولها. فطلب الأروام إسترداد ذلك بدفع نقود تعويضاً ولمصادفة فتح جهات أخرى بمعرفة الحاج ايلي لم يتم الإسترداد.

وعقب ذلك تصادم فرسه بشجرة عظيمة وهو راكب أثناء صيده فمات بذلك سنة ٧٦١. وبوصول هذا الخبر المحزن لأ بيه السلطان توفي أيضاً بالغاً من العمر ثمانين سنة. وكان أولاده ثلاثاً، مراد وسليمان وقاسم، فالأخير مات صغيراً.

* * *

(أسماء معاصري السلطان أورخان)

أوروبا

قاستل : الفونس الحادي عشر، ثم إبنه بترو .... ملوك.
البرتغال : دانيزي .... ملك.
إنكلترا : أدوارد الثالث، ثم ريشاريد الثاني .... ملوك.
رومة : أدرين السادس .... بابا.
موسقو : ولادمير .... دوق.
بزانتيس : يواني بلالؤغوس .... امبراطور.
فرانسا : فيلب السادس .... ملك.
الدانمرك : اديس الثامن، ثم أخوه قلاسطوف، ثم ألوف.
نروج : ألوف بن قرسطوف ملك الدنمرك .... ملك.
غرناطة : يوسف أبو الحجاج، ثم إبنه محمد الرابع .... حكام.
جبل طارق : عيسى بن محمد .... حاكم.
المجر وبلونية : الوي، ثم شارلي الرابع ابن امبراطور ألمانيا، ثم ابنه ناسلاني ...... ملوك.

آسيا

صادوخان : السلطان ارتياه.
درابزون : مانوأل، ثم بازيل، ثم ميخال .... ملوك.
قبرص : أوكست الرابع .... ملك.
بغداد : مرزا يلخاني، ثم إبنه أويس .... أمراء.
شمال الهند : السلطان علاء الدين، ثم صفرخان.
مصر : الملك الناصر، ثم إبنه الملك المنصور بعد خلعه الملك الأشرف علاء الدين، ثم بعد نزعه الملك ناصر شهاب الدين، ثم بعد خلعه وقتله الملك صالح عماد الدين، ثم الملك الكامل شعبان، ثم الملك المظفر، ثم السلطان حسن.
فاس ومراكش : أبو سعيد بن عثمان، ثم إبنه أبو الحسن، ثم بعد خلعه عمه يوسف، ثم أبو سالم، ثم أبو ثابت سليمان ملك بالإستقلال من بني مرسين ...... ملوك.

* * *

[٣] السلطان مراد الأول

السلطان الثالث هو السلطان مراد الاول. وقد ولد في سنة ٧٢٦، وجلس سنة ٧٦١ بالغاً من العمر ٣٥ سنة، فمدّة سلطنته ٣١ سنة.

وبينما هو مجتهد في نظام الداخلية، وإذا بأولاد قرمان [١] قد اتحدوا مع بقية حكام المسيحيين المجاورين، وهجموا على بروسة وازنبيق. فقاتلهم السلطان وهزمهم واستولى على قلعة أنقرة في سنة ٧٦٢.

وفي سنة ٧٦٣ عين شاهين بك لاله [٢] سر عسكر، وعين خليل جاندرلو قاضي بروسة بوظيفة (قاضي عسكر)، لينظر في قضايا عساكر الجيش، وهو أول من تقلد بهذه الوظيفة المحدثة، وبعدها تولى الصدارة العظمى، ودُعِيَ بخير الدين باشا، وهذه الوظيفة في عصرنا هذا من الرتب العلمية.

ثم حصلت مناوشات حدودية فأرسل الحاج أيلي واورنوس بك، ففتح قلاع بيطور وجورلي ومسللي وبرغوس وبرغاز وديمتوقة وكشان. ثم في شهر القعدة من سنة ٧٦٣ فتحت مدينة أدرنة العظيمة الشهيرة إلى الآن، وعين لها شاهين باشا محافظاً.

وفي سنة ٧٦٤ عين أورنوس بك على سواحل روملي الجنوبية لفتح كوملجنة وتوابعها ففتحها، وعاد السلطان إلى بروسة.

وفي سنة ٧٦٥ فتح شاهين باشا مدينة فيلبة في شمال روملي إذ ذاك وما حولها. وفتح أورنوس بك جهات سيروز ومناستر وبهشتنة وموشنة وما حولهنّ، وصارت أعمال هذه الجهات الأربع وتوابعها ولاية واحدة، وعين فيها أورنوس بك والياً عليها بعد أن أنعم عليه برتبة أمير الأمراء.

وفي سنة ٧٦٦ إتفقت الدول المسيحية لإخراج العثمانيين من قطعة أرض أوربا بإلتماس البابا، فأجاب كل من ملك المجر وملك بوسنة وملك الصرب وحكام افلاق. وبعد أن جمعوا عساكرهم

(١) هم أمراء شبه ملوك الطوائف بالأناضول.

(٢) أي مربي، وهو مربي السلطان في صغره.

وهجموا على البلاد على حين غفلة، قابلهم شاهين باشا والحاج أيلي بك ليلاً فاندهشوا وتشتتوا بعد قتال شديد. وكان عساكر الأعداد المتفقين ٦٠ ألفاً، وفي رواية ٣٠ ألفاً. وعساكر العثمانيين ١٠ آلاف. ولولا اختلال نظام الأعداء وحسن نظام العساكر العثمانيين وشجاعتهم وتدبيرات ضباطهم وعناية الله بهم، لما انتصروا عليهم وخذلوهم.

وفي سنة ٧٦٧ فتح السلطان بنفسه قلعة بيغا، ثم عاد إلى بروسة واشتغل ببناء جوامع ومدارس وأبنية خيرية، وختن أولاده بايزيد ويعقوب جلبي وساوجي بك.

ولما بلغه أن الأروام ينوون له السوء ذهب إلى أدرنة منتظراً ما يكون، وأنشأ فيها السراية الشهيرة وجعلها مقراً للسلطنة.

ثم حصل بعد ذلك مناوشات في الحدود، وتبين أن الأعداء طلبوا الإعانة من دولة أسبانيا ووعدتهم بها فغضب السلطان وشمر عن ساعد الجد، حتى استولى في سنة ٧٦٨ على جهات يكيجه ويانبولي وأيدوس وقرق كليسا وبيكار حصارى وويزا وما حولهن، ثم عزم على الإنتقام من أسبانيا. واجتهد في إيجاد القوة البرية والبحرية وإصلاح الداخلية لغاية سنة ٧٧١.

وفي سنة ٧٧٢ حصلت مناوشات في حدود الصرب فقابلهم شاهين باشا وانتصر عليهم، واستولى على جهات سماقو واهتمان وما حولها.

وفي سنة ٧٧٣ ذهب السلطان إلى سماقو لترتيب وتنظيم أحوالها، وفي أثناء ذهابه سلم له قسطنطين حاكم كوسنديل مملكته بغير حرب ولا نزاع، فكافأه السلطان بتعيينه حاكماً عليها. ثم عاد إلى بروسة.

وفي سنة ٧٧٤ نهب رجال أمبراطور القسطنطينية جهات ويزة فذهب السلطان في الحال ومعه شاهين باشا ففتح بلونية بعد محاصرتها خمسة عشر يوماً. ثم فتح مدينة قره جق وقلعة التنجه كزفي نظير اعتداء الأمبراطور. ثم عاد إلى أدرنة.

وفي سنة ٧٧٥ لقب أورنوس بك بالغازي، وعين خير الدين باشا الصدر الأعظم لحفظ جهات غربي روملي وأخذ بلاد من يتعدّى على الحدود وبمعيته الغازي المذكور، ففتح قوالة وما حولها ولم يتعرض للمجاورين لها. ثم عاد بجيشه.

وفي سنة ٧٧٦ ذهب السلطان والصدر الأعظم إلى بروسة لاشتغالها بنظام الداخلية وإصلاحها، وإذا بملك الصرب لازاري تسلط على بلاد الدولة في سنة ٧٧٧. فغضب السلطان

وذهب بنفسه إلى حدود الصرب فهرب لازاري إلى الجبال فدعاه إلى الحرب وإلا يستولي على بلاده تأديباً له، فلم يقابله، فاستولى على قلعة نيش، فطلب منه لازاري الأمان، وقبل أن يدفع ويركو ولا يتعرض لبلاد الدولة مرة أخرى، فقبل منه ذلك، وسحب جيشه عائداً إلى بروسة على غير رغبة الجيش، حيث كان قادراً على الإستيلاء على جميع بلاد الصرب بالسهولة. وقال للجيش: إننا لسنا بمعتدين.

وفي سنة ٧٧٨ سلم حاكم سلسترة بلدته المذكورة إلى السلطان، فكافأه بتعيينه حاكماً عليها. وعاد إلى أدرنة.

ومن هذه السنة لغاية سنة ٧٨٣ لم يحصل إعتداء من أحد على بلاد الدولة بل إشتغل السلطان في هذه المدّة بتنظيم وإصلاحات الداخلية وصار ينتقل من أدرنة إلى بورسة ومنها إليها.

وفي سنة ٧٨٤ طلب إبن كرميان أحد ملوك الطوائف بالأناضول تزويج ابنته لبايزيد بن السلطان وجهزها من بلاده بمدينتي كوتاهية وسما وبقلعتي اكرى كوز وطوشانلي، والحاقهن بالممالك العثمانية فقبل منه السلطان ذلك.

أما أولاد قرمان الذين هم من ملوك الطوائف أيضاً فصاروا يعتدون على ممالك الدولة في جهات قونية، فأرسل السلطان سفيراً مخصوصاً إلى من يسمى حسين بن حميد منهم لمشترى حقوقه من البلاد وهي إسبارته وما حولها، فقبل وألحقت بممالك الدولة. وفي أثناء ذلك فتح قلعتا برلبه ومانستر بهمة تيمور طاش باشا، ولغاية سنة ٧٨٦ لم تحصل حروب.

وفي سنة ٧٨٧ مات خير الدين باشا الصدر الأعظم في يكيجة، وعين بدله إبنه علي باشا قاضي عسكر.

* * *

(واقعة غريبة)

ذهب السلطان إلى أدرنة بعد أن نصب إبنه ساوجي بك محافظاً على بروسة وهو يومئذ شاب، فاستولت على عقله لذة السلطنة، فأمر الخطيب أن يخطب باسمه ففعل طاعة للأمر.

ولما بلغ السلطان الخبر عاد مسرعاً إلى بروسة، فجهز الولد جيشاً ممن أطاعه لمحاربة أبيه، فأرسل السلطان إليه من ينصحه فلم يقبل. فوقع الحرب في وادي كتة، وانهزم عسكر الولد بعد أن أسر. ولما أحضر أمام أبيه عاتبه على هذا الفعل الشنيع، فرد عليه بما يغاير الأدب. فجال في فكر السلطان أن إبقاءه يكون سبباً لسفك دماء المسلمين فأمر بفقوء عينيه.

وقد اتضح أنه كان متفقاً مع ابن أمبراطور القسطنطينية أن كلاً منهما يعصي أباه، ويأخذ منه المملكة. أما الأمبراطور فإنه لم ينتصر على إبنه حتى استعان بالسلطان، فأعانه وغلبه وفعل بابنه ما فعل السلطان بولده.

* * *

وفي سنة ٧٨٨ ذهب إلى أدرنة وجاءه الخبر بفتح صوفية بمعرفة أينجة بلبانجق أحد قواد الشجعان في الحدود، ثم جاءه الخبر بأن علي بك بن قرمان مدّ يده على أخذ ما سبق مشتراه من حسين بك بن حميد المتقدّم ذكره، فأسرع السلطان بالذهاب إليه بعساكر روملي، وبوصوله إلى قونية أسر علي بك المذكور، وشتت شمل أعوانه، فطلب العفو فعفا عنه وعاد.

وفي سنة ٧٨٩ اتخذ ملك الصرب لازاري مشغولية السلطان بحرب علي بك فرصة لنقض العهد، واتفق مع حكام المسيحيين بعد أن أغراهم بأن السلطان لا يستطيع المقاومة مع اشتغاله بابن قرمان، فاستولوا على بعض بلاد. فأرسل إليهم السلطان شاهين باشا بعشرين ألفاً.

وكان والياً سلسترة واشقودرة اللذان سبق تسليمهما بلادهما برضاهما للسلطان وكافأهما بتعيينهما واليين على بلادهما متفقين سراً مع لازاري، فبوصول شاهين باشا إلى بوسنة أسرعا بمقابلته تملقاً ورجع لازاري بعسكره إلى بلاده، فأمر شاهين باشا عسكره بالنهب من بلاده كما تعدى بنهب بلاد الدولة فتفرقوا عنه. وإذا بحاكم اشقودرة أرسل من يخبر لازاري ملك الصرب سراً بأن شاهينا باشا لم يكن معه من العساكر إلا نحو ألف. فاتحد لازاري مع ملك بوسنة وهجما على شاهين باشا فقتلوا أكثر من معه وخمسة عشر ألفاً من العساكر المتفرقة، ونجا شاهين باشا بكل صعوبة. وهذا الاتفاق الخامس ضد العثمانيين.

وفي الأثناء التمس أمبراطور القسطنطينية من السلطان قبول زواج بناته الثلاث، إحداهن له،

والإثنتان لولديه بايزيد ويعقوب لربط القرابة بينهما، فقبل منه ذلك. وأجرى رسوم الأفراح في صحرايكي شهر. وإذا بخبر شاهين باشا الآنف ذكره أتاه. ففي الحال أرسل علي باشا الصدر الأعظم بثلاثين ألفاً، وذهب هو أيضاً على أثره بفرقة عظيمة من العساكر ففتح الصدر الأعظم قلاع براوادي وترنوى وشمنى. ثم استقبل السلطان.

وفي سنة ٧٩٠ طلب السلطان صوحماتو حاكم ينكى بولى وسلسترة المسيحي إلى الجيش السلطاني كالعادة، فتوهم أن هزيمة شاهين باشا ما هي إلا من ضعف الدولة، فأظهر ما في ضميره من العصيان وأبى عن الحضور. فذهب إليه علي باشا الصدر الأعظم، وحاصر ينكى بولى، فطلب الأمان، ووسطه لدى السلطان في العفو عنه على شرط تسليم قلعة سلسترة، فقبل بشرط أن لا يعصي مرة أخرى. وبعد ذلك غدر فلم يسلم القلعة وعصى، فأرسل إليه الصدر الأعظم ثانياً بقوّة عظيمة، فاستولى على قلاع درنجيّة وخيرهرار وخروات من ولايته. ثم ذهب إلى سواحل نهر الطونة.

وأما صوحماتو فإنه تحصن في قلعة ينكى بولى قليلاً ثم طلب الأمان، ووسط الصدر الأعظم فقبل وعرض الأمر على السلطان فعفى عنه وردّ له كافة أمواله، وفقط عزله عن وظيفته حتى لا يعصي مرة أخرى.

وفي حرب قوصوة الشهيرة في سنة ٧٩١ سعى لازاري ملك الصرب لدى حكام وملوك المجر وجهتان وبولونية وبوسنة وألبانيا وخروات وغيرها من سائر الحكومات المسيحية المجاورة، للإتفاق ضدّ العثمانيين. فجمعوا جيشاً نحو المائتي ألف لإخراجهم وطردهم من أقاليم أوروبا. فأسرع السلطان بجلب عساكر الأناضول إليه بقيادة أولاده وباقي عظماء الحكام والضباط.

وفي يوم الثلاثاء ١٥ شعبان من هذه السنة إشتبكت الحرب في صحراء قوصوة وكانت هائلة، فحصل كرب عظيم للمسلمين من كثرة عساكر المتحدين في أول الأمر. وبعد الصبر والإقدام حمل بايزيد ابن السلطان بفرقته على الأعداء حملة منكرة، فأدهشهم وانهزموا شر هزيمة، وأسِرَ منهم كثيرون، وقتل ملك الصرب (مؤسس العصابة) وبعض من البرنسات. لكن أعقب ذلك أسف شديد، إذ بينما السلطان يمر بين القتلى والجرحى لرؤية رجاله، إذْ قام صربي جريح من بين القتلى وأظهر حركة يرى منها أن مراده تقبيل قدمي السلطان بعد أن أظهر إسلامه، وإذا به قد أخرج خنجراً من ملابسه وطعن به السلطان في بطنه، فمات هو والقاتل في الحال رحمة الله عليه رحمة واسعة. وهو الذي أحدث الراية العثمانية على هيئتها الحالية، وكان أولاده ثلاثاً: بايزيد، وساوجي بك، ويعقوب شلبي.

* * *

(أسماء معاصري السلطان مراد الاول من الملوك وجهاتهم)

أوروبا

قريم : أوزبك من فاميله جانكيزخان التتري، ثم جان بك، ثم روس بك، ثم سيد مراد خان .... أمراء.

روسية : ألكسندر الثاني، ثم برنس الوان الأول بعد إنضمام دوقة موسقو .... ملوك.

فرنسا : شارلي. ثم انقسمت قسمين: ارمنتاس من درليان وبرغون .... دوقان.

قاستيل : ترستامار الثاني دوق، ثم هنري، ثم جان الأول.

إنكلترا : برنس نوار، ثم إبنه رشياد الثاني، وبعد خلعه هنري الرابع.

بوهميا : ألفونس الرابع.

ألمانيا : شارلي من فاميلية لوق سمبروغ، ثم ملك بوهميا، ثم إبنه وان سلاس الخامس.

اسقوجيا : روبرق الثاني، ثم استوار روبرق الثالث، ثم البرنسيس جاقه، ثم ألحقت إلى دوقية الباني.

دانمرك : الملكة مرغاريت.

نروجيا : الملكة مرغاريت.

أسوجيا : الملكة مرغاريت.

إيطاليا : كانت منقسمة جملة أقسام، ثم آلت إلى البابا بتوا.

نابولي : شارلي دوراي، ثم إبنه لادسلاس بوسائط والدته سيلا، ثم أخته جان.

آسيا

بغداد : الشيخ حسن ابن الأمير حسين، ثم أويس بن ايلخان، ثم حسين، ثم الشيخ علي حفيد أويس، ثم السلطان حسين، ثم السلطان أحمد.

أفريقيا

مصر : الملك سفر، بعده سيف الدين سالار، ثم المنصور أبوبكر، ثم محمد بن قلاوون، ثم السلطان حسن من الأيوبيين.

* * *

[٤] السلطان بايزيد

السلطان بايزيد هو الملقب بيلدرم، وسبب تلقيبه بذلك سرعة حركاته الحربية وشدته على الأعداء، وقد ولد في سنة ٧٦١. وجلس عقب وفاة أبيه في سنة ٧٩١، وعمره ثلاثون سنة.

وبويع له بميدان الحرب في قوصوة. ثم قام بالجيش وعاد إلى العاصمة، وبنى المسجد المشهور باسمه في بروسة. ثم أرسل تيمور طاش باشا الملقب بروملي بيكلربكى إلى حدود الصرب، وباشا بك إلى أسكوب، وفيروز بك إلى ودين.

أما تيمور طاش فإنه استولى على بعض من بلاد الصرب، فطلب ملكه الجديد أن يكون تابعاً للدولة العثمانية، وتزويج أخته المشهورة بالجمال المسماة مليحة للسلطان بايزيد فقبل منه. وبعدها ذهب الباشا المذكور إلى بوسنة وفيروز بك إلى أفلاق ثم عاد بالغنائم إلى بروسة.

وفي سنة ٧٩٢ هاجم علي بك بن قرمان البلاد العثمانية، ثم خاف وهرب. فذهب السلطان إلى قونية فحاصرها، فطلب أهلها أن يكونوا تبعاً للسلطان بايزيد وسلموها له فعلاً. وأحيلت إدارة هذه الجهات إلى تيمور طاش باشا. وكذا البلاد المجاورة مثل أقشهر وغيرها، وألحقت بالممالك العثمانية.

ثم إن علي بك طلب الأمان فقبل منه السلطان، وأعطى له جهات لارندة وايج ايل وتوابعهما وعاد السلطان إلى بروسة.

وفي سنة ٧٩٣ اعتدى كوتورم (من ملوك الطوائف) حاكم قسطموني على البلاد العثمانية المجاورة له بالأناضول. واعتدى حاكم الأفلاق على بلاد الدولة بروملي في آن واحد. فأسرع السلطان بالذهاب إلى أفلاق. وبوصوله طلب الحاكم المذكور العفو والأمان، فعفا عنه.

وفي أثناء ذلك هجم علي بك بن قرمان على تيمور طاش باشا على حين غفلة فأخذه أسيراً ومعه كثيرين أيضاً. فلما بلغ الخبر السلطان أسرع بالذهاب إليه، فتعجب الناس من سرعة وصوله مع بعد

المسافة، فلقبوه بيلدرم أي الصاعقة. وأما علي بك فإنه أسرع بالهروب من شدّة الخوف، فانكبَ به فرسه وأخذ أسيراً وأعدم، وسجن ابنه محمد بك في بروسة.

وفي سنة ٧٩٤ تعدى برهان الدين رئيس قبائل جانكيزخان الباقين في جهات قيصرية وسوَاسْ سكان الخيام النقالة على الحدود، فذهب إليه السلطان بجيشه فهرب إلى جهة خربوت. فقابله قره عثمان بك حاكم ديار بكر بعسكره، واقتتلا، فقتل برهان الدين وهرب أعوانه. فضم السلطان قيصرية وسوَاسْ وتوقاد وملحقاتهن إلى الممالك العثمانية وعاد إلى بروسة.

وفي سنة ٧٩٥ ذهب الأوردي الهمايوني إلى قسطموني لتأديب كتودم السابق ذكره الذي مات قبل وصول الجيش إليه، وهرب إبنه إسفنديار إلى قلعة سينوب. وضمت قسطموني وصامسون وما حولها إلى الممالك العثمانية. ثم هرب إسفنديار المذكور. والتجأ إلى تيمورلنك المشهور حاكم عموم فارس وخراسان وأفغان وسمرقند وغيرها.

وفي سنة ٧٩٦ إتفق حكام الونديك والإفرنج والجنويز براً وبحراً على محاربة العثمانيين (وهو الإتفاق السابع) فأرسلوا سفنهم إلى سلانيك، ومنها تجاوزوا الحدود العثمانية. فذهب السلطان إليهم وانتصر عليهم براً وبحراً، واستولى على قلعة سلانيك ويكى شهر وتوابعهما، ثم عاد إلى بروسة.

وفي سنة ٧٩٧ إتفق بالولوغوس أمبراطور القسطنطينية مع المجر والصرب وفرنسا على العثمانيين، فغضب السلطان وأخذ الأوردي الهمايوني، وحاصر القسطنطينية، وضرب الإستحكامات بالمنجنيقات. لكن عبر ملك المجر ومن معه نهر الطونة، وهجم على صوفية وورين وينكى بولى. فاضطر السلطان لترك محاصرة القسطنطينية وذهب بجيشه لمحاربة المتفقين وتقابل الجيشان بجوار الاجه حصار، واقتتلا قتالاً شديداً. وأخيراً انتصر السلطان، وانهزم عساكر المجر وفرنسا وباقي المتفقين. وهرب ملك المجر بحالة صعبة. وقتل من الطرفين ثمانون ألفاً. وعاد السلطان في أواخر سنة ٧٩٨.

وفي سنة ٨٩٩ أرسل السلطان تحسين بك بن تيمور طاش باشا طليعة إلى الأستانة، فبوصوله إلى سواحل البحر الأسود استولى على حصار شيلة. ثم وصل الأوردي إلى بوغاز البسفور، فأنشأ هناك حصار الأناضول. فخاف الأمبراطور وأرسل للسلطان هدايا ونقوداً، وعرض عليه دفع الجزية سنوياً، وعجل بدفع جزية السنة، وتعهد بعدم الغدر وعدم الإتفاق مع أحد على الدولة. ثم اقترح الصدر الأعظم إضافة الشروط الآتية على تلك المعاهدة. وهي: إسكان المسلمين بالأستانة ببعض

محلات معينة، وبناء مساجد لهم، وضرب نقود باسم السلطان. فقبل الأمبراطور ذلك، ونفذه فعلاً.

وفي سنة ٨٠٠ أرسل أمير بخارى للسلطان بايزيد سيفاً على سبيل الهدية والتعظيم. وكذلك أعطى الخليفة العباسي الموجود بمصر للسلطان لقب وعنوان (سلطان أقاليم الروم). ثم استولى على مقدونية وموراً وأتينة وقلعة طرحان وهدّد فرنسا والمجر.

وأما الأناضول فإن تيمور طاش باشا ألحق ملاطية وكردستان وسيودك وكماح وغيرها بالممالك العثمانية في سنة ٨٠١.

وفي سنة ٨٠٢ إستفحل أمر تيمورلنك الأعرج الآنف الذكر المشهور، الذي هو من أولاد الأمير جوبان ومعناه الغنام. وصار يسلب بلاد الإسلام بآسيا الوسطى من أيدي ملوكهم، حتى وصل إلى بغداد وعراق العرب. فهرب حاكمهم السلطان أحمد جلاير من شره. وكذلك هرب حاكم أذربيجان قره يوسف، والتجآ بعائلتيهما إلى السلطان بايزيد. فأرسل تيمورلنك إلى السلطان بايزيد سفيراً بتسليمهما إليه فأبى، ورجع السفير خائباً فغضب تيمورلنك.

وفي سنة ٨٠٣ هدم قلعة سواس وقتل أرطغرل بك بن السلطان بايزيد محافظها واستولى على ملاطيه وأعطاها إلى قره عثمان. ثم ذهب إلى الشام ضد السلطان برقوق سلطان مصر، واستولى على قلعة حلب ومدينتي حماه وحمص وقلعة بعلبك. ثم وصل إلى دمشق فقابله وكيل سلطان مصر بجيشه واقتتلا قتالاً شديداً، فانتصر تيمورلنك أخيراً. ثم خرب قلعة النجق وما حول ماردين وبغداد. ثم ذهب إلى تبريز.

وفي أثناء ذلك ضبط السلطان أذربيجان التي كانت من أملاك طاهر الدين الكردي تحت حماية تيمورلنك وسلمها لقرة يوسف.

وفي سنة ٨٠٤ زاد تيمورلنك في التسلط على الأملاك العثمانية يوماً فوق يوم، فدعاه السلطان بايزيد للحرب فحضر ومعه عشرين أميراً مستقلين تحت حمايته، بينهم أمراء شروان وأمير كيلان وديار بكر وكردستان وبدخشان وخان تركستان إلى أنقرة، وأراد أخذ قلعتها من يد يعقوب بك محافظها، وإذا بالسلطان بايزيد وصل بجيشه إلى (توقاد) أمام جيش تيمورلنك. في يوم الجمعة ١٩ ذي الحجة من العام المذكور ابتدأ بالقتال وكان جيش تيمورلنك سبعمائة ألف[1]، وجيش

(١) هكذا الأصل، وربما لا يبلغ هذا القدر.

السلطان بايزيد مائة وعشرين ألفاً. فلما رأى العساكر التتر الموجودون ضمن جيش بايزيد أن جيش تيمورلنك تتراً مثلهم، تركوا بايزيد وانضموا إلى جيش تيمورلنك وكانوا خمسين ألفاً، فانهزم جيش بايزيد، واشتغل الأمراء بتخليص أولاده. وأما هو فلم ينهزم ولم ييأس من النصرة بل صعد مع خواص رجاله على ربوة. أما تيمولنك فإنه أرسل محمود خان من نسل جنكيزخان بفرقة للقبض على بايزيد، فلما وصل إليه إنكب فرس بايزيد به فأخذ إلى تيمورلنك أسيراً فاهتم بالسؤال عن أولاده. فأرسل تيمورلنك رسلاً للبحث عنهم وإحضارهم، فلم يجدوا سوى موسى شلبي فابتلي بايزيد بمرض الصدر والخفقان. وبعد أربعة أشهر من أسره مات في يوم الخميس رابع شعبان تلك السنة بالغاً من العمر أربعة وأربعين سنة. فأرسل تيمورلنك جنازته مع إبنه موسى شلبي المذكور إلى بروسة ودفن بجوار مسجده المعلوم بها، رحمه الله رحمة واسعة.

وكان أولاده سليمان شاه وموسى جلبي وعيسى جلبي ومحمد جلبي وقاسم جلبي ومصطفى جلبي وأرطغرل بك الذي قتله تيمورلنك كما مر.

* * *

وقائع الاثني عشر سنة الفاصلة بغير سلطان

لما حصل أسر وموت السلطان بايزيد كما مر، حصل اختلال كلي في الممالك العثمانية، وتزاحم أولاده على السلطنة.

فمنهم سليمان شاه ذهب في سنة ٨٠٥ إلى بروسة واستولى على الخزينة. ثم ذهب إلى أدرنة، وجلس على كرسي السلطنة بغير مبايعة خلافاً للمعتاد. لكن ظهر بالأناضول كثيرون يريدون الإشتراك في السلطنة، حتى من لم يكن من العائلة السلطانية، خصوصاً أولاد قرمان، فإنهم اغتصبوا جهة قونية.

وأما عيسى جلبي فإنه اختبأ في جهة بروسة.

وأما محمد جلبي فإنه ذهب إلى أماسيه وصار يدافع عن البلاد من الأعداء الخارجية.

وفي سنة ٨٠٦ ذهب سليمان شاه خوفاً من تيمورلنك إلى الأستانة، وقابل الأمبراطور، واتفق وتحالف معه على الدفاع. وفي نظير ذلك ترك له بعض مدائن بملحقاتها، ورهن ابنه قاسماً عند الأمبراطور.

وفي أثناء ذلك ذهب موسى جلبي إلى روملي من قبل محمد أخيه، فعاد سليمان شاه إلى أدرنة مسرعاً وطرد أخاه موسى المذكور إلى أفلاق. ثم عاهد جمهورية الونديك، وأراد العودة إلى الأستانة في سنة ٨٠٩، فقتل من يد بعض العساكر، ولم أقف على الكيفية تماماً.

وفي سنة ٨١٠ حضر موسى جلبي بمساعدة أخيه محمد وحاكم أفلاق إلى روملي ثانياً.

وفي سنة ٨١٣ ضبط أدرنة ولم يعارضه علي باشا الذي كان وزيراً لأبيه، ثم لأخيه سليمان شاه.

وفي سنة ٨١٤ مات الوزير علي باشا المذكور وتولى الوزارة إبنه ابراهيم باشا.

وفي سنة ٨١٥ رأى موسى جلبي أن أكثر أمراء وأعيان العثمانيين ميالون لأخيه محمد. وقام بظنه أن نتيجة ذلك مهاجمة الأعداء، فأخذ جيشه وضايق الأستانة، فطلب الأمبراطور من محمد جلبي مدداً له مع اشتداد الإختلال بالأناضول، فترك موسى مضايقة الأستانة، ووضع جيشه في ويزة، وعزم على الإستقلال والجلوس على كرسي السلطنة.

أما محمد أخوه، فإن أعيان وأمراء العثمانيين مثل أولاد أورنوس بك وميخال بك بايعوه وقابلوا بجيوشهم موسى، وطلبوا منه أن يسلم لأخيه محمد السلطنة، فأبى فاقتتلوا فقتل هو وانهزم جيشه.

وأما عيسى فإنه لما خلا له الجوّ لمشغولية أخيه محمد في حروب روملي ضبط بروسة بمعاونة تيمور طاش باشا، وأقام بها حاكماً مدة.

ثم إن أخاه محمد ذهب إليه في سنة ٨١٦، وشتت شمل عساكره، وقتل هو أيضاً. وفي هذا العام دعا تيمورلنك محمد جلبي فأرسل إليه الخوجه بايزيد صوفي بالنيابة عنه.

وفي سنة ٨١٧ عاد إلى روملي وأعلن الجهات بجلوسه على عرش السلطنة.

* * *

[٥] السلطان محمد جلبي الأول

ولد هذا السلطان في سنة ٧٨١ وتوفي في سنة ٨١٧ بالغاً من العمر خمسة وثلاثين سنة .

وفي هذه السنة ذهب قاسم بن سليمان شاه الذي كان مرهوناً عند أمبراطور الأستانة إلى جهة أفلاق للإستيلاء عليها بمن معه من أخلاط الناس . فأرسل إليه السلطان عسكراً شتتوا شمل أعوانه وأسروه. ولعدم ميله للسلطان بالنسبة لما حصل أتلف عينه وأعطى له ولأخته ما يقوم بكفايتها من الجفالك في جهة بروسة ، وأمر بإقامتها فيها .

وفي هذه السنة هجم أولاد قرمان على بروسة ، فسار إليهم السلطان. فأوقدوا فيها ناراً ، وهربوا إلى بلدهم. فذهب إليهم السلطان وأخذ من بلادهم مدائن إقشهر ويكي شهر وسيدي شهر ومراكز سعيد ايلي ، فقابلوه بقتال فلم يثبتوا ، وهرب كبيرهم وأبقى إبنه مصطفى بك في القلعة ، فحاصرها السلطان. ثم مرض هناك بعلة القلب والخفقان. ولما طال الحصار كاتب بايزيد باشا الوزير بن قرمان بالحضور والصلح ، ووعده بما يسره. فحضر ابن قرمان والد مصطفى بك المحصور بالقلعة ، فلما قرب من الجيشين فما كان من بايزيد باشا الوزير المذكور إلا أنه هجم عليه ليلاً وقبض عليه ، وأحضره إلى السلطان ، فقبّل أقدامه ، وحلف له يميناً على أنْ لا يعود فعفا عنه . وأعيد إلى حكومته . ورد له بلاده سنة ٨١٨ .

* * *

محاربة مجر وأفلاق

في سنة ٨١٩ غدر حاكم الأفلاق المسيحي ، وعصى السلطان بدسائس وإتفاق من ملك المجر ، فاضطر السلطان إلى الذهاب إليه . ولما رأى الحاكم كثرة جيش السلطان خاف وطلب العفو على أن يدفع ذخيرة ثلاث سنوات ، فقبل منه ، وسحب جيشه ، وذهب به إلى بلاد المجر. فلما وصل ونظر الملك كثرة الجيش أرسل إلى السلطان ثلاثة أمراء من عائلته بهدية عظيمة طلباً للصلح ، متعهداً بعدم غدره مرة أخرى ، فقبل ورجع. وفي سنة ٨٢٠ أظهر قاسم بك بن إسفنديار مودته

للسلطان، فأنعم عليه بإيرادات (طوسية) وكنغري وباقر كوره سي وقسطموني من ملحقات ولاية قسطموني، وأشعر أباه إسفنديار بذلك. ثم إن إسفنديار أرسل وزيره محمد الواعظ بهدايا إلى السلطان واستعطفه بعدم تنفيذ هذا الأمر، حيث أن مدار معايشه على قسطموني وباقر كورة، وأنه غير راض عن إبنه قاسم المذكور. فبناء عليه إكتفى السلطان بكنغري لقاسم بك وقبل طلبات أبيه.

وفي سنة ٨٢١ حصلت زلازل هائلة في جهات قسطموني وبروسة وامتدت إلى حدود أماسيه وتوقاد، واستمرت ثلاثة أشهر، واضطر الأهالي إلى الإقامة بالأودية. وأعقب ذلك حصول محاربات ومنازعات وفتن بين ملوك الطوائف المجاورين لبلاد الدولة.

وفي سنة ٨٢٢ ذَهَبَ السُلطان بجيشهِ الجرار إلى أماسيه التي هي مستقر ولاية ولي عهده مراد. فخاف رؤساء الفتن وانكمش كل منهم ولزموا الحياد. وضبط بلاد صامسون وألحقها بالبلاد العثمانية.

وتصادف حصول فساد من قبيلة منت بك من طوائف التتر في صحراء أسكليب فلقطع الفساد صار نقلهم إلى روملي، وإسكانهم في تتار بازاري من ملحقات فلبة. وعاد السلطان من أدرنة إلى بروسة وبنى بها مسجداً ومدارس وأبنية خيرية كثيرة. ثم أرسل السلطان أمور بك بن تيمور طاش باشا بعساكر كافية لاسترداد هركة وككبوزة وداريجة وقارتال وبنديك وسائر الجهات من يد أمبراطور الأستانة.

وفي سنة ٨٢٣ ظهر رجل يسمى مصطفى يورك ليجه، وهو الذي كان كتخدي للشيخ بدر الدين قاضي عسكر في مدّة موسى جلبي وقت الفتنة الماضية، وادّعى أنه خليفة الشيخ بدر الدين، وجمع من الأهالي البسطاء نحو عشرة آلاف نفس، ورغب إستقلاله في جهة إيدن. وكان الشيخ بدر الدين مقيماً في أزنبيق وله ألف أقجة [١] شهرياً، فقام من هناك خوفاً من التهمة في إشتراكه مع مصطفى المذكور، وذهب إلى جهة حاكم أفلاق بواسطة إبن إسفنديار. فأمر السلطان ابنه وولي عهده مراد والي أماسيه بضبط مصطفى المذكور ورفيقه (طورلق هود كمال)، والتنكيل بهما. فأرسل ولي العهد بايزيد باشا طليعة له، ومضى هو على أثره فضبط هو مصطفى المذكور في قره

(١) الأقجة عملة تركية في ذاك الوقت.

بيرون، كما ضبط بايزيد باشا (طورلق هود كمال) المذكور، فأعدماهما وشتتا من معهما. وقتل الشيخ بدر الدين بالصلب بناء على فتوى شرعية. وعاد السلطان محمد إلى أدرنة.

وبعد ثلاثة أيام اعتراه داء النقطة وهو على جواده فانكب عن فرسه، ومات في أوائل سنة ٨٢٤، رحمه الله تعالى رحمة واسعة. ومدفنه ببروسة، بقرافة يقال لها: جيلار مزارلقي.

وكان له من الأولاد خمسة: مراد، ومصطفى، وأحمد، ويوسف، ومحمود أما أحمد فمات في حياة أبيه. وأما يوسف ومحمود فإنهما ماتا بالطاعون في بروسة. وأما مصطفى فقتل شهيداً كما يأتي ولم يخلفه في السلطنة إلا السلطان مراد الآتي ذكره.

* * *

(أسماء معاصري السلطان محمد جلبي وجهاتهم)

أوروبا

روم : باله لوغ مانويل أمبراطور الأستانة.
فرنسا : شارلي السابع .... ملك.
إنكلترا : هنري السادس .... ملك.
دانمرك : قرستوف الثاني، وبعده قرستوف الثالث .... ملوك.
ألمانيا : شارلي الرابع .... امبراطور.
أسوج ونروج : ماركو الثاني .... ملك.
بورتغال : زان، ثم ادواريد .... ملوك.
نابولي وسجلياتين : الفونس الخامس .... ملك.
سردينا : أمده تورنبا، ثم أمده الثامن .... ملوك.
روسيا : البرنس واصيل الثاني ابن ديمتري أمير موسكو.
مصر : الملك المظفر أحمد، ثم بعده الملك الصالح برسباي.

آسيا

الحجاز واليمن : حسن بن عجلان، ثم ميشا بن محمد العجلاني، ثم بعده علي بن عنان. جميعهم من بني قتارة .... أمراء.
بغداد : السلطان أحمد .... أمير.
أذربيجان : قره يوسف .... أمير.
كردستان : السلطان خليل .... أمير.
سمرقند : الظاهر عيسى، ثم تيمورلنك، ثم بعدهما السلطان حسين والسلطان خليل .... أمراء.
خراسان : الشاه رخ ميرزا .... أمير.
كرجستان وشيروان : الشيخ ابراهيم والسلطان خليل .... أمراء.
بلاد العجم : الشيخ حنفي، والشيخ صدر الدين، والخواجه علي، والسلطان جنيد، والسلطان حيدر .... أمراء.
أرمنستان : ميرزا عمر .... أمير.

* * *

[٦] السلطان مراد الثاني

ولد هذا الملك في سنة ٨٠٦، وجلس على سرير الملك في سنة ٨٢٤، بالغاً من العمر ثماني عشرة سنة. وجعل مقر سلطنته (بأدرنة وبروسة).

وفي أول جلوسه أرسل إليه أمير بخارى سيفاً كما أهدى لجدّه السلطان بايزيد. ثم إنه اجتهد في إصلاحات الداخلية، وعقد صلحاً مع الحكومات المجاورة. لكن أراد أمبراطور الأستانة أن يشغله فاتفق مع من يدعى مصطفى دوزمه على أن يدّعي أنه هو مصطفى شلبي ابن السلطان بايزيد الذي اختفى خبره في واقعة تيمورلنك مع السلطان بايزيد، وأنه هو الأحق بالسلطنة.

ثم إن مصطفى المذكور ذهب مع كليبولي إلى سيروز وأعلن الجهات بسلطنته، فاتبعه كثيرون من أعيان روملي، منهم: أولاد أولاد أورنس بك، وميخال بك السالف ذكرهما بأوائل هذا الكتاب. وهجم على عساكر السلطان مراد بجهة أدرنة بقيادة الوزير الأعظم بايزيد باشا فظفر مصطفى المذكور بالوزير المذكور. ثم اتخذه لنفسه وزيراً. ثم قتله في سنة ٨٢٥.

وكان السلطان مراد في هذا الوقت مشغولاً بالأناضول لدفع فساد أولاد قرمان. فلما وافاه هذا الخبر اهتم بتداركه، فأخذ في تجهيز جيش. وإذا بمصطفى المذكور توجه بجيشه إلى بروسة. فتقابل الجيشان بمدينة أولوباد. وكان جيش مصطفى خمسين ألف فارس وعشرين ألف بياده غالبهم من العرب. وكان عساكر السلطان مراد لا يزيدون عن العشر. فدبر السلطان ووزراؤه، وبالأخص عوض باشا أن يفهموا أعوان مصطفى المذكور الحالة، وأن هذه فتنة من أمبراطور الأستانة. فتفرق عنه جيشه أفواجاً حتى فارقه وزيره الأعظم جنيد. فهرب مصطفى المذكور منخذلاً إلى كليبولي، ونال من المشاق والصعوبات ما لا يكيف. وأسرع السلطان فلحقه في سنة ٨٢٦، وقبض عليه بكليبولي المذكورة وصلبه بأدرنة. فخاف الأمبراطور وأرسل في الحال السفراء إلى السلطان يبلغونه أن الأمبراطور مخلص له. فردهم السلطان وجهز جيشاً، وهاجم به الأستانة. فأغرى الأمبراطور مصطفى جلبي أخا السلطان وأولاد قرمان فأمدوه وكان شاباً، فاستولى على أزنبيق. وكاد السلطان

يستولي على الأستانة، وإذا بخبر أخيه وصله، فاضطر لترك الأستانة، وذهب بجيشه إلى أزنبيق وقبض على أخيه وأعدمه ودفن بجوار أبيه ببروسة.

وفي سنة ٨٢٧ استراح السلطان بأدرنة وندم على قتل أخيه، واشتد غضبه على الأمبراطور وأولاد قرمان لتسببهم في هذه الفتنة.

وفي سنة ٨٢٨ اعتدى ابن إسفنديار على الممالك العثمانية، فذهب إليه السلطان واسترد منه ما أخذه وأدبه بأخذ ممالكه عدا سينوب وما حولها. ثم إنه التمس من السلطان أن يتزوج بإبنته فقبل منه وتزوّج السلطان بها.

وفي أثناء ذلك إتفق دره قولا حاكم أفلاق مع الألبانيين وأروام مورة ضد الدولة، وتجاوزوا الحدود. في الحال أرسل السلطان إلى المذكورين جيوشاً فشتتوا شملهم، فأظهر درة قولا التندم ورهن أولاده للسلطان على عدم العودة إلى ما يكدر.

وفي هذا العام زوج السلطان أخواته الثلاث. إحداهن: لقاسم بك بن إسفنديار. والثانية: لقرة جه باشا أمير أمراء الأناضول. والثالثة: لمحمود جلبي بن إبراهيم باشا الوزير الأعظم.

وفي سنة ٨٢٩ إهتم السلطان بإصلاحات الداخلية، وإذا بخبر عصيان (قره جنيد) حاكم أزمير اتاه، فأرسل إليه تحسين بك بجيش فظفر به وقتله.

وفي سنة ٨٣٠ استولت دولة الونديك على سلانيك. وجدّد السلطان المعاهدات مع ملكي المجر والصرب وسائر الحكومات المجاورة عدا حكومة الونديك.

وفي هذا العام ظهر شخص يدعى قزل قوجه مع إخوته الثلاث من طائفة التركمان، وجمعوا كثيرين من الاشقياء، واستولوا على أماسيه وتوقاد وما حولها. فأحال السلطان على يوركج باشا إزالتهم وتخليص البلاد منهم. فكتب لهم مكتوباً مآله، أنهم إذا حضروا لديه وذهبوا سوية للاستيلاء على ولاية (جانيك) فالسلطان يكرمهم ويعينهم ولاة. فلما وصل لهم هذا المكتوب عزموا على الحضور، لا للغرض المذكور، بل لغرض الفتك بهذا الباشا والإستيلاء على ولايته وأمواله. فلما أحس الباشا بما نووا عليه تمارض وأرسل إبنه لاستقبالهم. وبحضورهم أظهر لهم الترحيب، وأعدّ لرئيسهم مسكناً فاخراً، ولأعوانه وأتباعه وإخوته مساكن أخرى. ولما أتى الليل هجم عليهم الباشا على غفلة وأهلكهم في مساكنهم وتشتت الأشقياء الأخلاط بغير حرب.

وفي سنة ٨٣١ زار السلطان يعقوب بك بن كرميان أحد الأمراء المستقلة فاندهش مما لاقاه من لطافة السلطان وإكرامه إياه وعدالته في الأحكام ونحو ذلك من الخلال الجميلة. فلما عاد إلى مملكته أوصى بإلحاق ممالكه بممالك الدولة العثمانية بعد وفاته. وتوفي في السنة التالية بلا ولد ونفذت وصيته. وأراد أن يستريح السلطان في أدرنة، وإذا بخبر هجوم ملك المجر على قلعة (كوكر جنلك) وافاه. فعين إسحاق بك حاكم بلاد لاس ومعه أمراء روملي لذلك. فأحاط بجيش ملك المجر بجهة (سمندره) ثم أخرجهم وساقهم وشتتهم إلى بلادهم. وقبل ملك الصرب أن يدفع الويركو من جديد. وأنعم السلطان على إبراهيم باشا جاندرلي الوزير الأعظم لحسن خدمته للدولة وصدق نيته لها برتبة (خان). غير أنه أتاه الأجل الموعود فمات وعين بدله إبنه خليل باشا.

وفي سنة ٨٣٢ ذهب السلطان إلى سلانيك وحاصر قلعتها أربعين يوماً، ثم استولى عليها. وفي أثناء ذلك هدم أسطول (الونديك) قلعة الدردنيل ثم عقد الصلح.

وفي سنة ٨٣٣ ظهر في بروسة وباء عظيم ثم زلزلة ثم قحط. فمات كثيرون، ومنهم أولاد السلطان.

وفي سنة ٨٣٤ رغب أهالي يانيا إلحاق بلدهم بالممالك العثمانية، فقبل منهم السلطان ذلك.
وفي سنة ٨٣٥ حصل من قاستريونان حاكم جهة من بلاد ألبانيا حركة عدوانية، فذهب إليه سنان باشا أمير أمراء روملي، فأخذ أولاده أسراء واستولى على ملكه. وفي أثناء ذلك حصل الاعتداء من المجر، فذهب إليه المذكور وشتت شمله.

وفي سنة ٨٣٦ طلب الملك سجليسموند ملك ألمانيا الجديد المعاهدة بترك المحاربة، فقبل منه السلطان على شرط دفع الغرامة الحربية.

وفي سنة ٨٣٧ لم تحصل وقائع تذكر.

وفي سنة ٨٣٨ إتحد إبراهيم بك بن قرمان مع ملكي المجر والصرب على معاداة السلطان. فذهب السلطان إليه أولاً وشتت شمل أعوانه، وهرب هو إلى طاش أيل واستولى على ممالكه. فطلب الأمان والعفو، فعفا عنه ورد له بلاده.

وفي سنة ٨٣٩ ذهب السلطان إلى الصرب للإنتقام. فأسرع ملكه بتجهيز إبنته بجهاز عظيم، والتمس من السلطان قبول زواجها لنفسه، والعفو عما سلف فقبلها منه وعفا عنه.

أما ملك المجر فانه كان استولى على الاجه حصاري حين اشتغال السلطان بابن قرمان. ففي سنة ٨٤٠ أرسل السلطان إليه (أورنس بك) فطرد عساكر المجر منها، وأخذ ملك بوسنة يظهر الإنقياد لأنه كان معيناً لملك المجر في اعتدائه.

وفي سنة ٨٤١ وسنة ٨٤٢ ذهب السلطان للإستيلاء على قلعة سمندرة. وأتاه هناك دره قوله أمير أفلاق. فأغضبه السلطان لأمر مجهول، وسجنه في كليبولي، وسجن ولديه في قلعة (أكريكوز). وكان طلب حضور ملك الصرب، ولإتفاقه مع ملك المجر لم يحضر بل هرب إليه. ففتح السلطان القلعة المذكورة، وضم بعض ممالك الصرب إلى ممالكه. ثم عاد إلى أدرنة.

وفي سنة ٨٤٣ عاد السلطان إلى بلاد الصرب وحاصر (بلغراد) عاصمة الصرب. وعبرت فرقة من العساكر نهر (صوه)، وأدخلت في بلاد المجر.

وفي سنة ٨٤٤ إنتهز ملك المجر مشغولية السلطان بالحرب فرصة للمداخلة في أمر حكومة أفلاق فولى أحد أعيانها أميراً لها بدلاً عن (دره قوله) المسجون. ثم تجاوز الحد بالإعتداء على بلاد الدولة.

وفي سنة ٨٤٥ أرسل السلطان (ازيد بك) أحد الأمراء بفرقة من العساكر إلى جهة أفلاق، فهجم عليه وعلى من معه بغتة عساكر أفلاق والمجر، فقتلوه هو وأكثر من معه، وأسروا كثيرين وانهزم الباقي. فأرسل السلطان إليهم فرقة أخرى بقيادة (شاهين باشا قوله). فلم يثبت أمام العدو بل إنهزم هو ومن معه من أمثاله من جبناء الأمراء، ولم يثبت إلا عثمان جلبي متصرف (كوتاهية) الشجاع مع قلة فرقته فقاوم العدو لحد الغروب، ثم جرح وقتل أكثر رجاله. ولفرار شاهين باشا الرئيس العمومي لم يتيسر مقاومة عثمان المذكور ثاني يوم فانتصر المجريون والأفلاقيون واستولوا على صوفية وعبروا بلقان.

وفي سنة ٨٤٦ لما رأى ابراهيم بك بن قرمان إنهزام عساكر السلطان مرتين في جهة روملي، أظهر ما في ضميره من السوء ضد الدولة العثمانية، فأرسل صهره حسن بك لتخريب ممالك الدولة. فغضب السلطان وذهب إليه فهرب إبراهيم بك إلى أيج آيل، وأخذ السلطان بلاده. فتوسطت حرمه أخت السلطان في العفو عنه فعفا عنه ورد إليه بلاده. وكان مع السلطان في هذا الحرب إبنه علاء الدين والي أماسيه وبعودته إلى ولايته توفي.

وفي أثناء ذلك اهتم المجريون بالإتحاد مع بعض حكومات أوروبا والصرب أيضاً (الاتفاق الثامن) فهجموا على بلاد الدولة بجيش عظيم. وقد ظهر أن ذلك ناشيء عن اتفاق ابراهيم بك بن

قرمان معهم على محو الدولة العثمانية لتكون جهة روملي لهم والأناضول له.

ولما وصل هذا الجيش العظيم لحد أدرنة أسرع السلطان بالعودة إلى روملي بعد نهو مسألة ابن قرمان كما سبق، وسد الطرق من أمام جيش العدو الذي اندهش من كثرته.

ثم دخل فصل الشتاء واشتد البرد فاضطر الأعداء للرجوع إلى بلادهم. لكن العساكر العثمانيين لم تدعهم بل سعت خلفهم، ولتدرب عساكر العدو على فنون الحرب لم يزالوا على هيئة منتظمة بدون أن ينال العثمانيون منهم شيئاً يذكر، حتى وصلوا (نيشا)، وهناك انقلبوا ولكثرتهم وقلة عدد العثمانيين أحاطوا بهم واشتبكوا بالحرب حتى حميت بينهم فانتصر الأعداء، وأخذوا محمد بك جلبي متصرف بولي أسيراً، وذهبوا إلى بلادهم وعاد العثمانيون منهزمين إلى أدرنة. ثم أخذ السلطان في أسباب الإستعدادات الحربية لأخذ الثأر في ربيع القابل، وإذا بملك الصرب أرسل سفيراً مخصوصاً للسلطان يطلب العفو عنه وهو يتوسط في الصلح مع المجر. وللملل العساكر العثمانيين والأهالي من توالي الحروب قبل السلطان منه ذلك.

ومضمون الصلح هو أن الصرب وبوسنة والأفلاق يدفعون الجزية للسلطان كما كان، وهو يرد قلعة (سمندرة) للصرب، ويطلق ولدي دره قولة من السجن مع أبيهما، ويطلق محمود بك جلبي من الأسر. وأن مدة الصلح ثلاث سنوات.

* * *

إجلاس محمد الفاتح إبن السلطان مراد

في سنة ٨٤٧ عزم السلطان مراد على التخلي عن السلطنة للإستراحة، نظراً لما ألمّ به من الحزن والعناء على موت ولده علاء الدين، وبلوغ تعصبات ملوك أوروبا المجاورين له ضده إلى درجة لا تطاق، ورأى أن تولية إبنه بدلاً عنه ربما ترتب عليها راحة للعباد من غوائل الحرب. فطلب ولده محمد المذكور وسلم له السلطنة. ثم ذهب هو إلى مغنيسا بخواص رجاله ومعهم رئيسهم إسحاق باشا.

ولكون منشأ كراهة الملوك المذكورين ليست لعيوب في شخص السلطان، بل هي كراهة دينية، فلم يمض على المعاهدة سنة كاملة حتى غدر ملك المجر في سنة ٨٤٨ بإيعاز من أمبراطور ألمانيا (والبابا) وإبراهيم بك بن قرمان رئيس الفساد، لظنهم أن السلطان محمد لا قدرة له ولا كفاءة على

محاربتهم لحداثة سنه ولعدم تدريبه على الحروب. فانضم إلى ملك المجر أمراء الصرب وبوسنة وهرسك وبغدان، وجهزوا جيشاً يزيد عن ثمانين ألفاً ودخلوا بلاد البلغار. فطلب السلطان محمد أباه إلى أدرنة للإقامة بها وليذهب هو إلى ميدان الحرب.

ثم إن الأعداء قطعوا طريق السلطان مراد بسدّ معبر كليبولي فاضطر للذهاب إلى بوغاز البحر الأسود، فعبر منه ومعه خليل باشا الصدر الأعظم وغيره من الخواص وبعض العساكر فوصلوا إلى أدرنة.

وأما عساكر المتفقين فإنهم لما وصلوا وارنه صادفهم السلطان مراد بمن معه من الفئة القليلة، ودارت بينهم الحرب بصورة هائلة، فوقع قره جه باشا وكثيرون من الأمراء وكبار المسلمين شهداء، وتفرقت عساكر السلطان بحالة إنهزام.

أما هو فلم ينهزم بل صعد على ربوة ينتظر نصرة إلهية. وبعث من ينادي على العساكر المتفرقة بجمعهم إليه. ولما رأى ملك المجر السلطان على هذه الحالة أسرع نحوه بجواده هاجماً عليه. فانتظر السلطان قربه، ونادى أن لا يقابله أحد. فما كان ممن يسمى (قوجه خضر) إلا أنه هجم على ملك المجر المذكور وقطع رأسه. فأمر السلطان برفع الرأس مع نسخة المعاهدة على رمح، وتشهيرهما بين الجيش بالطبل والمزمار، فبهذا وحكمة الله قذف الله الرعب في قلوب الأعداء فانهزموا بحالة إندهاش، فتبعهم المسلمون قتلاً مسافة يومين، ولم ينج من الأعداء إلاّ القليل.

ثم عاد المسلمون بغنائم كثيرة وعاد السلطان مسروراً ومعه رأس ملك المجر وجملة أسراء من فرسان المجر المشهورين اللابسين الزرد النضيد. فأرسل منهم كثيرين للجهات لرؤيتهم والتفرّج عليهم ونشر لكافة سلاطين الإسلام بالبشائر. ثم طلب من ابنه محمد عودته هو للجلوس ثانياً فأجابه ورجع إلى ولايته الأصلية كما أن العسكر والوزراء التمسوا منه ذلك. وكان في سنة ٨٤٩.

وفي سنة ٨٥٠ أخذ السلطان مراد في إصلاحات الداخلية. ثم عزم على الإنتقام من أمبراطور الأستانة حيث ظهرت منه بعض دسائس في وقائع إنهزام العثمانيين الماضية، فلم يظهر السلطان غيظه إذ ذاك لكثرة الوقائع وعدم مساعدة الظروف الحالية. فذهب بجيشه واستولى على كرم حصار وباللوبادره من ملحقات جزيرة مورة. ثم ذهب لتأديب الألبانيين فقاوم رئيسهم إسكندر بك. وبعد حصار شهرين إستولى السلطان على أقجه حصارى التي هي بمثابة العاصمة. ثم أدّب باقي العصاة ورجع.

وفي سنة ٨٥١ دعا وكيل ملك المجر المدعو يانكو جميع أوروبا للاتفاق ضد السلطان (الإتفاق التاسع) فأجابوه وهجموا بقوّة وافرة أضعاف عدد جيش واقعة وارنة الماضية في سنة ٨٤٨. فأسرع السلطان بجمع جميع عساكر روملي والأناضول، وذهب بهم إلى صوفية. وقد هجم حاكم أفلاق على أطراف ينيكي بولي بالتحزب، فاتحد محافظها محمد بك بن فيروز بك مع أمراء الحدود وشتتو شمل الأفلاقيين، وأخذ منهم أسراء كثيرين، وجاء بهم إلى السلطان فتفاءل بذلك خيراً.

وفي يوم الجمعة رابع شعبان من سنة ٨٥٢ اشتبكت الحرب في (كوس أوده) من وادي (قوصوة) صباحاً، ومكثت لعصر ثاني يوم. فمنّ الله تعالى على المسلمين بالنصر وانهزام الأعداء وقتل حاكم (بلونيا) وحاكم (جه) وقاوم ملك المجر لحد الغروب، ثم إنهزم. فتبعه العثمانيون وقتلوا منهم كثيرين. ثم عاد السلطان إلى أدرنة.

وفي سنة ٨٥٣ زوّج إبنه محمداً إبنة (إسفنديار بك) بوليمة فاخرة وبنى الجامع المشهور بثلاث منارات بأدرنة.

وفي سنة ٨٥٤ مات أمبراطور الأستانة وجلس قسطنطين (بالولغوس) بدلة واستراح السلطان مدّة بأدرنة. ثم خرج يوماً إلى الصحراء للرياضة وبعودته إعتراه وجع الرأس واشتد به. فطلب ابنه محمداً من ولايته مغنيسا أن يحضر على وجه السرعة. ثم كتب وصية وأمر الصدر الأعظم بالتنفيذ.

واجتهد في علاجه الأطباء فلم يثمر. ومات رحمه الله تعالى في سنة ٨٥٥ بالغاً من العمر ٤٩ سنة، وكتموا موته ١٣ يوماً حتى حضر ابنه محمد. ثم دفن بتربته المخصوصة ببروسة، وتصادف تاريخ موته (دعاي خير).

وكان أولاده خمسة: محمد، وأورخان، وعلاء الدين، وحسن، وأحمد. فمات علاء الدين وأحمد في حياة أبيهم بأماسيه. ومات حسن وأورخان بأدرنة.

* * *

(أسماء معاصري السلطان مراد من الأمراء والملوك وجهاتهم)

أوروبا

فرنسا : لؤلي الحادي عشر شارلي الثامن .... ملوك.
إنكلترا : إدوارد هنري الخامس من فاميلية يورمن.
برتغال : جان الأول ألفونس الخامس.
ألمانيا : البرط.
روسيا : واسيل الثالث ييوان الثالث.
المجر : سيزسموند.
الروم : الأمبراطور باله لوغ مانويل وبعده إبنه جان باله لوغ.
الصرب : إستفان لازار .... ملك.
بابا : زوليان سزارينه بالتوكيل وبعده قلمان بالأصالة.

آسيا

الحجاز : المعتضد بالله.
عراق العجم : حسين بك قره حمزة بك معز الدين جهنكير بن علي الأمير عز الدين الملك محمد.
شروان : خليل الله .... أمير.
العجم : شاه رخ ميرزا علاء الدين ميرزا عبد اللطيف ميرزا.
سمرقند : عبد الله ميرزا .... أمير.
الهند وتترستان الكبير وجزء من الشين السلطان محمد السلطان حسين هيوان جونغ أبو الخير من فاملية أخرى.
مصر : المستكفي بالله أبو نصر الخليفة العباسي.

* * *

[٧] السلطان محمد الفاتح

ولد هذا السلطان في سنة ٨٣٣. وتولى سنة ٨٥٥ هجرية الموافق ١٤٥١ ميلادية بالغاً من العمر إثنين وعشرين سنة. ومدّة سلطنته إحدى وثلاثون سنة.

وبعد جلوسه بمدّة قام إبراهيم بك بن قرمان معادياً وحرك أيضاً أولاد كرميان ومنتشا وايدين، فهجموا على كوتاهيا وما حولها. فعين السلطان من وزرائه إسحاق باشا بدلاً من عيسى بك أمير أمراء الأناضول، وأعطى له عساكر كافية لمحاربة ابن قرمان، وذهب السلطان على أثره. فهرب إبراهيم بك إبن قرمان خوفاً إلى (إيج ايلي)، ثم إلتمس منه العفو، وأنه منقاد لطاعته فعفا عنه. وجعل مقر أمير الأمراء في كوتاهية بدلاً عن قونية، للقرب من الحدود ولمنع تعدي أولاد قرمان وكرميان المذكورين. وأحيل ذلك على إسحاق باشا المذكور.

وفي أثناء هذا السفر والعودة حصل من اليكجرين بعض نفور ونشوز، فعزل السلطان رئيسهم (توقاد بك) وعين بدله مصطفى بك.

ولمّا عاد السلطان في سنة ٨٥٦، بلغه أن أمبراطور الأستانة طالب مخصصات لأورخان جلبي حفيد سليمان شاه إبن السلطان بايزيد المقيم بالأستانة. فغضب السلطان، ثم زاد غضبه لما بلغه أن الأمبراطور ساع في الإتفاق مع الونديك، فعزم على فتح الأستانة، وأنشأ (روملي حصارى) في ثلاثة أشهر. وقيل: في أربعين يوماً. ثم أنشأ مدفعين من نحاس وزن كل منهما ثلثمائة قنطار. وجهز المهمات الحربية في سنة ٨٥٧، وجيش مائتي ألف، وحاصر الأستانة براً.

وفي أثناء المحاصرة جاء إليها الأسطول أيضاً بحراً، والإفرنج الجنويزيون الموجودون بالأستانة أعانوا الأمبراطور براً وبحراً، ووضعوا جنزيراً حديداً ساداً للبوغاز. فأمر السلطان بضرب مراكب العدو وضرب الأستانة نفسها بالمدافع.

وفي يوم الثلاثاء عشرين جمادى الأولى من السنة المذكورة في الرابع والخمسين يوماً من المحاصرة، هجم السلطان بعساكره على الأستانة فدخلوها، وخرج الأمبراطور من سراية تكفور

بعساكر خاصة للمدافعة، وهجم على فرقة إسلامية وبيده السيف مسلول، فوجد نفراً عربياً مجروحاً، فأراد قطع رأسه، فسبقه النفر العربي الجريح بضربة بسيفه قطع بها رأسه، فتم الفتح. وقبض على (نوطراس توماس) باش وكيل الأمبراطور فسجن هو وأتباعه. وأعدم أورخان جلبي. ودفن الأمبراطور في المنزل العتيق بميدان وفا.

ثم سلم أهالي قلعة (سلوري) استيماناً، وكذلك الأروام سلموا برغوس (وبوغادوس) بغير حرب. وقد مضى من منشأ الأستانة إلى يومئذ ألف وخمسمائة سنة. ثم إن السلطان غير كنيسة (أياصوفية) الشهيرة بشكل جامع والإفرنج الساكنون في غلطه بالاستانة المستقلون عن حكومة الإمبراطور عرضوا على السلطان قبول تبعيتهم إليه.

وفي أثناء ذلك إتهم خليل باشا الصدر الأعظم بميله للأمبراطور، فعزل وأعدم وعين بدله محمود باشا. ثم أقام السلطان (سليمان بك) محافظاً بالأستانة وعاد هو إلى أدرنة سالماً غانماً.

وفي سنة ٨٥٨ قطع ملك الصرب طريق (اسكوب) فذهب السلطان إليه فخاف منه، وهرب إلى بلاد المجر. فاستولى السلطان على قلعة (استرويجه) وحصار (أموله)، واكتفى بهذا التأديب وعاد إلى أدرنة. ثم ذهب إلى أينوس التابعة لأمبراطورية الأستانة فحاصرها براً، ويونس بك بحراً، فاستولى عليها وعلى عشرة مراكب حربية وعلى جزيرة (طاشوز) بغير حرب.

وفي سنة ٨٥٩ مات ملك الصرب الهارب فاستولى السلطان على قلعة (نوه برده)، ثم على قلعتي (سربيجه) و(بخورى) وبعض جهات أخرى. وزار السلطان مشهد جدّه المرحوم السلطان مراد الأول (بقوصوة). ثم عاد إلى الأستانة على طريق سلانيك.

وفي سنة ٨٦٠ ذهب السلطان ومعه قره جه باشا قومندان عموم العساكر العثمانيين إلى بلغراد لما بلغه من إتفاق حكومات المسيحيين المجاورين (الإتفاق (١١)) وذلك أن هونباد ملك المجر طلب من حكومات أوروبا تجييش جيش عظيم لطرد العثمانيين من أقاليم أوروبا، فأجابوه وجهزوا جيشاً يزيد عن ثلثماية ألف. فترك السلطان محاصرة بلغراد، وعاد إلى الحدود، وكتب إلى جهتي الأناضول وروملي بجمع كل من يقدر على حمل السلاح، لأن جيشه حينئذ كان مائة وخمسين ألفاً، وعمل بعض إستحكامات. فلم يحصل حرب لحصول بعض اختلافات بين المتحدين وكفى الله المؤمنين القتال.

وفي سنة ٨٦١ لم يحصل اعتداء من أحد، فاشتغل السلطان بأعمال وليمة عظيمة لختان ولديه بايزيد ومصطفى.

وفي سنة ٨٦٢ أراد السلطان الإنتقام من المتحدين ضدّه لما تحقق له من شدّة عداوتهم، فذهب إلى جهة مورة من طريق سيروز ويكى شهر، واستولى على قلعة (فلكه) وما حولها، فطلب الأهالي منه الأمان فأمّنهم.

ثم فتح قلاعاً وبقاعاً كثيرة، منها: (منجلق) و(كورفوا) و(طوقاق). ثم ذهب بالجيش إلى مدينة (أسكوب) وشتى هناك.

وأما محمود باشا الصدر الأعظم فإنه انتقم من ملك المجر رئيس العصبة بالإستيلاء على جهات (رصاو) و(أموله) و(كروجه) و(برابجه) وغيرها. ثم جاء إلى السلطان بأسكوب. وقد أعطى السلطان رخصة للعساكر بالذهاب إلى بلادهم وعاد هو إلى أدرنة.

وفي سنة ٨٦٣ لم يحصل حرب.

وفي سنة ٨٦٤ ولد للسلطان ولد سماه (جما).

وفي سنة ٨٦٥ ألحقت جهات (قسطموني) و(سينوب) و(طربزون) بالممالك العثمانية.

وفي سنة ٨٦٦ ذهب السلطان إلى أفلاق لأن أميرها كان ضمن المتحدين ضدّه فقاوموه، وبعد أن قتل منهم سبعة آلاف هرب إلى بلاد المجر. فاستولى السلطان على بلاد الأفلاق، وعين لها رادول بك أميراً عليها. ثم استولى على جزيرة (مدللو).

وفي سنة ٨٦٧ إستولى على (بوسنة) وقلاع (لوقجة) و(أورحاي) و(يابجة) إستيماناً، وعلى (هرسك) بمعرفة محمود باشا. وأعدم ملك بوسنة لأنه كان صاحب اليد الطولى في الإتحاد الضدّي السابق على ما في بعض الروايات وكان ساعياً في تجديده.

وفي سنة ٨٦٨ حصل اختلال بواسطة أولاد قرمان فأرسل إليهم السلطان (أحمد بك بير) بجيش عظيم فاستولى على حكومتهم.

وفي سنة ٨٦٩ إتفق (المجر) و(ونديك) مع البعض من حكومات أوربا (الاتفاق (١٢)) وأعلنوا الحرب ضدّ العثمانيين، وأغاروا على قلعة (يابجة) وما حولها فاستولوا عليها.

وفي سنة ٨٧٠ حاصرها العساكر الإسلامية وانتصروا عليهم وردوها منهم وشتت شمل عساكر المجر. وفي أثناء ذلك عصى الألبانيون.

وفي سنة ٨٧١ صار تأديب العصاة وهرب رئيسهم إسكندر بك.

وفي سنة ٨٧٢ عزل محمود باشا الصدر الأعظم عقب واقعة الألبانيين.

وفي سنة ٨٧٣ صار الإستيلاء على قلعة (اغريبوز) و(قزل حصار)، وعين السلطان إبنه (جما) والياً على (قسطموني).

وفي سنة ٨٧٤ تعدى حسن خان الطويل حاكم (أذربيجان وكردستان) على الحدود العثمانية، فأعيد محمود باشا إلى الصدارة، وأرسل بالجيش إلى هناك. فأرسل مراد باشا بفرقة من العساكر طليعة فلم يلبث إلا قليلاً وقتل شهيداً وتشتت من معه من العساكر. ثم وصل محمود باشا على الأثر فهزم حسن خان المذكور وتشتت من معه وفر هارباً. ومضى أربع سنين بعد ذلك لم تذكر لهم وقائع.

وفي سنة ٨٧٩ مات مصطفى ابن السلطان في قصبة (بور). وفي هذا العام وشى بعض أصحاب الأغراض في حق محمود باشا الصدر الأعظم فقتل، وعين بدله (أحمد باشا كدك). فذهب بالعسكر واستولى على قلعتي (كفه) و(أزاق) في سنة ٨٨٠.

وفي سنة ٨٨١ حصلت حروب كثيرة في بغدان. وألحقت ممالك (قوياويج) بالممالك العثمانية بطريق الإستيمان.

وفي سنة ٨٨٢ صار الإستيلاء على مملكة (اشقودره) (١).

وفي سنة ٨٨٣ فتح أحمد باشا كدك الصدر الأعظم كثيراً من ملحقات (إيطاليا).

وفي سنة ٨٨٤ ألحقت مملكة (طرول) بأذربيجان إلى الممالك العثمانية بواسطة سنان بك.

وفي سنة ٨٨٥ عين مسيح باشا سرداراً للإستيلاء على رودس لأمن الطريق وقطع دابر (القرصان) (٢) فلم يتيسر. وفي سنة ٨٨٦ وصل الجيش إلى مرحلة ككبوزة. ثم مرض السلطان ومات رحمه الله تعالى رحمة واسعة في يوم الخميس الرابع من شهر ربيع الأول.

وكان أولاده ثلاثاً: بايزيد الثاني، ومصطفى، وجم. فمات مصطفى في حياة أبيه كما تقدم.

* * *

---

(١) جزء من ألبانيا.

(٢) هم قطاع الطريق واللصوص في البحر.

(بيان أسماء الملوك والأمراء المعاصرين للمغفور له السلطان محمد الفاتح)

أوروبا

إنجلترا : إدوارد الرابع، إدوارد الخامس، ريشارد هانري السابع.
فرنسا : لوي الحادي عشر، ثم بعد عزله شارلي الثامن، ثم بعد موته لوي الثاني عشر إبن عم شارلي الذي كان دوقة أورليان.
برتغال : جان الثاني، ثم البرنس بكتيار منويل.
نابولي : لوي الثالث، ثم فردياند الأول، ثم ألفونس الأول، ثم إبنه ألفونس الثاني، ثم فره دريك.
سجليا : فردياندو.
بابا : أوجن.
ألمانيا : ألبرت الثاني، ثم فره دريك الثالث، ثم إبنه ماقسمليان.
الروم : الأمبراطور قسطنطين دراقوزه.
الروسيا : إيوان الثالث.
قاستيل : هنري الرابع، ثم الملكة إيزابله.
وارغون وغرناطه : أبو الحسن.
أسبانيا : فردياند الرابع.

آسيا

العجم : ميرزا أبو سعيد خان، ثم بعد قتله ميرزابا يزيد سلطان خرسان، ثم بعد موته إبنه محمود شاه، ثم بعد خلعه ميرزا إبراهيم سلطان، ثم بعد قتله السلطان حسين بهادر.
عراق العجم : الأمير حسن الطويل، ثم بعد قتله حسين بَيْقَرا.
كردستان وترستان وتركستان الأمير ميرزا عبد الله الشيرازي، ثم بعد قتله ميرزا السلطان أبو سعيد.
الهندستان : نظام خان.

أفريقيا

مصر : الملك الأشرف أبو نصر.

أما الخلفاء العباسيون بها، فهم:

المستكفي بالله، ثم بعد موته أخوه القائم بأمر الله، ثم بعد خلعه أخوه المستنجد بالله.

الحبش : سيغون جونغ فغفور، ثم بعد موته إبنه نبغ جونغ، ثم بعد خلعه أخوه كينتي صار أمبراطوراً، ثم بعد موته نبغ جونغ.

* * *

[٨] السلطان بايزيد الثاني

ولد المشار إليه سنة ٨٥١، وجلس سنة ٨٨٦ هجرية الموافق سنة ١٤٨١ ميلادية. بالغاً من العمر خمسة وثلاثين سنة. ومدّة سلطنته إحدى وثلاثون سنة وكسور. وعاصمته الأستانة.

ولما توفي والده المرحوم محمد الفاتح كان هو في أماسيه، فلما وافاه أبيه أسرع بالحضور إلى الأستانة. وفي أثناء ذلك حصلت فتنة بالأستانة، وذلك أن رؤساء اليكيجريين هجموا على بيوت الوزراء الذين خابروا سراجما بن السلطان محمد والي قرمان يومئذ بوفاة أبيه لميلهم إلى توليته السلطنة، وقتلوا محمد باشا قره مانلي الصدر الأعظم فجاء السلطان بايزيد في مدة ثمانية أيام فلأجل إطفاء الفتنة عفا عن الجميع وعين للصدارة إسحاق باشا.

وفي ثاني يوم من جلوسه بالأستانة إحتفل بدفن أبيه بعد أن صلى عليه الشيخ وفا، ودفن بجامعه الشهير.

* * *

وقائع جم أخ السلطان

لما جلس السلطان بايزيد لم يبايعه أخوه جمّ مع من بايعه من المعتبرين، بل جمع كثيراً من أشقياء كرمان وهجم بهم على بروسة. فأرسل السلطان العساكر اليكيشارية بقيادة إياس باشا إلى بروسة غير أنه لكراهة أهاليها لليكيشاريين لم يقبلوا إياس باشا، بل استقبلوا جما وسلّموا إليه المدينة، ووقع إياس باشا وكثيرون ممن معه أسراء.

ثم إن جما استولى على ما حول بروسة أيضاً، وأمر الخطيب أن يدعو له، وجمع كثيراً من العساكر. فلما بلغ السلطان ذلك سنة ٨٨٧ ذهب بجيشه من جهة يكي شهر، وأرسل من ينصح أخاه، وعرض عليه ما يختار غير السلطنة، فلم ينتصح فوقع الحرب. ولأجل عدم كثرة إهراق الدماء دبر السلطان بايزيد هو ووزراؤه أن يخابروا اللالا يعقوب، الذي هو مدبر أمور جم سراً بأن

يتخلى عنه، ووعده وعداً حسناً. ففي أثناء الحرب فارق جما وانضم لبايزيد، فحصل الضعف في الحال في جيش جمّ وانهزم وفر هو جريحاً إلى جهة قرمان. وبوصوله إلى قونية أخذ أتباعه وخواصه، وذهب إلى مصر سنة ٨٨٨ من طريق حلب والشام، فأكرمه السلطان قايتباي.

وأما السلطان بايزيد فإنه ذهب إلى قرمان ولاية أخيه جم وضبطها، وعين لها إبنه عبد الله والياً، ثم عاد للأستانة وعزل إسحاق باشا من الصدارة ونفاه إلى سلانيك وعين بدله داوود باشا واشتغل بالأمور الداخلية. وإذا بخبر أتاه بأن قاسم بك إبن قرمان جمع الأشقياء، وضيق على عبد الله. فأرسل إليه في الحال مدداً برئاسة أحمد باشا بن هرسك. فلما وصل هرب قاسم بك إلى طرسوس، وأرسل جواباً إلى جم لما بلغه أنه عاد إلى مصر بعد أدائه فريضة الحج، يقول له أن العثمانيين ساخطون على أخيكم بايزيد، فإذا جئتم يمكنكم أن تتحصلوا على سلطنتكم الموروثة. فجاء المشار إليه إلى حلب جاهلاً الحقيقة فاستقبله هناك قاسم بك وقد انضم إليهما كثير من الأعيان والأمراء.

وفي سنة ٨٨٩ خاف السلطان بايزيد من دخول أحمد باشا بن هرسك المذكور في جمعيتهما فأمره بسرعة حضوره إلى الأستانة بعد إبقاء عبد الله إبن السلطان في قلعة قره حصار خوفاً عليه من تعدّي إبن قرمان. فعزما على ذلك، وقاما فعلا متوجهين إلى قره حصار، فقابلهما محمد بك الترابزوني بجيشه من قبل جم وإبن قرمان، فالتقى الجمعان. وبعد مناوشة خفيفة ذهب محمد بك المذكور لمحاصرة قونية. أما السلطان بايزيد فإنه أسرع بالذهاب إليها وكان السابق إليها جم. غير أنه بوصول أخيه هرب، وقبض على محمد بك المذكور وأعدم. وأرسل السلطان بايزيد إلى أخيه جم جواباً يقترح فيه عليه إقامته في القدس الشريف مع خواص رجاله للإستراحة، وهو يقوم بمرتباته، ونصحه أن يقلع عن هذه الأفكار الفاسدة. فلم يصغ له، بل طلب من حاكم رودس سفينة يعبر بها إلى روملي فأرسلها إليه. فلما ركبها سار به رئيس السفينة إلى رودس فما كان من حاكمها إلا أنه أرسله إلى فرنسا ليعد ذلك منة على السلطان بايزيد، وأخذ من الدولة نقوداً عظيمة بهذه الوسيلة، حيث أن السلطان بايزيد لم يقبل على نفسه منة لأحد ولا غرامة أحد من قبل أخيه. وبعد إقامة جم بفرنسا مدة سبع سنين أرسلته فرنسا إلى رومة وسلمته للبابا وأقام عنده ست سنوات. ولما دخل الفرنساويون إلى رومة قتل حاشية البابا جما بالسم، فأحضر السلطان جنازته إلى بورسة ودفن بالمحل المعروف بمرادية.

ثم إن قاسم بك طلب العفو من السلطان فعفا عنه، وأعطاه جهة (ايج آيل). وعاد السلطان

إلى الأستانة وذهب منها إلى أدرنة لتنظيم أحوال روملي، وجدّد المعاهدات مع جمهوريتي (ونديك وراغورة).

وفي أثناء ذلك توفي إلى رحمة الله تعالى عبد الله إبن السلطان والي قرمان، فاضطرب أبوه لذلك. ثم استرجع وعين بدله إبنه (شهنشاه).

وفي هذا العام أغار السلطان براً وبحراً على بغدان لسبب عصيان حاكمها، وساعده على ذلك منيكلي أحد أمراء قريم بخمسين ألف جندي، فكافأه السلطان بلقب (خان قريم). وعين بدله ديمتري بك ابن أخي حاكم بغدان العاصي. ثم عاد السلطان وقتل أحمد باشا كدك أحد الوزراء لما تلاحظ له من حركاته الغير مناسبة في وقائع جم.

وفي هذا العام مات قاسم بك بن قرمان، وعين محمد بك من سلالته. وجاء السفراء من دول الإسلام ومن دولة الشراكسة بمصر تبريكاً للجلوس.

تنبيه

يوجد اختلاف في وقائع هذه السنوات الثلاث من جهة التقديم والتأخير.

وفي سنة ٨٩٠ وردت تشكيات من أهالي الأندلس في حق دولة أسبانيا لكثرة تعديها، فأرسل السلطان بعض عساكر في سواحلها فأغاروا على بعض الجهات.

وفي سنة ٨٩١ إزداد النفور بين الدولة العثمانية ودولة الشراكسة المصرية بسبب فرار جم إلى مصر وحماية ملك مصر له. وفي رواية: لتعدّي المصريين على ولاية ذو القدرية التابعة للدولة العثمانية. فأراد السلطان بايزيد تأديب مصر، فأمر محمد باشا قره كوز أمير أمراء قرمان بأن يتحد مع حاكم عشائر ذو القدرية ووالي (ايج آيل) و (مرعش) لهذا الغرض فاستوليا على قلاع (سكيسي) و (اياسي) و (ترسوس)، وأراد الرجوع وإذا بخمسة آلاف من عساكر مصر تعرضوا لهما فالتقى الجمعان وانكسر العثمانيون.

ثم أرسل محمد باشا المذكور موسى بك وفرهاد بك بعساكر فغفلا عن الاحتياط فقتلا مع كثير ممن معهما من العساكر. فغضب السلطان بايزيد وأرسل داوود باشا الصدر الأعظم بجيش عظيم، وأخذ العشائر الميالة لجهة مصر تحت طاعة الدولة العلية. ثم وجد أن العساكر المصريين تركوا الحدود وذهبوا إلى بلادهم فضلاً عن أنه بلغه أن في روملي أحوالاً ذات أهمية، فعاد إلى الأستانة.

ولتكرار تجاوز المصريين الحدود أمر السلطان في سنة ٨٩٢ أحمد باشا إبن هرسك السردار صهره وعلي باشا الخادم أن يتحدا مع محمد باشا قره كوز فاتحدوا، وآستولوا على (طرسوس) و (أطنه). فغضب (قايتباي) سلطان مصر، وأرسل جيشاً هائلاً. وفي أثناء الحرب ترك محمد باشا قره كوز أحمد باشا السردار المذكور متربصاً أن يصاب فيأخذ وظيفته توهماً منه أن يقلدها، فانهزم العساكر العثمانيون وأسر أحمد باشا.

وفي سنة ٨٩٣ إستردّ المصريون (طرسوس) و (أطنه)، وآنضم علاء الدولة [١] إلى المصريين. وقد وصل الشراكسه بعساكرهم إلى قيصرية.

وفي سنة ٨٩٤ إهتم السلطان بايزيد بالتجهيزات الحربية ليذهب بنفسه لمحاربة المصريين.

هذا ما كان من أمره. وأما ما كان من أمر سلطان مصر فإنه بوصول أحمد باشا المأسور إليه أكرمه وأطلق سبيله، وأرسله إلى الأستانة معززاً مكرّماً، وعرفه أنه لا يسره محاربة المسلمين مع بعضهم. ثم توسط عثمان الحفيضي سلطان تونس في الصلح، فحصل الصلح بين مصر والعثمانيين في سنة ٨٩٥ وكفى الله المؤمنين القتال.

* * *

(حادثة غريبة)

وهي أن السلطان بايزيد لما جهز الجيش لمحاربة المصريين كما تقدّم في سنة ٨٩٤، فبوصوله إلى (اسكودار) صباحاً هاج السحاب فجأة، وأظلم الجوّ بريح عاصف. ثم تكاثر المطر مثل الطوفان، ثم نزلت صاعقة في معمل البارود بالأستانة، فالتهب بسببها. ولشدتها جعلت عالي المعمل سافله، فانهدم ثلثمائة بيت وآختل أربعمائة. ومات فوق ألفي نفس.

وفي سنة ٨٩٧ مات يانكوا ملك المجر بلا ولد، فحصل خلاف شديد وفساد كبير وتعاظم ذلك حتى امتدّ إلى بلاد الدولة. فأخبر حاكم (بلغراد) السلطان بايزيد بأن فريقاً من المجر يريدون تسليم قلعتهم للسلطان، فذهب السلطان في الحال إلى صوفية، فوجد أن ملك (بولونية) صار ملكاً على المجر أيضاً، وأن حاكم بلغراد عزل بسبب مخابرة السلطان بذلك، فلم يشأ السلطان التداخل. ولحصول عصيان الألبانيين بإعانة إخوانهم الخارجين عن حكم الدولة ذهب السلطان هناك وأدب العصاة، واستولى على بعض من بلاد الخارجين عن نفوذ وحكم الدولة ثم عاد إلى أدرنة.

(١) حاكم مرعش وما معها السالف ذكره.

وفي سنة ٨٩٨ تعدى المجريون على من بالحدود من العساكر العثمانيين فأرسل السلطان علي بك ابن ميخال والي سمندره بعشرين ألفاً فانتصر المجريون عليه واستشهد أكثر عساكره وعاد منهزماً. ثم إن ملك المجر أرسل (درنجيل ياني) إبن أخيه قائد هذا الجيش بإثني عشر ألفاً إلى بوسنة، وانضم معهم حاكم (خروات) بعسكره مع أنه كان تحت نفوذ الدولة العلية. فقابلهم يعقوب باشا والي بوسنة بجيشه، وبعد قتال شديد انتصر عليهم انتصاراً باهراً، وقتل منهم تسعة آلاف وهرب الباقون فأتبعهم قتلاً وأسراً. ثم عاد ومعه درنجيل القائد وكثيرون أسراء بغنائم عظيمة في سنة ٨٩٩.

وفي سنة ٩٠٠ أظهر ملك بولونيا العداوة للإسلام ودعا أمير بغدان للإتفاق معه فوافقه في الظاهر، وكان في الباطن معيناً للدولة. وبحسن تدبيره نتصر المسلمون هناك على عساكر بولونيا، وهرب ملكها منهزماً شر هزيمة فاتبعوه حتى دخلوا بلاده، وجعلوا أعزة أهلها أذلة، ثم عادوا غانمين في سنة ٩٠١. فكافأ السلطان أمير بغدان على ذلك مكافأة عظيمة.

وفي سنة ٩٠٢ أرسل السلطان وزيره إسكندر باشا لتأديب دولة (الونديك) فانتصر عليها حتى قارب محل العاصمة في سنة ٩٠٣، لكن لكونها كانت على شكل جزيرة عجز عن التقدم إليها. ثم عاد إلى بوسنة. وفي هذا العام تجددت المعاهدة التجارية بين الدولة العلية والروسيا. وفي سنة ٩٠٤ صارت المعاهدة مع جمهورية الونديك، غير أنها بتحريكات حكومات إيطاليا غدرت. فذهب السلطان بنفسه ومعه أحمد باشا بن هرسك لفتح (اينه بختي) بقوة برية وبحرية، منها ثلاث سفن حربية طول الواحدة سبعون ذراعاً فوصلوا إلى سواحلها، فوجدوا أن دولة الونديك سدت بوغاز الدردنيل بمائة وخمسين سفينة وفي البرايضا حصون منيعة بمدافع ضخمة، فوقعت الحرب بحراً بشدة فأغرق وأحرق بعض من سفن الدولة، ومات نحو خمسمائة جندي خلاف بعض الأمراء والضباط. وأخيراً انتصر العثمانيون في سنة ٩٠٥، ودخلت السفن البوغاز وآستولوا على القلعة وشتوا هناك. وأما الونديك فإن سفنها استولت على جزيرة (كفالوينه)، وأحرقت بعضاً من سفن الدولة في بوغاز بروزه.

وفي سنة ٩٠٦ فتح السلطان قلاع (متون) و (قرون) وغيرهما وعين علي باشا محافظاً على موره وملحقاتها. ثم زاد علي باشا المذكور بعض فتوحات، وفي أثناء مشغولية السلطان بهذه الوقائع جمع مصطفى بك من أحفاد إبن قرمان جمعاً من الأشقياء ونهب جهة لارنده وما حولها فأرسل السلطان ابنه أحمد والي أماسيا ومحمد باشا حفيده والي يكي شهر إليهم فشتتوا شملهم.

وفي سنة ٩٠٧ طلبت جمهورية الونديك من البابا وأسبانيا وفرنسا والمجر الإعانة على مضادة العثمانيين ومحاربتهم براً وبحراً (الاتفاق ١٣)، فأجابوا طلبهم وأرسلوا أسطولاً مختلطاً بالبحر الأبيض حتى وصل جزيرة مدللو. فأرسل السلطان في الحال أحمد باشا إبن هرسك بأسطول الدولة، فهمته وهمة كمال بك أحد رؤساء الأسطول أسر بعض سفن الأعداء بمن فيها، ومنهم إبن أخي ملك فرنسا وآنهزم الباقون وآستردوا الجزيرة، وأحيل أمر تعميرها وتعمير قلاعها على سنان باشا والي الأناضول، وعاد الأسطول سالماً إلى الأستانة.

ثم إن الونديك تخابرت مع دولة إيران التي أجابت الطلب، فاضطر السلطان لمجاملة ومصالحة سائر حكومات أوروبا وفي الأثناء صار فتح قلعتي (لوقجه) و (دراج) بهمة إسكندر باشا والي بوسنة.

وفي سنة ٩٠٨ مات (علمشاه) ابن السلطان. وتعدى الشاه إسماعيل إبن الشيخ حيدر الصفوي شاه العجم على جهات (خربوت) و (مرعش)، واستمال أغلب التركمان الساكنين في جهات (تكه) و (ايج آبل)، ورتب له منهم جيشاً. فأسرع السلطان بنقل باقي التركمان إلى موره. أما الشاه إسماعيل فإنه شعر بضعفه فعاد.

ثم حصل بالأناضول وروملي وباء مهول استمر ثلاث سنين، وحصل فيها وفي ثلاث سنين أخرى قحط عظيم مات بسببهما خلائق لا تحصى.

وفي سنة ٩٠٩ ظهر شخص شقي يسمى (قره طورمش) ومعه بعض سفن لقطع الطريق على التجار المسلمين في جهة (سورى حصار) فأرسل إليه سفن كافية فتشتت شمل أعوانه، وأخذ هو وصلب وأخذت أمواله.

وفي سنتي ٩١٠ و ٩١١ لم تحصل وقائع حربية، بل اشتغل السلطان بترقية الزراعة والتجارة والصناعة وبأعمال أبنية خيرية مثل كبارى وقناطر وإنشاء طرق عمومية ونحو ذلك.

وفي سنة ٩١٢ حصل للسلطان مرض أوجب إنحطاط قواه، فخوفاً من حصول الشقاق بين أولاده أحضر علي باشا الخادم أمير أمراء مورة، وفوّض إليه أمر الدولة. وفي أثناء ذلك حصلت زلزلة هائلة ستمرت شهراً فانهدم بسببها نصف الأستانة، وخرج الأهالي والسلطان إلى الصحراء وخيموا بها. ثم أنشىء للسلطان بالصحراء بيت من خشب ونقل إلى سرايته الكائنة (بديمتوقه) بالقرب من أدرنه، وأقام فيها إلى تمام عمارة الأستانة.

وفي سنة ٩١٣ إهتم علي باشا الوزير الأعظم بعمارة الأستانة بالأخشاب، وآهتم أيضاً بالتنكيل بمن يظهر من القرصانين، ورفع المظالم عن الأهالي من الولاة.

ولما طال المرض بالسلطان أراد إتخاذ إبنه أحمد ولي عهده فوافقه الوزراء على ذلك وكان لإبنه (قورقود) أمل في أن يكون سلطاناً بعد أبيه لكونه كان محبوباً عند العلماء، فسافر إلى مصر في سنة ٩١٤ مظهراً أنه يريد تأدية فريضة الحج -وهو في الحقيقة غضبان. فقابله سلطان مصر بالإعزاز والإكرام. ثم إنه ندم وقدم لأ بيه المعذرة وطلب منه العفو، فعفا عنه وأعاده إلى ولايته (تكه) كما كان.

وفي سنة ٩١٥ طلب إبنه سليم والي (طرابزون) يومئذ التصريح إليه من والده بأن يحضر لزيارته، وكان شجاعاً مقداماً محبوباً لدى الجيش خصوصاً اليكيجريين، وكان غرضه من الزيارة أن يتحصل على ولاية العهد فمنعه أركان الدولة فلم يكترث.

وفي سنة ٩١٦ عبر البحر الأسود إلى قريم بروملي ومنها أراد التوجه إلى أدرنة لوجود والده وقتئذ فيها فمنعه أركان الدولة أيضاً وأعطوه وظيفة ولاية سمندرة ولم يرضوا بمقابلته لأ بيه.

وفي سنة ٩١٧ تردد سليم في أن يذهب إلى ولايته الجديدة منتظراً حدوث عائق يمنعه عن الذهاب إليها ليتوجه إلى أبيه. أما أركان الدولة فإنهم طلبوا سراً (أحمد إبن السلطان الأكبر وهو وقتئذ والي أماسيا) لإجلاسه بدل أبيه، فتصادف حصول بعض فتن في ولاية أخيه قورقود بتكه فقام منها إلى ولاية (مغنيسا). فظن الأشقياء أن السلطان مات وذهب لجلوسه بدله. فنصب من يدعى (شاه قولي) شيخ الطوائف الصوفية بولاية (تكه) الذي له ألوف من الدراويش نفسه سلطاناً وعثا فيها فساداً، فاتخذ سليم هذه فرصة لعودته إلى أدرنة، فأرسل الوزراء جيشاً من أربعين ألفاً لمنعه من الحضور، فقابلهم بشرذمة قليلة، ولقلة عساكره إضطر إلى الذهاب لجهة البحر الأسود فلحقه الجيش في وادي (جورلي) وأرادوا القبض عليه، فخلصه منهم فرهاد بك من خواص أتباعه الذي صار فيما بعد صهراً ووزيراً له ولقب بفرهاد باشا.

ثم ذهب سليم إلى جهة (كفه) أما أحمد فإنه قام من ولايته أماسياً بناء على طلب الوزراء المتقدم، ووصل إلى قرب (إسكدار)، فما كان من اليكيجريين إلا أنهم مانعوا في جلوسه للسلطنة، وهجموا على بيوت أكثر الوزراء وقتلوهم وأصروا على جلوس سليم. فتأثر السلطان من ذلك، ومما أتى أحمد في أثناء حضوره من الحركات الغير لائقة. ودعى سليماً إلى الحضور رسمياً. وفي يوم

السبت السابع من شهر صفر سنة ٩١٨ جاء سليم بموكب عظيم إلى السراية. وبعد تقبيل ركبتي والده وسماع وصيته أجلسه أبوه وألبسه العمامة المعدّة للبس السلاطين فبايعه أركان الدولة وأخوه (قورقود).

ثم قام السلطان بايزيد ذاهباً إلى سراية (ديمتوقه). وبوصوله إلى محل يسمى (سوكودرلي دره) مات بالطريق، وأحضرت جنازته إلى الأستانة. ودفن بالجامع الشهير باسمه الذي أنشأه هو، رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

* * *

(أسماء الملوك والأمراء المعاصرين للسلطان بايزيد وجهاتهم)

أوروبا

فرنسا	: شارلي الثامن ، ثم لوي الثاني عشر	ملوك .
إنجلترا	: هنري السابع ، ثم هنري الثامن	ملوك .
ألمانيا	: هنري السابع ثم هنري الثامن	أمبراطورية [(١)] .
أسقوجيا	: جان سنسوار	ملك .
بابا	: ألكساندر السادس ، ثم جول الثاني .	
أسبانيا ونابولي	: فردياندو	ملك .
بولونيا	: سيزسمند الأول	ملك .
المجر	: فردريك الثالث من قبيلة هابسبورغ	ملك .
الونديك	: روجه	رئيس جمهورية .
جنويز	: روجه	رئيس جمهورية .
أسوج	: جان	ملك .
الروسيا	: إيوان الثالث	حاكم .

آسيا

العجم	: الشاه إسماعيل الأول	شاه .
كردستان	:	
تركستان	: الأمير السلطان أبو سعيد .	
تترستان	:	
الهند	: نظام خان	حاكم .

أفريقيا

مصر	: المستنجد بالله الخليفة العباسي ، وسلطانها قايتباي الشهير.	
الحبش	: نبغ جونغ	ملك

* * *

(١) هكذا في الكتب.

[٩] السلطان سليم ياوز الأول

ولد المشار إليه سنة ٨٨٥ هجرية بأماسيا، وجلس سنة ٩١٨، وعمره ٤٦ سنة، في حياة أبيه كما سبق ذكره. وكان مشهوراً في شبوبيته بالشجاعة وحب الحرب، فلذا كان محبوباً لدى الجيش.

ولما جلس أبقى أخاه أحمد في ولايته على (أماسيا) و (سروخان)، فلم يرض لأخيه سليم المذكور بالسلطنة وتأخر عن المبايعة له، زاعماً أنه هو الأحق بها لكونه الأكبر سناً، وأرسل إبنه علاء الدين بعسكر إلى بروسة. فذهب إليه السلطان فولى هارباً بعسكره ثم اهتم بتجهيز جيش لمحاربة السلطان ولما بلغه أن السلطان عيَّن مصطفى بك إبن داوود باشا والياً على (أماسيا) و (سروخان) بدله، غضب وهجم بعساكره على مصطفى بك، وقبض عليه ولم يقتله، بل اتخذه وزيراً له. وكتب منشوراً في أنحاء المملكة بأنه هو السلطان بحكم السنّ. فمال إليه أغلب أمراء الأناضول، وصاروا يستهزؤون بمن كان في حزب السلطان سليم. فبلغ ذلك السلطان من علي بك إبن مالقوج، وعلاوة على ذلك مال بعض أمراء الجيش إلى أحمد، فاضطربت أفكار السلطان سليم، وكثرت الوشايات في حق أخيه قورقود وأولاد إخوته بأن كلا منهم يريد السلطنة، فأمر بقتلهم فقتلوا. ثم أحضر إبنه سليمان من ولاية (كفه) ونصبه قائماً مقامه بالأستانة. ثم قتل مصطفى باشا الصدر الأعظم وبعض من الأمراء بتهمة الميل إلى أحمد. وعين أحمد باشا إبن هرسك صدراً أعظم. فخاف أحمد، وعلم أنه لا يفوز فالتجأ إلى أخيه غير أنه قتل. قيل إنه سئل السلطان سليم بعد مدّة عن قتل أخيه أحمد مع التجائه إليه. فأجاب: بأن أعداء الدولة الخارجين كثيرون، فإذا ذهبت إلى الحرب استولت عليه شياطين الإنس والجن بالغش، فيعمل مثل ما عمل، ويترتب على ذلك إراقة دماء المسلمين، فقتل واحد لإحياء كثيرين أمر واجب والله أعلم.

وكان لأحمد ولدان مراد وعلاء الدين. فالأول هرب إلى العجم. والثاني إلى مصر. ولما عاد السلطان إلى أدرنة، جاء سفراء جميع الدول سنة ٨١٩ عدا سفير شاه العجم للتبريك، وتجديد المعاهدات لدولهم. وأرسل لمحمد الكراي خان قريم خلعة وبراءة وجعل جمركاً على البضائع الإفرنجية الواردة من الخارج بواقع المائة خمسة. فهو أول من أحدث ذلك.

* * *

محاربة الفرس الشهيرة

في سنة ٩٢٠ خابر الشاه إسماعيل شاه العجم ملك مصر قانصوه الغوري بما مضمونه، أن السلطان سليم ذو جبروت، وأن الدولة العلية في نموٍ مدهش، ودولة العجم ومصر مهددتان منها. وأخذ الشاه يستميل كثيراً من العشائر التابعة لنفوذ الدولة العلية. فأخبر أمراء الأناضول السلطان بذلك. فجهز جيشاً مركباً من كل صنف مقداره مائة وثمانون ألفاً، وأعلن الشاه بالحرب، وأقام ابنه سليمان بالأستانة مكانه.

وفي أثناء السير أمر الأمراء بدقة ملاحظة العسكر، وباشر ذلك بنفسه أيضاً. فرد كثيراً منهم وغالبهم من التجار قائلاً إنهم لا يتحملون أثقال السفر والقتال. وأبقى مائة ألف من أقوياء وشجعان العساكر. فوصل أذربيجان وفتح (باي بوردي) وكتب جواباً للشاه يدعوه إلى الحرب، فلم يقابله الشاه بل رد عليه جواباً بالإستهزاء، لزيادة غضب السلطان وتهوره حتى يتغوّل في داخل بلاد العجم ليقطع عليه خط الرجعة. فلما وصل الجواب مع السفير قتله السلطان بقصد إغضاب الشاه ليتعجله بمقابلته بالحرب، ورد جوابه بما يوجب شدة غضبه أيضاً. لكن الشاه لم يظهر اهتماماً بالمقابلة. فصمم السلطان على الذهاب إلى تبريز.

لكن أمراء العساكر ووكلاء الدولة أتعبهم طول السفر، وأثر فيهم تغيير الماء والهواء، فقالوا: إن التوغل في البلاد الأجنبية بهذه المسافات الطويلة ليس من السياسة في شيء. فأرادوا إرجاع السلطان عن هذا التصميم بطريقة حسناء فلم يقبل فحركوا بعض العساكر للعصيان فهجموا على خيمة السلطان بحالة تشويش وغوغاء. فقتل السلطان (همدم باشا)، فهابه الوكلاء والأمراء. وفي الحال أمر بقيام الجيش والسير إلى الأمام. ففتح قلعة بايزيد. ثم وصل إلى صحراء (جالد يران). وفي أثناء السير حصل من اليكيجريين مثل ما حصل من بعض العساكر من الغوغاء حتى إنهم رموا بضرب الرصاص على خيمة السلطان. فخرج من الخيمة، ونادى بينهم: أنه لا يمكن الرجوع بغير حرب مع العدو، وكل من يشعر منكم في نفسه بالجبن فليرجع، وأما أنا فلا بد أن أحارب العدو ولو وحدي. فلما رأوا منه هذه الجسارة الهائلة، وأنه نسبهم إلى الجبن إتحدوا على السفر بكل غيرة ونشاط، فساروا حتى وصلوا إلى جبل (جالديران)، ونصبوا به الخيام، وعملوا الاستحكامات اللازمة. وأرسل للشاه جواباً بألفاظ توبيخية محرضة على المقابلة للحرب.

ثم بلغه أن الشاه آت بجيشه فرتب عساكره صفوفاً، وجعل (سنان باشا) سرعسكر الأناضول في الجناح الأيمن، (وحسين باشا) سرعسكر روملي على الجناح الأيسر، وهو ووزراؤه في القلب. واليكيجريين في الوسط فنزلوا من الجبل إلى الوادي بهذه الهيئة.

أما الشاه إسماعيل فإنه رتب عسكره صفوفاً أيضاً، فجعل (محمد خان) والي ديار بكر وبغداد ومعه بعض أمراء على الجناح الأيسر أمام عساكر الأناضول، وآخرين على الجناح الأيمن أمام عساكر روملي، وهو في الوسط بأربعين ألفاً خيالة من ذوي الملابس التي بالزرد.

وفي صباح يوم الأربع ثالث شهر رجب سنة ٩٢٠، إشتبك الحرب بضرب البنادق أولاً. وبعد ساعة حصل هجوم من الأجنحة، فلما رأى ذلك حسن باشا رئيس الطوبجية أمر باستعمال ضرب المدافع البطاريات بحركة شديدة. فبدأ الإضمحلال في العساكر قيادة محمد خان المذكور. وبعد برهة قتل هو ووالي بغداد، وظهر الإنكسار في الجناح الأيسر من عساكر العجم. فلما رأى الشاه ذلك هجم بشدة مع الأربعين ألفاً المزردين، فظهرت علامات الإنكسار مراراً في عساكر روملي. وأخيراً وقع الشاه جريحاً، فأنقذه أحد أتباعه المدعو خضر، وأركبه على فرسه، وفر هارباً إلى تبريز وآنهزم جيشه. فأرسل السلطان أحمد باشا ابن دوقة كين إلى تبريز لإعطاء الأهالي الأمان. فلما بلغ ذلك محافظها أخذ ما قدر عليه من الأشياء النفيسة من خزينة الحكومة وهرب. ثم وصل السلطان إليها، ودخلها بموكب عظيم.

ثم أراد أن يقضي مدّة الشتاء هناك لأجل استئناف القتال في الربيع القادم بقصد إعدام الشاه ومحو المذهب الرفضي، لكن لم يوافقه الوزراء والأمراء وعصاة اليكيجريين على ذلك. فأخذ ألفاً وخمسمائة نسمة من أرباب الحرف المتنوعة المجلوبين من خراسان وسائر بلاد فارس إلى تبريز، وأرسلهم مع أشياء كثيرة ذات قيمة إلى الأستانة.

وبعد أسبوع قام بجيشه وعبر نهر أرس. ثم وصل إلى (روانة). وكل من قابله في الطريق من الأشقياء والعصاة جازاه بما يستحق بجريمته. ثم فتح قلعة (ماين)، وعزم على فتح بلاد الكرج، ووصل (جوبان كبريسي) [١]، فقابله حاكمها بهدايا فاخرة وطلب عدم مساس بلاده فقبل منه ولم يتعرض له ولا لبلاده بسوء. ثم عاد إلى أماسيا وأراد أن يشتي هناك فعصى اليكيجريون أيضاً

(١) معناه كوبري الغنام.

فنسب السلطان ذلك إلى أحمد باشا إبن دوقة كين فقتله. ثم آستولى على الحكومات المستقلة تحت حماية العجم مثل حكومة (آل رمضان) و (أولاد ذو القدرية) و (أمراء الأكراد) و (شروان) وغيرها. ثم عاد إلى الأستانة، وجازى كثيرين ممن حصل منه عصيان في السفر من العساكر اليكيجريين.

وفي سنة ٩٢١ إهتم بزيادة وتنظيم القوّة البحرية لتعادل قوّة دولتي الونديك وأسبانيا، وعند وصوله إلى الأستانة وردت له الهدايا من الدول المسيحية المجاورة مثل الونديك والمجر وأسبانيا وإيطاليا.

وفي هذا العام برىء الشاه إسماعيل من جرحه وحاصر مع سرداره قره خان (ديار بكر) فقابلهما محمد باشا قبابيقلو[١] بجوار جبل (وأرجيش) فوقعت محاربة عظيمة.

وفي أثناء ذلك استولى خسرو باشا أمير أمراء قرمان على (خربوت). ثم لحق محمد باشا المذكور فاشتد القتال، وآنهزم عسكر العجم. وكان السلطان قام بجيشه من الأستانة للذهاب إلى هناك.، فبوصوله إلى صحراء كماح جاء الخبر بانتصار محمد باشا وخسرو باشا، فأرسل لمحمد باشا المذكور وملاّ إدريس خلعة فاخرة وجوائز، حيث كان للثاني يد بيضاء في النصرة.

* * *

(١) ذو الشنب الكثيف.

محاربة السلطان الغوري بمصر

عزم السلطان على الإنتقام من ملك مصر الغوري، نظراً لما شاع من مخابرة الشاه معه في العام الماضي كما تقدّم.

في أوائل جمادى الأولى أشاع السلطان أنه عازم على السفر لمحاربة العجم فجمع خمسين ألفاً، وأقام إبنه سليمان مقامه في أدرنة، وبيري باشا في الأستانة، وأحمد باشا إبن هرسك في بورسة. وأرسل سفراء الى ملك مصر يدعوه للسفر إلى الشرق يموّه بذلك على بلاد العجم.

أما الغوري فقيل: إنه أبدى للسفراء بعض تحقير، ثم أظهر لهم حسن المعاملة. وقال: إنه ما كان يريد من حسن-علاقته مع الشاه إسماعيل إلاّ التوسط بينه وبين السلطان في تأليف القلوب ومحو النفور، وأرسل بهذا المعنى جوابا للسلطان. فلم يقبل منه هذا الإعتذار، بل جدّ في السير حتى وصل إلى حلب.

وفي سنة ٩٢٢ قابله الغوري بعساكره في مرج دابق، وفي بعض النسخ: وابق ووقع الحرب وآشتدّ لهيبها. ثم وقع الغوري قتيلاً، وآنهزم عسكره. فدخل السلطان مدينة حلب، وولى عليها قره جه باشا ثم ضبط حما وحمص بالسهولة. ثم دخل دمشقا. وآنقاد له الدروز والعربان ومشايخهم. وآستولى على قلاع نابلس والقدس وغزة، ومنها إلى السويس.

وأما أمراء مصر فإنهم انتخبوا طومان باي ملكاً على مصر، فاجتهد وأخذ في تجهيز عساكر لطرد السلطان سليم عن مصر والشام ووقعت الحرب، وآنهزم طومان وعساكره.

وفي سنة ٩٢٣ ذهب السلطان إلى مصر فقابله طومان باي ثانياً بخمسين ألفاً من الخيالة، وآستمرت الحرب أسبوعاً بالمرامات. ثم أرسل السلطان سنان باشا بفرقة من العساكر خدعة لاحتلال مصر من جهة، وإشتغال المصريين عن مواقع الحرب من جهة أخرى، فقبل وصوله قتل وعين بدله يونس باشا صدرا أعظم.

ثم اشتدت الحرب وآنهزم عسكر مصر إلى مصر العتيقة. فدخل عساكر السلطان سليم مصر، فصارت نساء مصر ترميهم بالأحجار والحدايد والمثقلات من الشبابيك إنتقاما. قيل: إن القتلى من سكان مصر في هذه الواقعة يبلغون خمسين ألفا والله أعلم.

ثم إن طومان باي لم يقطع الأمل من انتصاره على السلطان سليم، فجهز في الجيزة جيشاً مركباً

من الشراكسة والعرب. فأرسل إليه السلطان يونس باشا الصدر الأعظم بعشرين ألفاً وأربعين مدفعاً. فاشتبكت الحرب بشدّة عظيمة، وٱستمرت بعناد من الطرفين حتى لم يبق من العساكر العثمانيين سوى ستة آلاف، ومن عساكر طومان باي أربعة آلاف ولم ينهزم طومان باي حتى أخذ أسيرا وصلب في باب زويلة.

وذكر في بعض تواريخ مصر أن طومان باي المذكور رأى النبي ﷺ في المنام. وقال له: يا طومان، إنك ستكون عندنا غدا فقام في الحال وذهب إلى السلطان وسلم له نفسه فقتله صلبا. والله سبحانه وتعالى أعلم.

وبموت طومان باي إنقرضت دولة الشراكسة بمصر غير أن السلطان ولى على مصر خيري بك الشركسي والي حلب سابقا لمدّة حياته، وذلك أن السلطان سليم لما وصل قبل الحروب المصرية المذكورة إلى حلب ذهب إليه واليها خيري بك المذكور، فقال له: إني أكره أن أحارب المسلمين سواء كانت مصر لك أو للسلطان الغوري، فأنا لا لك ولا عليك. فانسر منه السلطان سليم جدّاً، وقال له: إني سأوليك على مصر لمدّة حياتك. فوفاء لهذا الوعد عينه كما تقدّم.

وقد ذكر في بعض تواريخ مصر أن السلطان سليم لما فتح مصر واستولى عليها وعين خيري بك والياً عليها أراد أن يركب فرسه وإذا بخيري بك، قال له مستفهماً: هل تقبل أولاد الشراكسة في العسكر، وتبقي لهم أموالهم وعقاراتهم بمصر وملحقاتها كما كانوا أم لا. فقال له: نعم. وكيف نأخذ أموالهم ونمنع أولادهم من الجيش أليسوا بمسلمين. فقال الصدر الأعظم: ذهبت أتعابنا سدى. فأمر بقتله في الحال فقتل، ورجل السلطان اليسرى في الركاب واليمنى على الأرض. ثم ركب جواده وسار بمن معه من أمراء العثمانيين وكبراء مصر المشيعين له وهو يحدثهم ويحدثونه حتى وصل الخانقاه السريقوسيه (الخانكه). فتجاسر بعضهم باللطف، وقال للسلطان: إننا لم نفهم ذنباً للصدر الأعظم يستوجب قتله. فقال: إننا نحب أن نوفي بالوعود فعينا خيري بك والياً على مصر وفاء للوعد، وتركنا للشراكسة أموالهم حيث لا تحل لنا، وقبلنا أولادهم في الجيش كسائر المسلمين، فأراد الصدر الأعظم أن يوقعني في الذنوب. وأما قتله فهو خوفاً من أن يكرر عليّ ذلك ملحاً، وربما أثر عندي فأقع في هذه الذنوب والله أعلم.

وقد حضر إلى السلطان سليم شريف مكة المكرمة المسمى (أبا التمي) إبن محمد أبي البركات للتبريك، وسلم له ما كان بيده من الآثار الشريفة والمخلفات فقبلها منه. ثم جاء إليه سفير شاه

العجم طلباً للصلح، فلم يقبل منه بل سجنه. وفي أثناء هذه الحروب حصلت تعديات كثيرة من أوروبا على روملي، فأخذ السلطان سليم المتوكل على الله آخر خلفاء العباسيين بمصر معه وعاد للأستانة.

وفي سنة ٩٢٤ ظهر من يدعى الشيخ جلال، وادّعى أنه مهدي آخر الزمان، واتخذ له مغارة في جهات (بوزوق) و (تقات)، وجمع ألوفاً من الأوباش. فأرسل السلطان إلى والي مرعش بمحوه فقتله، وشتت شمل أعوانه. ثم ظهر في أماسيا شخص مجهول وادّعى أنه مراد بن أحمد أخي السلطان سليم وادّعى السلطنة لنفسه فقتل.

وفي سنة ٩٢٥ عزم السلطان على فتح جزيرة رودس، لكنه لم يمهله الأجل المحتوم، بل مرض وتوفي في شهر شوال سنة ٩٢٦، رحمه الله تعالى رحمة واسعة. ولم يكن له أولاد غير السلطان سليمان.

* * *

(أسماء الأمراء والملوك المعاصرين للسلطان سليم الأول وجهاتهم)

أوروبا

فرنسا	:	شارلي الثامن، ثم لوي الثاني عشر، ثم فرانسوا الأول. ملوك.
إنكلترا	:	هنري السابع، ثم هنري الثامن.
المجر	:	مانياس.
دانيمارك	:	كرستيان الثاني.
أسكوجيا	:	جاك تتوار الخامس.
ألمانيا	:	الأمبراطور فردريك، ثم ماقسمليان.
بوهميا	:	لادسلاس السادس.
بلونيا	:	سيزسموند الأول.
الروسيا	:	إيوان الثالث.
برتغال	:	أمانويل.
غرناطة	:	أبو الحسن.
البابا	:	أنيوسان ألك ساندر إيون العاشر.
أسبانيا	:	
سجيليا	:	
ساردونيا	:	شارلكان الخامس.
فلمنك	:	
مكسيقا	:	

آسيا

شاه العجم	:	الشاه إسماعيل.
الهند	:	نظام خان.

أفريقيا

مصر	:	قانصوه الغوري الشركسي، ثم طومان باي، ثم بعد قتله خيري بك.

* * *

[١٠] السلطان سليمان القانوني الأول

ولد المشار إليه في أول شعبان سنة ٩٠٠. وتولى في ٤ شوال سنة ٩٢٦. واجتهد أول جلوسه في نفي الزنادقة والمبتدعين في الدين.

وفي سنة ٩٢٧ عصى (جانبرد) غزال والي الشام، فأرسل إليه السلطان فرهاد باشا إمداداً لقره جه باشا محافظ حلب، فاشتبك الحرب مراراً بالقرب من حلب، وأخيراً إنهزم عسكر غزال العاصي بعد أن قتل، وتولى بدله على الشام إياس باشا.

أما فرهاد باشا فإنه ذهب إلى حدود العجم لمقابلة عساكر الشاه الموجودين هناك.

وفي هذا العام تداخل ملك المجر في أمور بلاد بونسة فأرسل إليه السلطان سفيراً عالياً ليفهمه ما هو اللازم لأمور الصلح الدائم، فما كان من ملك المجر إلا أنه قتل السفير. فغضب السلطان غضباً شديداً، وأرسل أحمد باشا ومعه عساكر روملي وهو على أثره، فبوصوله إلى صحراء صوفية أرسل باليا بك والي بوسنة إلى بلاد خروات، وخسرو باشا محافظ سمندرة إلى بلغراد ومحمد بك بن ميخال إلى تران سلوانيا.

أما أحمد باشا فإنه استولى على حصار (بوكردلن). واستولى الصدر الأعظم (بيري باشا) على قلعة (الزمين) وجهات (سرم) بالقوة. وأما السلطان فإنه حاصر (بلغراد) فهدم إستحكاماتها بضرب الألغام. وبعد شهرين ونصف من محاصرتها فتحها في ٢٦ من شهر رمضان سنة ٩٢٧، وألحقت بولاية سمندرة، وتعين لولايتها والي بوسنة، ثم فتحت قلاع (اسلان قش) و (كونك) و (ايق) و (ايرشوه) وغيرها. ثم عاد السلطان إلى الأستانة وقبل وصوله جاءه خبر وفاة ولديه مراد ومحمود بمرض الجدري.

وفي سنة ٩٢٨ ظهر باليمن شخص يسمى إسكندر سعى في الأرض فساداً. فعزم السلطان على إرسال من يؤدبه، وإذا برجال الخارجي المذكور قطعوا رأسه وبعثوه إلى الأستانة.

وفي هذا الوقت كانت جزيرة رودس تابعة لسلطة البابا، وكانت مجمعاً للقرصان يتسلطون على

قطع طرق البحر وسلب أموال المارين من التجار والحجاج. فعزم السلطان على فتحها لأمن الطريق. فأرسل مصطفى باشا الصدر الأعظم بسبعمائة سفينة متنوعة بمهمات حربية، وعلى أثرهم أسطول الدولة فدخل إلى مينا أوكوزبروني [١]. ثم عزل مصطفى باشا المذكور وعين بدله للصدارة العظمى (أحمد باشا)، فبعد محاصرتها ستة أشهر فتحت في ٦ صفر سنة ٩٢٩. وأعقب ذلك وفاة خيري بك الشركسي والي مصر في سنة ٩٢٣، وعين بدله مصطفى باشا المذكور. ثم استولى السلطان على قلاع (إستانكوي) و (بودروم) و (لندوس) و (تختالو) و (سويتاك). ثم عزل مصطفى باشا المذكور عن ولاية مصر، وولى بدله أحمد باشا الذي كان سردارا في حرب مجر وصدراً أعظم الآن. وعين بدله للصدارة إبراهيم باشا أحد القرناء.

أما أحمد باشا المذكور فإنه عصى وخطب بإسمه، وضرب النقود برسمه، وأعلن إستقلاله. فأرسل إليه السلطان إياس باشا الوزير الثاني بعساكر الأناضول. فلما وصل إلى صحراء كوتاهيه، وصل رأس أحمد باشا المذكور مقطوعاً فعاد إلى الأستانة.

وفي سنة ٩٣٠ ذهب إبراهيم باشا الصدر الأعظم إلى مصر لوضع إدارتها على محور النظام. وأقام مقامه إياس باشا. وبعد إتمام هذه المأمورية ولى سليمان باشا على مصر وعاد إلى الأستانة. وفي هذا العام توفي الشاه إسماعيل، شاه العجم، وتولى بدله الشاه (طهماسب).

وفي سنة ٩٣١ هجم بعض اليكيجريين على بيتي الصدر الأعظم والدفتردار [٢]، فأعدم السلطان باليا أغا كتخدا مصطفى باشا وحيدر شلبي رئيس الكتاب المحركين لهذا الفساد، وأدّب رئيس اليكيجريين. وأحضر فرهاد باشا الوزير الثالث ومحافظ سمندرة للأستانة، وأعدم لما ظهر منه من الشقاوة والفساد. ثم وجه السلطان إهتمامه بإنشاء مراكب حربية بكثرة في ترسخانة البحر الأحمر لحفظ السواحل الهندية والحجازية، وأرسل لذلك مأموراً عالياً.

وفي هذا العام إتحدت دولة العجم مع ملك المجر ضدّ الدولة العلية (الإتفاق (١٤))، فغضب السلطان وجمع عساكر الأناضول وروملي. وقام في إحدى عشر رجب سنة ٩٣٢ للإنتقام من المجر. وكان عدد الجيش مائة وسبعين ألفاً. وطلب سعادة كراي خان قريم للحضور لديه خوفاً من أن يقصد سوءاً ببلاد الدولة في غياب السلطان. وكتب فرماناً لحاكمي أفلاق وبغدان يأمرهما بالإقامة

---

(١) معناه أنف الثور.
(٢) ناظر المالية.

على الحياد. فلما وصل إلى بلغراد أنشأ كباري على نهر صاوى حتى تمكن العسكر من العبور إلى بدون، ثم آستولى على قلاع (راجه) و (وارادين) و (أبلوق) و (أرك) و (غراغوربجه) و (جروبك) و (برقاص) و (دمتروقجه) و (توكاى) و (بوادخ) و (براجه) و (دوكن) و (صوتين) و (القوار) و (رادار). ثم ذهب الصدر الأعظم إبراهيم باشا بستين ألفاً إلى صحراء (مهاج)، فقابله جيش المجر البالغ عدده مائة وخمسين ألفاً. فلما رأى كثرة جيش العدو إستعمل ضرب المدافع بشدة حتى حفظ مركزه. وإذا بالسلطان لحقه بميدان الحرب بمن معه، وأظهر على الأعداء صولته المعلومة وشجاعته المشهورة. فرغماً عن المدد العظيم الذي أتى للأعداء من حكومة خروات، إنهزم المجريون بعد أن قتل منهم ثلاثون ألفاً. وهرب ملكهم. وفي أثناء هروبه وقع فرسه به فمات.

وفي ثاني يوم وضعت خيام السلطان بالصحراء المذكورة، وأجريت رسوم التهنئة بالفتح على حسب قاعدتهم وقتئذ، ووزع على العساكر الإحسانات العظيمة، وحررت للجهات فرمانات البشرى. ثم قام بجيشه وسار إلى (بودين) عاصمة المجر فطلب منه الأهالي الأمان، وقبلوا أن يكونوا من رعاياه، فأجابهم السلطان لطلبهم. ثم آستولى بغير قتال ولا حصار على مدينة (وارادين) وقلاع وقصبات (بشنه) و (مكدين) و (باجقه) و (تتل) و (باج) و (بسر) و (سينا) و (بانقه) و (بيرلك) و (قيني) و (فلك حاجي) وجهات كثيرة. ثم نصب (بانوس يانى جابوليه) من سلالة امراء مملكة أردل ملكاً على المجر، وكان مسيحياً. وعاد إلى الأستانة.

وعقب ذلك عصت عشائر التركمان وأمراء ذو القدرية بجهة قرمان. فأرسل السلطان إليهم (خرم باشا) أمير أمراء قرمان فشتت شمل العصاة.

وأعقب ذلك خروج من يدعى (قلندر) إبن الحاج بكتاش[1] الشهير في وجه أماسيا. وتغلب على أمرائها وأمراء الأناضول. فذهب إليه الصدر الأعظم إبراهيم باشا بجيش جرار فحاه هو وأعوانه على قلاع (يابجه) و(بوشدغة) و(صوقول) وغيرها.

وفي سنة ٩٣٤ هاجم فردينانوس أرشيدوق دولة أوستريا على قلعة بودين، وهرب بانوس ملك المجر إلى أردل. فلما سمع بذلك السلطان ذهب بجيشه في سنة ٩٣٥ إلى بلاد المجر، فهرب

(١) هو من أشهر الصوفية ببلاد الأناضول، والأتراك يعتقدون ولايته كاعتقاد المصريين بسيدي أحمد البدوي. ويزعم اليكيجريون أنهم على طريقته. ونحن نجهل حقيقته، ولكن أكثر الزاعمين أنهم على طريقته ليسوا في شيء من الصلاح والاستقامة الدينية.

الأرشيدوق خوفاً من السلطان، فعاد بانوس وأجلسه السلطان ثانياً كما كان. فبناء عليه ذهب الصدر الأعظم بثلاثمائة ألف عسكري إلى ويانة عاصمة أوستريا وحاصرها.

وفي أثناء ذلك ثار أحمد بك والي عزيز من ملحقات أدرنة، وإبن أخيه السيد بك ومن معهما من الأشقياء، بتحريك شاه العجم. فأرسل السلطان إليهم بيرى بك فشتت شملهم، وقتل منهم نحو الثمانمائة. وأعقب ذلك حصول ثورة من الحلب، وقتلوا حاكمها قره قاضي فنفى المحركين. وأنعم السلطان بوظيفة سر عسكر على الصدر الأعظم إبراهيم باشا علاوة على وظيفة الصدارة، وأرسل له فرماناً ممتازاً بذلك.

وفي سنة ٩٣٦ إشتد البرد في فصل الشتاء، فاضطر الصدر الأعظم إلى ترك محاصرة ويانا، وأرسل العساكر إلى بلادهم. وختن السلطان أولاده الثلاث: مصطفى، ومحمد، وسليم.

وفي سنة ٩٣٧ جاءه السفراء من الروسيا ومن سائر الدول بهدايا كثيرة، ومن أوستريا أيضاً بطلب بعض تكاليف تختص ببلاد المجر فلم يلتفت إلى طلبات أوستريا. فبناء عليه حاصر الأرشيدوق السالف الذكر قلعة بودين واتفق معه جميع الألمانيين (الإتفاق (١٥)). فاهتم السلطان بالتداركات الحربية. وفي هذا العام ولد جهانكير إبن السلطان.

وفي سنة ٩٣٨ ذهب السلطان إلى أوستريا بجيش يزيد عن المائتي ألف، وأرسل بحراً أحمد بك القبودان بثمانين سفينة. فأسرع أمراء بلاد خروات إلى الإلتجاء إلى الظلة السلطانية.

وفي سنة ٩٣٩ فتح قلاع (قيونى) و(برزنجة) و(سلواد) و(شرويل) و(وقدواد) و(بابروجة) وغيرها بعد قتال متعدد. ولم تثبت عساكر الألمان ولا أوستريا، فاستعانوا بدولة أسبانيا بحراً لمشغولية السلطان وقبول الصلح. ثم طلبوا الصلح، فقبل منهم السلطان، ومضمونه أن أوستريا لا تتعدى مرة أخرى، وأن السلطان كذلك. وبعد أن استرد من أسبانيا قلعة (ورون) و(مورة)، عاد إلى الأستانة، وعين إبنه مصطفى والياً على صاروخان، وجعل إياس باشا الوزير الثالث وزيراً له.

وفي سنة ٩٤٠ لم يكتف الشاه طهماسب شاه العجم بإغرائه لأحمد بك وإبن أخيه السيد بك ومن معهما ضد الدولة في جهة أدرنة كما تقدم، بل حاصر بغداد فأرسل إليه السلطان الصدر الأعظم إبراهيم باشا بجيش عظيم. فبوصوله إلى حلب دخل فصل الشتاء، فأقام هناك مدة الشتاء.

وفي أثناء ذلك جاء خير الدين بك حاكم الجزائر بعشرين سفينة إلى الأستانة، وطلب إلحاق بلاده بممالك الدولة فولاه السلطان على الجزائر وأنعم عليه برتبة باشا وسلم له مائة سفينة.

وأما الصدر الأعظم إبراهيم باشا فإنه إستولى من بلاد العجم على قلاع (وادي الجوزا) و (أخلاط) و (أرجيسى) و (وأوينك). ثم قام السلطان من الأستانة إليه، فبوصوله إلى أرضروم، ترك الصدر الأعظم الجيش وآستقبله.

وفي سنة ٩٤١ قام الشاه طهماسب من خراسان، وجاء إلى المدينة السلطانية، فذهب إليه السلطان، فهرب منه. ولما دخل فصل الشتاء إكتفى السلطان بهذا التأديب، وسحب جيشه من هناك. ولما قرب على بغداد من ملحقات بلاد العجم، هرب حاكمها محمد خان بخواص رجاله فسلم الأهالي مفاتيح مدينة بغداد للسلطان. وكذلك سلم أهالي مدائن (شهريان) و (هارونيه) و (أقوك) وقلاع (كركوك) و (الحلة) و (نجف).

وأما الشاه فإنه عاد وحاصر (وانا) فذهب إليه السلطان فلما قرب منه هرب فاستولى على جهات (لودستان) و (كالحوزستان) و (مشعشع) وغيرها.

وفي سنة ٩٤٢ طلب الشاه الصلح فقبل السلطان. ومضمونه الكف عن الحرب، وإبقاء ما آستولى عليه السلطان له. وعاد إلى الأستانة فدخلها بموكب فاخر. ثم غضب السلطان على إبراهيم باشا الصدر الأعظم، فأمر بقتله فقتل. ولم أقف على السبب. وعين بدله أياس باشا.

وفي سنة ٩٤٣ حصل إختلال في بلاد الألبانيين، فذهب السلطان إليها.

وفي سنة ٩٤٤ أدب العصاة، وأعاد بها الأمن، ومات أياس باشا بمرض الطاعون. وعين بدله للصدارة لطفي باش. وبعد مدّة وجيزة عزل، وعين بدله سليمان باشا. وفي هذا الحين إعتدت دولة الونديك على أسطول الدولة، فغضب السلطان، وذهب إليها وآستولى على بعض قلاع (وقرى)، ثم عاد إلى الأستانة.

وفي سنة ٩٤٥ إتفق أمير بغدان مع البابا واسبانيا والونديك (الإتفاق (١٦))، وتسلطوا على بلاد الدولة. فذهب السلطان بجيشه إلى بغدان فتشتت شمل عساكر الأعداء. وهرب حاكم بغدان فولى بدله غيره ولم أعرف إسمه.

وفي هذا العام طلب (جهان بناه) ملك الهند إعانة من السلطان فأرسل إليه سليمان باشا

بجملة سفن حربية. وأرسل أيضاً خير الدين باشا والي الجزائر بباقي أسطول الدولة للإنتقام من الدول المتفقة مع حاكم بغدان السالف ذكره. فقابله الأميرال أندريه دوريه المشهور بأساطيل الدول المتفقة، فاقتتلوا قتلاً هائلاً حتى آحمر البحر من كثرة الدماء. وأخيراً إنتصر خير الدين باشا، وآستولى على جملة مراكب وجزائر (أسكيروس) و (اسكنوس) و (اندره) و (كربه).

وفي سنة ٩٤٦ تحصن أندريا الأميرال المذكور في قلعة (نوه) فذهب إليه خير الدين باشا فدمرها وأسر من فيها. فأرسلت دولة الونديك في سنة ٩٤٧ سفراء بطلب الصلح على أن تدفع ثلاثمائة ألف ذهب، علاوة على ما آستولى عليه السلطان في أثناء الحرب فقبل منها وتم الصلح.

وفي سنة ٩٤٨ توفي بانوس ملك المجر المنصوب من قبل الدولة كما تقدّم فتداخل دولتا أوستريا وألمانيا في أمر بلاد المجر (الإتفاق (١٧)). وهجما عليها فأرسل السلطان الوزير الرابع محمد باشا وخسرو باشا والي روملي براً، وخير الدين باشا بحراً، وتوجه هو على أثرهما. فبوصوله إلى هناك طرد الأعداء، وأدب رؤساء العصاة من المجر المنضمين إلى الدولتين المذكورتين. ثم وجد أن إبن الملك المتوفى قاصراً فأجلسه ملكاً ونصب مارتيشوز وصياً عليه لحين بلوغ رشده. وآستولى على قلعتي (اسطبورد) و (زنشوه). وأهلك خير الدين باشا كثيراً من عساكر ألمانيا، ثم عادوا إلى الأستانة.

وفي سنة ٩٤٩ أرسل ملك أوستريا سفير إلى الأستانة، يطلب أن يكون ملكاً على المجر أيضاً. ويدفع سنوياً مائة ألف ذهب ويركو. وأعقب ذلك أنه هجم على قلعة بودين وحاصرها. فغضب السلطان وذهب إليه. وهذه عاشر دفعة إلى بلاد المجر، فبوصوله هرب محاصروا القلعة، فدخل سنة ٩٥٠ في بلاد أوستريا. وبعد قتال إستولى على قلاع (البوسيقلوس) (واسترغدن) و (استونى) و (بجوى) ثم عاد إلى الأستانة.

وفي سنة ٩٥١ مات محمد إبن السلطان والي مغنيسا، وأحضرت جنازته إلى الأستانة. وفي هذا العام إلتجأت دولة فرنسا إلى السلطان في طلب إمداد، فأرسل خير الدين فأنقذها، وآستولى على قلعة (مسنيا) ومدينة (نيسا).

وفي سنة ٩٥٢ إستولى على قلعتي (ويشغران) و (حبطوان). ثم حصل الصلح مع أوستريا بترك الحرب ثمانية عشر شهراً.

وفي سنة ٩٥٣ حصلت المعاهدة بينها وبين الدولة على أنها تدفع للسلطان ثلاثين ألف ذهب بواسطة أمبراطور ألمانيا ودولة فرنسا وجمهورية الونديك مظهرين الإتفاق بينهم.

وفي سنة ٩٥٤ هرب ميرزا القاضي أخو طهماسب من أخيه المذكور، وآلتجأ إلى السلطان شاكياً من ظلم وغدر أخيه، وأنه لا يليق أن يكون شاهاً. فبناء عليه هجم الشاه المذكور على بلاد الدولة سنة ٩٥٥. فغضب السلطان وسلم عساكر الأناضول لميرزا القاضي في أخذ بلاد العجم من أخيه وضمها إلى بلاد الدولة، ويكون هو الشاه من قبل الدولة، فذهب إليها ودخلها.

وفي سنة ٩٥٦ وصل السلطان أيضاً إلى تبريز وآستولى على بلاد قارص وبايزبد وغيرهما ثم عاد إلى حلب لتمضية فصل الشتاء هناك.

وفي سنة ٩٥٧ عاد السلطان إلى الأستانة. أما ميرزا القاضي فإنه لم يحسن السياسة الحربية، بل مكن فيه الأعجام فقتلوه، وعادت العساكر العثمانيون.

وفي سنة ٩٥٨ اعتدت دولة أوستريا على البلاد الإسلامية المجاورة لها. فأرسل السلطان محمد باشا أمير أمراء روملي بجيش، فعبر به نهر الطونا، وتغلب على الأعداء. وآستولى على قلاع (جنات) و(ليبوه) و(بجكرك) و(صولنق) ومدينة (طمشوار). فاتحد فرديناند ملك النمسا ولوي ملك بلونيا (الإتفاق (١٨)) وجمعا عساكر كثيرة وتحاربا مع محمد باشا المذكور، وآستردا قلعة ليبوه. ولما بلغ السلطان ذلك عين أحمد باشا الوزير الثاني سرداراً على بلاد المجر، وأرسله بجيش عظيم.

وفي سنة ٩٥٩ هجم على الأعداء المتفقة، وآنتصر عليهم، واسترد القلعة المذكورة، وآستولى على أغلب أموال وذخائر الأعداء. وفي أثناء ذلك إستولى طهماسب شاه العجم على بلاد أرضروم لخلوها من العسكر الكفاية. فعين السلطان أحمد باشا المذكور سرداراً على الشرق ومضى هو على أثره.

وفي سنة ٩٦٠ وصل إلى يكى شهر وأرسل إبنه بايزيد محافظاً على أدرنة و أخذ معه إبنه سليماً. وفي أثناء ذلك عزل السلطان رستم باشا عن الصدارة، وعين بدله أحمد باشا. قيل: إن السبب في ذلك هو أنه أورى السلطان أن إبنه مصطفى مغرم بحب السلطنة لنفسه، ويوشك أن يؤامر السلطان فأثر كلامه على أفكار السلطان خصوصاً وهو ذاهب إلى الحرب فأمر بقتله فقتل. ثم ندم لحصول الشك عنده فأدّبه بالعزل. وأعقب ذلك وفاة إبنه جهانكير، فحزن عليها كثيراً، ثم أتم سفره فوصل إلى صحراء قارص. ثم أرسل للشاه جواباً يدعوه به للحرب فلم يحضر.

وفي سنة ٩٦١ أغار على عشائر (شرابخانة) و (نيل فراق) و (بيك أرون) حتى وصل إلى (أسراباد) فلم يقابلهم الشاه، فأرسل الصدر الأعظم له جواباً يدعُوه للحرب.

وفي سنة ٩٦٢ أرسل الشاه سفيراً يطلب الصلح، ويترك قلعة قارص وما حولها من البلدان للدولة العلية، فقبل منه السلطان، وعاد إلى الأستانة.

وفي سنة ٩٦٣ إعتدت أسبانيا وإيطاليا (الإتفاق (١٩)). فأرسل السلطان الأميرال طورغود إلى سواحلهم فضربها وعاد بالغنائم منصوراً. ثم تسلط أسطول دولة البرتغال على سواحل بحر عمان فاضطر السلطان لإرسال الأسطول العظيم الموجود بالبحر الأحمر، فدخل في مينا مسقط والهرمز، وطرد أسطول البرتغال من هناك كلياً. وفي أثناء ذلك إعتدت إسبانيا على بلاد الغرب بضرب سواحلها فأرسل السلطان بياله باشا الأميرال المشهور ومعه صالح باشا فطردا الأسبانيين من سواحل البربرية.

وفي سنة ٩٦٤ إعتدى المستحفظون الألمانيون الموجودون بالحدود، فقابلهم المستحفظون العثمانيون بالمثل. ثم تغلب العثمانيون ودخلوا في الحدود، واستولوا على بعض قلاع. فاعتذر الأمبراطور فردينانْدوس وطلب الصلح على أن يدفع سنوياً مائتي ألف ذهباً بشرط أن يكون ملكاً على بلاد المجر وأردن. فقبل السلطان الأول وهو الصلح البسيط بعدم الحرب، ولم يقبل الثاني أي أخذ المائتيْ ألف الذهب وإعطاء المملكتين المجر والأردن.

وفي سنة ٩٦٥ أغرى بعض المفسدين أعداء الدولة من جهة إيران بايزيد إبن السلطان على أخذ ولاية صاروخان من أخيه سليم، فجمع عسكره وحارب أخاه. ثم آنهزم وهرب سنة ٩٦٦ والتجأ إلى شاه العجم. وسكن بمدينة تبريز خوفاً من أبيه.

وفي سنة٩٦٧ قتل شاه العجم بايزيد المذكور وأولاده الخمسة، فأحضروا جنازاتهم إلى سيواس.

وفي هذا العام إعتدت أسبانيا وآستولت على جزيرة صربة.

وفي سنة ٩٦٨ ذهب بياله باشا والرئيس طورغود فشتتا شمل سفن أسبانيا، وأسرا أميرالها وإبن أميرال آخر واستردا الجزيرة. ثم عاد إلى الأستانة.

وفي سنة ٩٦٩ تحررت المعاهدة في مدينة فرانكفورت بين الدولة وأوستريا بدفع ثلاثين ألفاً ذهباً ويركو سنوياً من طرف الثانية.

وفي سنة ٩٧٠ أرسلت دولتا إيطاليا وبولونيا سفراء بطلب الإمتيازات التجارية فأجيبا.

وفي سنة ٩٧١ حصل بالأستانة سيل عظيم، فخرب بيوتاً كثيرة وكباري وغير ذلك مما أوجب صرف نصف مليون ذهباً لإعادة ما هدم.

وفي سنة ٩٧٢ تكرر تعرض أهالي جزيرة مالطة، فغضب السلطان وجهز أسطولاً، وأرسله إلى الجزيرة بقيادة بعض المأمورين. فمن سوء تدبير حركاتهم عادوا بلا ثمرة.

وفي سنة ٩٧٣ حصل إختلال في بلاد المجر فذهب السلطان بعساكره إليها، وبوصوله إلى تاتار بازار أصابه مرض النقرس واشتد عليه، فتجلد حتى وصل إلى صحراء ذمون.

وفي سنة ٩٧٤ حاصر قلاع (أوسك) (وسكنوار) وغيرهما وآستولى عليهم. ثم اشتد به المرض فتوفي في ٢٣ صفر. رحمه الله رحمة واسعة.

* * *

(واقعة مهولة)

في سنة ٩٧٤ قبل وفاة السلطان. وقيل في سنة ٩٧٥ إتفقت حكومات أوروبا (الإتفاق (٢٠)) على محو الدونانمة العثمانية. فجمعت قوة هائلة مركبة من خمسمائة وثلاثين سفينة حربية متنوعة، فاضطرب فكر السلطان، وطلب خير الدين باشا الشهير والي الجزائر، وكان فريد في فنون الحروب البحرية. فحضر وعينه السلطان أميرالاً عمومياً. وأمر كافة الأميرالات بطاعته وفوّض إليه الأمر. فقام هذا البطل بهذه المأمورية المهمة أحسن قيام. وذلك أنه تفقد سفن الدولة العلية الحربية وفرز منها ثلاثمائة وخمسين سفينة من أجودها. وفرز من الضباط والعساكر ما لزم. ثم ذهب لمقابلة الأعداء. ثم فرز من هذا القدر مائة وعشرين سفينة من أجودها، وجعل الباقين كالحصن حسب فن ذاك الوقت. وهاجم الأعداء بالمائة والعشرين سفينة بمهارة فائقة فاشتدّت الحرب وتزايد كربها. ثم آنتصر على الأعداء إنتصاراً باهراً، فأغرق البعض، وأحرق البعض، وأسر البعض، وشتت شمل الباقي. ثم عاد إلى الأستانة. فجعل السلطان إستقباله كاستقبال الملوك، وأنعم عليه بإنعامات فائقة الحد. وبالأسف أن هذا الباشا والسلطان سليمان ماتا في سنة واحدة. ثم تعصبت الدول، وأعدّت قوة بحرية هائلة لأخذ ثاراتهم ومحو الدونانمة العثمانية، وتمكنوا من ذلك كما سيأتي. وقد وافق تاريخ وفاة السلطان سليمان هذه الكلمات (شهيد رآه حق سلطان سليمان). ومآثره الخيرية في بناء المساجد والمدارس وغيرها لا تحصى.

أما أولاده فهم: مصطفى، ومحمد، وسليم، وبايزيد، وجهانكير، وابنته مهرماه. توفي في حياته جميع الذكور كما تقدّم ما عدا سليماً.

* * *

(أسماء معاصري السلطان سليمان من الملوك والأمراء وجهاتهم)

أوروبا

فرنسا : فرنسو الأول .... ملك.
إنجلترا : هنري الثامن، ثم أنسروه.
إسبانيا : الأمبراطور شارلكان .... أمبراطور.
ألمانيا :
البورتغال : إمانويل، ثم جان الثالث .... ملوك.
روسيا : أيوان الثالث، ثم واسيل الثالث.

آسيا

العجم : طهماسب .... شاه.
شيروان : الشيخ شاه.
الهند : السلطان علاء الدين، ثم بهلول، ثم نظام.
لاهود : الشاه محمد، ثم حسين.

* * *

[١١] السلطان سليم خان الثاني

ولد المشار إليه في ٦ رجب سنة ٩٣٠. وتولى السلطنة في سنة ٩٧٤، وعمره أربع وأربعون سنة. ومدّة سلطنته ثمان سنين وخمسة أشهر.

وفي ثالث يوم من جلوسه، ذهب إلى بلغراد لإستقبال الجيش، فبوصوله علموا جلوسه. وقد حصل في أثناء عودته للأستانة من اليكيجريين إختلال كثير، فأظهر محمد باشا صوقوللي الصدر الأعظم حزماً ونشاطاً في مجازاة الرؤساء المتسببين في الإختلال، وأوقف كلا منهم عند حدّه. لكن سبب الإختلال هو عدم وجود النقود في مالية الدولة، وتأخير مرتبات العساكر لمدة طويلة حتى حصل لهم صعوبات جمة في عودتهم للأستانة. ولما وصلوا إليها تصادف وصول بيالة باشا الأميرال عائداً من إيطاليا بغنائم كثيرة، فتمكنت الدولة من صرف بعض المرتبات المتأخرة للجيش. ثم أمر السلطان بأعمال زينة فاخرة شكراً لله على إنتصار الدولة في الحرب، وإعلاناً للجلوس ولتحويل أفكار العامة من حدوث الأراجيف.

وفي سنة ٩٧٥ جاءت الهدايا من دولة العجم وبولونيا على أيدي السفراء.

وفي سنة ٩٧٦ عصت الأعراب الساكنون في شواطىء بغداد وبصره. فحاربهم والي البصرة. وظهر في الوقت نفسه إختلال عظيم في اليمن، فدخل أغلب الجهات في يد من يدعى مظهراً من مشايخ الزيدية المنسوبين إلى زيد بن علي بن زين العابدين بن سيدنا الحسين. فأرسل إليه السلطان مصطفى باشا والي الشام سرداراً وعثمان باشا بوظيفة أمير أمراء. وعين سنان باشا أخا أياس باشا والياً على مصر. فبأسباب ما كان بين سنان باشا وبين الباشوين المذكورين قبله من المنافسات أجبرهما على الهروب وتحصل هو على سردارية اليمن فذهب إليها. ولمضي زمن طويل بين ظهور الإختلال وبين وصوله، إستولى الشريف مظهر المذكور على جميع بلاد اليمن. فاهتم سنان باشا بفتح اليمن. ثم مات الشريف المذكور وانهزم من كان معه من الأعراب، فتم الفتح ولقب بفاتح اليمن.

وفي هذا العام حصل إختلال بطرابلس الغرب، فأرسل السلطان أسطولاً فأعيد الأمن فيها. وفي أثناء ذلك إستغاث أهالي الأندلس الباقين الذين طردوا من غرناطة إلى الجبال من مطاردة الأسبانيين لهم، فأرسل السلطان إمداداً إلى محمد المنصور من سلالة الملوك المنقرضة بالأندلس، فتغلب على الأسبانيين وحاصر غرناطة، وكاد أن يستردّها، وإذا بمدد كبير أتاه من حكومات الإفرنج الأسبانيين، فطلب محمد المنصور من الدولة العلية إمداداً جسيماً. ولمشغوليتها في طرابلس الغرب، وفي قبرص وحرب اليمن وغيرهم لم يتيسر إرسال إمداد آخر، فاضطر محمد المذكور إلى ترك حصار غرناطة.

وفي سنة ٩٧٧ رأت الدولة صعوبات زائدة في إرسال العساكر إلى حدود الشرق عند اللزوم. فعزمت على حفر وتوسعة نهر وولغا الذي يصب في بحر الخزر، ليصلح لمرور السفن الحربية والنقالة لسهولة إرسال العساكر والمهمات كما ذكر. فعينت قاسم باشا الشركسي سنجقاً على كفة وأحالت عليه هذه المهمة، وأرسلت الأوامر إلى دولة كراي خان قريم بإعانته بما يلزم. وأعطت لقاسم باشا ستة عشر ألف عامل وثلاثة آلاف يكيجري وعشرين ألفاً من فرسان الأتراك، وخمسين ألفاً من فرسان التتر، وما لزم من المهمات كالفوس والكركات وغيرهما. فاهتم قاسم باشا بالعمل حتى أنهى ثلثيه.

غير أن الروسيا دست الدسائس بين التتر والعمال بواسطة الجواسيس. قائلين لهم: إن البرد لا يطاق في هذه المنطقة، فبحلول فصل الشتاء تموتون من البرد. فأشيعت هذه الأقوال بين العساكر والعمال، فحصل هياج واختلاف. فوعظهم قاسم باشا، وقال لهم: أن هذه دسائس من الروسيا ولا أصل لهذه الأقوال، وأن بلاد الروسيا أبعد من هذه المنطقة شمالاً فما بالهم لا يموتون. فلم يسمعوا مقاله بل تفرّقوا وتركوا العمل وانصرفوا إلى بلادهم، فتبدّدت المهمات والذخائر. فغضب السلطان على الصدر الأعظم غضباً شديداً غير أن مصطفى باشا لاله[1]، تكلم مع السلطان بما يوافق مشربه، ويسكن غضبه، مجاملة للصدر الأعظم، ومحو ما كان بينهما من الضغائن والعداوة. فسكن غضب السلطان ونجا الصدر الأعظم من الخطر.

ثم ذهب خان قريم بثلاثين ألفاً من الشجعان الفرسان وما لزم من البيادة إلى بلاد الروسيا للإنتقام في نظير الدسائس الماضية فخرب مدينة موسكو.

(١) أي مربي السلطان.

وفي هذا العام أتمت دولة أوستريا تنظيم عساكرها أخذاً من نظام الدولة العلية بعد إشتغالها مدّة عشرات من السنين تقصد بذلك مقاومة عساكر الدولة العلية.

وفي سنة ٩٧٨ عين مصطفى باشا اللاله المذكور سرداراً على قبرص بناء على إلتماس الصدر الأعظم، مكافأة له على ما سبق من تسكين غضب السلطان عليه كما تقدّم. وكان معه خمسون ألفاً من العساكر رماة البنادق والطوبجية واللغمجية، ومائة وخمسون سفينة بقيادة بيالة باشا وعلي باشا أولوج. فذهب وحاصر قبرصاً. ولمتانة الحصون والإستحكامات والقلاع مكث ستة شهور وأخيراً أطلق المدافع بشدّة على مدينة ماغوسه، فاضطر الأهالي إلى التسليم. ورغبوا نقلهم إلى جزيرة كريد. وأما صاحب قبرص المدعو براغازينو فإنه قتل جميع أسراء المسلمين. ثم تزيى بزي الونديكين بالملبوس الأحمر، وأراد الهروب. فلما بلغ ذلك مصطفى باشا أخرج أسراء الإفرنج وقتلهم ثم قبض على براغازينو المذكور وقتله. وقيل بأن المذكور بعد أن تزيى بزي الونديكين كما تقدّم، خرج من القلعة ودخل وسط الجيش العثماني لأمر مجهول، فضبط وقتل نظير قتله لأسراء المسلمين. وقد لام بعضهم مصطفى باشا على ذلك. وقيل إن الافرنج جعلوا في تواريخهم هذه المسألة من أشنع الفظائع مع أن البادي أظلم وهو براغازينو في قتله الأسراء. ولم تكن فظائع أسبانيا ضد الأندلسيين في نظرهم شيئاً مذكوراً. وما هذا إلا من التعصبات القديمة والحديثة.

* * *

المحاربة البحرية الهائلة

قد تقدم واقعة فتح قبرص ولقد هلك فيها نحو الخمسين ألفاً من المسلمين. ويقال أن سبب هلاك هذا القدر العظيم هو جهل مصطفى باشا المذكور عن الإدارات الحربية وسوء تدبيراته. فاتحدت حكومات الونديك وأسبانيا والبابا وإيطاليا ومالطة وغيرهم (الاتفاق (٢١)) على محو الدونانمة العثمانية، فجمعوا قواهم البحرية برئاسة الأميرال المشهور المسمى دونجوات إبن الأمبراطور كارلوس الخامس.

وفي جمادى الأول سنة ٩٧٩ جهزت الدولة مائة وثمانين سفينة بقيادة علي باشا بن المؤذن وعلي باشا أولوج والي الجزائر وجعفر باشا والي طرابلس الغرب وحسن باشا بن خير الدين باشا المشهور، وجميعهم تحت رئاسة برتو باشا الوزير الثاني. فاختلفت الباشوات في الآراء، فمنهم علي باشا أولوج قال: إن قوتنا البحرية ناقصة وضروري من إستكمالها لأول ربيع القادم، وكرر ذلك. ولرغبة محمد باشا الصدر الأعظم في كسر نفوذ برتو باشا المذكور لم يصغ لمذكرات علي باشا المذكور، بل إستمال فكر علي باشا بن المؤذن في ترجيح الدخول في الحرب حالاً. ثم قال علي باشا أولوج لعلي باشا بن المؤذن بعدم لزوم التوغل بالسفن في عرض البحر، ونادى بذلك بأعلى صوته مراراً، فلم يقبل قولاً منه إني لا أظهر شبه فرار حتى يقول الأعداء فرت الدونانمة العثمانية بل أسرع بالهجوم. فغضب علي باشا أولوج وناداه ثانياً وقال: إن الهوى ضدّ مراكبنا وصالح لمراكب الأعداء، فلم يصغ لقوله. وأما الأعداء المتفقون فإن الهواء كان مساعداً لهم فرتبوا سفنهم ترتيباً حسناً و واستعدّوا للمقاومة والمدافعة. فوقع القتال في محل يسمى قاتلى بورون بقرب مورة ومعناه الأنف الدامي. فاستشهد علي باشا بن المؤذن من سفينة أسبانية وإبنه مات محترقاً. وتكسرت سفينة برتو باشا الوزير الثاني ووقع في البحر فأخرجوه حياً بالحبال.

وأما علي باشا أولوج فإنه أظهر من الشجاعة والمهارة في تفريق وإغراق سفن الأعداء ما يحير الأفكار. وهو السبب الوحيد في عدم إستئصال دونانمة الدولة. ولقد مات أكثر من ثلاثين ألفاً من المسلمين خلاف من أسر من العساكر والذوات، فقطعوا رؤوسهم، وعلقوها على صواري السفن المأسورة، وعلقوا الرايات والأسلحة منكسين، إحتقاراً وإنتقاماً وتشفياً وكان المنظر بشعاً هائلاً والخسائر على الدولة جسيمة. والسبب في ذلك كله حصول الإختلاف والضغائن والغايات الشخصية كما تقدّم. فلما بلغ ذلك السلطان إغتاظ غيظاً شديداً.

وأما الصدر الأعظم فإنه ندم على ما فرط منه لأنه لم يحسب أن الحالة تبلغ لهذه الدرجة، فاهتم إهتماماً زائداً في تزايد القوّة البحرية ونظامها.

وأعقب هذا الانكسار أن الأسبانيين إستأصلوا بقايا المسلمين بالأندلس بقتلهم إلا من هرب إلى أفريقيا حتى صارت أوروبا من جهة الأندلس خالية من كل مسلم. ولم تقتنع أسبانيا بذلك بل طردتهم بعد الإستيلاء على جميع أملاكهم وديارهم إلى أفريقيا، واستولت على بعض جهات منها أيضاً. وأعانتها ملوك تونس من بني حفاض وملوك فاس تملقاً. ولم يثمر ذلك، بل تسلطت أسبانيا على سواحل تونس. فأرسل السلطان علي باشا أولوج صاحب الذكر الحسن آنفاً بعد أن غير لقبه بلقب قليج ومعناه السيف، ومعه دونانمة الدولة. وذهب في سنة ٩٨٠ إلى سواحل تونس فطرد عساكر أسبانيا منها، وشتت شمل دونانمة مالطة، واستولى على تونس، ونصب حيدر باشا وكيلا عنه ببعض عساكر قليلة.

فما كان من السلطان حسن حاكم تونس سابقاً إلا أنه آلتجأ إلى أسبانيا وطلب منها عساكر لاسترداد تونس من الدولة العلية. وفي نظير ذلك يكون لأسبانيا السواحل والكمارك فقبلت منه، وأرسلت جيشاً مع حميد إبن السلطان حسن المذكور إلى تونس. فقابلهم حيدر باشا بألف من العساكر ولم يثبت لقلة عساكره بل هرب. وآستولى حميد بعساكر أسبانيا على تونس. وكذلك إستولت إيطاليا على طرابلس الغرب التي كانت مستقلة يومئذ. فغضب السلطان من تلك الأحوال، وأرسل سنان باشا سردارا ومعه بعض عساكر مصرية فحاصروا تونس. ولما وجد سنان أن السلطان حسن سلم بلده إلى أسبانيا أمر بضبطه فضبط. ثم فتحت القلعة وقلعة حلق الوادي وغيرهما وشكل ولاية فيها.

وفي سنة ٩٨١ أتم السلطان سليم بناء الجامع المشهور بإسمه في أدرنة، وبنى كوبرياً جسيماً في قصبة حكمجه، ورمم جامع أيا صوفيا الشهير بالأستانة، واشترى البيوت الملتصقة وجعل مكانها ميداناً ومدرسة.

وفي سنة ٩٨٢ في شهر رمضان وقع السلطان في الحمام الجديد في السراية بزلقة رجليه، فكانت سبباً في موته رحمة الله عليه. وكان له ستة أولاد: مراد، ومصطفى، وسليمان، وعثمان. ولم أقف على أسماء الإثنين الآخرين.

* * *

(أسماء الملوك والأمراء المعاصرين للسلطان سليم خان الثاني وجهاتهم)

أوروبا

الروسيا : قدور الوانويج .... حاكم.

بولونيا : سيزسمند الثاني، ثم هنري من بيت جاجا .... حاكم.

ألمانيا : كارلوس الخامس، ثم شارلكان، ثم فاردينياندو .... أمبراطورات.

فرنسا : فرانسو الأول .... ملك.

أسبانيا : فليب .... ملك.

ونديك : بترو، ثم مونوستايانكو، ثم يانكولاسي .... رئيس الجمهورية.

إيطاليا : بابا الخامس، ثم غراغور الثالث عشر، ثم غراغور الرابع عشر.

إنجلترا : هنري السابع، ثم ادواريد، ثم جان غراي ماري.

البرتغال : فليب بن شارلكان، ثم فليب الثاني، ثم فليب الثالث، ثم فليب الرابع، ثم جان الرابع .... ملوك.

إيران : طهماسب، ثم إبنه حيدر ميرزا، ثم بعد خلعه إسماعيل ميرزا، ثم بعد خلعه عباس.

الصين : شينغونغ، ثم مونسنغ، ثم إبنه سينغونغ .... أمبراطورات.

الهند : همايون، ثم جلال الدين محمد الأكبر ومات بالسم، ثم سليم جهانكير .... شياه.

* * *

[١٢] السلطان مراد خان الثالث

ولد المشار إليه في سنة ٩٥٣ هجرية الموافق سنة ١٥٤٤ ميلادية. وجلس في سنة ٩٨٢ في أوّل رمضان، بالغاً من العمر تسعاً وعشرين سنة. ومدّة سلطنته عشرون سنة.

وفي أول جلوسه أعطى مائة وعشرة آلاف ذهباً للوزراء واليكيجريين لإستجلاب محبتهم له، (ولا يخفى أن هذه العطية قد جلبت المضار لأنه ترتب عليها أنها صارت عادة، وأن من تأخر عنها من السلاطين كان يرى التعب من اليكيجريين وغيرهم من أصحابها، حتى صاروا يتمنون تجديد السلاطين لأجل هذه العادة ويسعون في ذلك).

وأما الصدر الأعظم محمد باشا فإنه كان ذا ثبات وحزم مستمراً في تزايد القوّة البحرية خوفاً من دول أوروبا.

ومن جهة أخرى جذب إليه ملوك أوروبا وعقد معهم المعاهدات بمنع الحرب وبالمعاهدة التجارية، وذلك مع ملك بولونيا وأمبراطور ألمانيا وجمهوريتي الونديك وفرنسا وأسبانيا وإنجلترا وذلك في سنة ٩٨٣ و ٩٨٤.

وفي هذا العام حصلت منازعات بين حكام المغرب فأرسل ملك البرتغال جيشاً عظيماً واحتل أفريقية. فأرسل السلطان رمضان باشا والي الجزائر إمداداً لحاكم فاس. فوقعت الحرب، واضمحلت عساكر البرتغال، وأنقذت منهم فاس. وقد عرض عليه حاكمها الإنقياد للخلافة وقدّم مائتي ألف ذهباً.

وفي سنة ٩٨٥ لم يحصل أمر ذو بال. إنما سعى شمسي باشا المخالف للصدر الأعظم لدى السلطان برؤية بعض الأعمال لدى السلطان مباشرة بغير واسطة الباب العالي.

وفي سنة ٩٨٦ كثر الإختلال في الممالك الإيرانية وأوجب حدوث الفتن في الحدود. فعين مصطفى باشا سرداراً للشرق، فذهب إلى كرجستان، فقابله (توقاق خان) سردار عساكر إيران بثلاثين ألفاً. فوقع الحرب ورجع توقاق منهزماً. وفتحت العساكر العثمانية (كرجستانا) حتى

وصلت العسكر إلى مدينة (تفليس). فعين عثمان باشا حاكماً على جهة شروان، وعين جعفر باشا والياً على كرجستان ومحافظاً على قلعة تفليس.

وفي سنة ٩٨٧ أرسلت حكومة إيران أربع فرق جسام من العساكر لاسترداد هذه البلاد. فشتت عثمان باشا فرقتان منها، والإثنتان الباقيتان حاصرتا شروان بعد أسر عادل كراي، أخي خان قريم رئيس عساكر التتر. فأسرع الخان المذكور لخلاص أخيه، فلم يتيسر لدخول فصل الشتاء.

وفي هذا العام دخل شخص بوشناقي الجنس على الصدر الأعظم مظهراً إعطاء ورقة له، فلما قرب منه أخرج خنجراً وضربه به، فجرحه جرحاً بليغاً. فعين بدله أحمد باشا الوزير الثاني للصدارة العظمى. وعين سنان باشا أيضاً سرداراً، فأسرع بالذهاب إلى الجيش.

وفي سنة ٩٨٨ مات الصدر الأعظم الجديد بمرض المثانة، وعين بدله مصطفى باشا لاله. وبعد ذلك بقليل صار سنان باشا صدراً أعظم.

وفي سنة ٩٩٠ مات حمدي أفندي شيخ الإسلام، وأعطي مسند الفتوى لمحمد أفندي إبن القاضي.

وفي هذا العام أشاع الصدر الأعظم بأن دولة إيران أرسلت سفيراً، فبدّل المحاربة بالمصالحة. ثم ظهر أن ذلك حيلة منه، فعزل وعين بدله (سياوش باشا).

وفي سنة ٩٩١ عين (فرهاد باشا) سرداراً وأخذ عساكر جديدة، وذهب بهم إلى الجيش.

ومات في هذا العام (فريدون بك) المنشي الشهير، ووالدة السلطان أيضاً. وعين السلطان إبنه محمداً والياً على مغنيسا.

وفي سنة ٩٩٢ عصى محمد كراي خان قريم، وحاصر عثمان باشا في كفة. فأرسل إليه علي باشا القابودان بعشرة آلاف من اليكيجريين إمداداً لعثمان باشا المذكور. فوقع الحرب، وأخذ خان قريم أسيراً، وعين بدله إسلام كراي خاناً على قريم. ثم إن عثمان باشا المذكور فتح جهات كثيرة من طاغستان. ثم عاد إلى الأستانة فأكرمه السلطان، وعينه صدراً أعظم.

وفي سنة ٩٩٣ حصل بعض إختلال في قريم، فقام الصدر الأعظم بالجيش. ولما بلغ إلى قسطموني جاءه الخبر باستتاب الأمن في قريم، فعاد إلى الأستانة. وأعقب ذلك ظهور طاعون مات به بعض أولاد السلطان.

وفي هذا العام أرسل السلطان إبراهيم باشا إلى مصر للإصلاحات، فتصادف عصيان إبن معن حاكم الدروز فتحوّل تأديبه على إبراهيم باشا المذكور. وبعد إتمام هذه المأمورية على أحسن حال عاد إلى الأستانة، فأكرمه السلطان، واتخذه صهراً له.

وفي هذا العام تحركت عساكر إيران على الحدود العثمانية، فذهب الصدر الأعظم. وبوصوله إلى تبريز، وقعت محاربة عظيمة، فانتصر العثمانيون.

وأعقب ذلك مرض الصدر الأعظم ووفاته رحمة الله عليه. ونصب يوسف باشا إبن جفال وكيلاً عنه، فعاد وكيله المذكور بالجيش إلى الأستانة. وعين مسيح باشا صدراً أعظم.

وفي سنة ٩٩٤ عاد الإيرانيون إلى التعدّي على الحدود، فذهب فرهاد باشا بجيش وعزل مسيح باشا من الصدارة، وعين بدله سباوش باشا.

ولما وصل فرهاد باشا إلى تبريز وقعت محاربة هائلة فانتصر العثمانيون، واستولوا على تلك الجهات. فاضطرب الشاه في أمره، وأرسل أخاه ميرزا حيدر إلى الأستانة رهناً، وطلب الصلح على شرط ترك جميع البلاد التي استولت عليها الدولة العثمانية لها. فقبل السلطان وسحب جيشه.

وفي هذا العام مات علي باشا القبودان وعين بدله إبراهيم باشا.

وفي سنة ٩٩٥ عاد شاه العجم للهجوم على البلاد العثمانية، فذهب إليه فرهاد باشا. وحصلت جملة وقائع حربية، وطالت المدّة، فحصلت مضايقات في مالية الدولة أوجبت ترك صرف مرتبات العساكر وعلوفات الخيول. فثارت العساكر بالأستانة، وهجموا على محمد باشا ناظر الضربخانة، ومحموذ أفندي الدفترداري ناظر المالية وقتلوهما، وهجموا على السراية مراراً. ثم اتسعت نازلة الفتنة في الولايات فاهتم بعض الولاة، وبالأخص واليا بودين وتبريز فإنهما قتلا نحو ألفين من العصاة، فسكنت الفتنة نوعاً. فلما رأى ملك بولونيا هذا الإختلال فرح وأدخل عساكره الحدود العثمانية فأرسلت الدولة إلى خان قريم بالإغارة على بلاد بولونيا.

وفي سنة ٩٩٦ ظهر شخص سمى نفسه الشاه إسماعيل، الشاه المشهور في كردستان وسعى في الأرض فساداً، فحاربه والي أرضروم وضبطه وقتله.

وفي سنة ٩٩٧ حصل حريق هائل بالأستانة عزل بسببه أغا اليكيجريين.

وفي سنة ٩٩٨ مات أويس باشا والي مصر، وتعين بدله أحمد باشا. وفي رواية: كان ذلك في سنة ٩٩٩.

وفي هذا العام ظهر من اليكيجريين بعض عصيان إنبنى عليه تعيين فرهاد باشا صدراً أعظم.

وفي سنة ١٠٠٠ إضطرت الدولة إلى إقتراض ما لزم لصرف مرتبات العساكر، وهذا أول قرض إقترضته الدولة.

وفي سنة ١٠٠١ إلتجأ أحمد خان حاكم كيلان إلى السلطان من هجوم شاه العجم عباس على بلاده.

وفيها حصلت مضاربة بين بعض العسكر وبين بعض خدمة السراية، إنبنى عليها عزل الصدر الأعظم وشيخ الإسلام. فعين سنان باشا للصدارة، وزكريا أفندي للمشيخة.

وفي سنة ١٠٠٢ ذهب الصدر الأعظم إلى بودين لعصيان بعض من المجر.

وفيها عمل السلطان وليمة لأجل مصاهرة خليل باشا له، وصرف فيها أكثر من مائتي ألف كيس.

وفي سنة ١٠٠٣ إمتدّت الحرب في بلاد المجر، وفتحت قلاع (سانمارتون) و(بابا) و(يانك). ثم عصى حكام أفلاق وبغدان وقتلا في مدينتي بكرش ويركوي آلافاً من العثمانيين.

وقد اعتدت النمسا بجيش عظيم على بلاد الدولة، فاهتمت الدولة العلية بجمع جيش عظيم، وأخرجت الراية الشريفة. وإذا بالسلطان مراد قد مرض. ومات في خامس جمادى الأولى من هذه السنة رحمه الله تعالى.

* * *

(أسماء الملوك المعاصرين للسلطان مراد وجهاتهم)

أوروبا

إنكلترا : ايلزابت .... ملك.
فرنسا : هنري الرابع، ثم إبنه لوامي الثالث.
أسكوجيا : ماري .... حاكمة.
بلونيا : هنري، ثم أسطفان، ثم ملك أسوج سيزسموند.
ونديك : نيكولاسي دابونت، ثم جرماني.
ألمانيا : أمبراطور فرديناندة، ثم إبنه ماقسي مليان، ثم رودلف، ثم بعد خلعه أخوه مايتاسي
أسبانيا : فليب.
الروسيا : فدور، ثم بعد موته بالسم غودون دوق، ثم إبنه فيؤدور الثاني.
برتغال : جان الرابع، ثم إبنه الفونس.
فلمنك : كليوم الأول، ثم كليوم الثاني.
دانيمارك : فردريك الثاني، ثم كرستيان الثالث.

آسيا

الهند : سليم جهانكير.
إيران : عباس الأول، ثم حيدر، ثم إسماعيل.
خوارزم : حسن قوللي خان، ثم بوصعة خان، ثم صوفي خان، ثم أويس خان، ثم يوسف خان أبو يوسف خان، ثم إفكللي خان، ثم يونس خان، ثم دوست خان، ثم نورم خان، ثم الشاه عباس شاه إيران.

* * *

[١٣] السلطان محمد خان الثالث إبن السلطان مراد الثالث

ولد المشار إليه في سنة ٩٧٤ في ولاية صاروخان. وجلس في سنة ١٠٠٣ هجرية الموافقة ١٥٦٥ ميلادية، بالغاً من العمر تسعاً وعشرين سنة.

* * *

(واقعة محزنة)

لما مات السلطان مراد الثالث كان إبنه محمد هذا والياً في مغنيسا. ففي أثناء حضوره حصل من إخوته، البالغ عددهم تسعة عشر القال والقيل. فلما وصل محمد الأستانة ليلاً، وأخبر بذلك، مع زيادة من أصحاب الأغراض. وسوس له الشيطان بأن الفتنة لا تدفع إلا بقتلهم فقتلوا. ثم ندم وشتت أغلب أهل السراية، وعزل جميع الوزراء، ومنع تولية أحد من أولاد السلاطين والياً في إحدى الجهات بعدئذ.

* * *

وقد تقدم ذكر عصيان حاكمي أفلاق وبغدان، فانضم إليهما حاكم أردل. وهجم ميخال بك حاكم أفلاق على خان قريم، وشتت شمل عساكره، وأحرق سواحل البحر الأسود ونهر طونة وقلعة روسجق. فعزل سنان باشا من الصدارة العظمى، وعين بدله فرهاد باشا الذي كان وكيلاً عنه.

وفي سنة ١٠٠٤ عين سنان باشا المذكور مأموراً لإصلاحات السواحل المذكورة والجهات التي خربت كما تقدم. فما كان منه إلا أنه استعمل وسائط عجيبة حتى تحصل على إعادته للصدارة. ولم يكتف بذلك بل ألقى للسلطان ما أوجب إعدام فرهاد باشا.

ثم ذهب إلى ميدان الحرب وعمل كوبريا في روسجق على نهر طونة، وعبر بعسكره بحالة شاقة، واسترد قلاع (طرغو) و(بشته) و(يكرش). لكن خدعه ميخال بك المذكور حتى أوقعه في موقع ضيق. ثم انتصر عليه واسترد القلاع المذكورة، واستولى على كثير من الذخائر والأدوات الحربية. فبناء عليه عزل سنان باشا وعين بدله محمد باشا لاله للصدارة. وبعد أسبوع وافاه الأجل الموعود،

وعاد سنان للصدارة. وعزم على الإجتهاد في التداركات الحربية، وإذا بالأجل المحتوم أتاه. فعين بدله إبراهيم باشا الوزير الرابع، غير أنه حصل خلل عظيم في مصالح الدولة من كثرة التبديل والتغيير في الصدارة حتى بلغ خمس مرات في السنة الأولى من جلوس السلطان. ثم ذهب إبراهيم باشا الصدر الأعظم إلى ميدان الحرب بعد إستكمال لوازمها.

وفي ٢٤ شوال ذهب السلطان بنفسه إليها، وبوصوله إلى بلغراد سجن محمد باشا قورقاق بن سنان باشا المعهود في قلعة بلغراد، حيث كان هو السبب في هزيمة الجيش في واقعة أبيه الماضية.

وفي سنة ١٠٠٥ إنضم إلى المتفقين العصاة أرشدوق ماقسيمليان وسيزسيموند (الإتفاق (٢٤))، الأول أمبراطور ألمانيا والثاني ملك بولونيا، فوقع بين المتفقين والعثمانيين ثلاث وقائع حربية جسيمة، كان الفوز فيها للعثمانيين، لكن لم تحسم الحرب. فبناء عليه أراد السلطان إبقاء الصدر الأعظم هناك ورجوعه إلى الأستانة، وكتب له جواباً بذلك. فأعاده الصدر الأعظم إليه قائلا: إن ذهاب السلطان من ميدان الحرب قبل إنتهاء أمرها لا يوافق.

ثم وقعت محاربة عظيمة بين المتفقين وبين مائة وثلاثين ألفاً من العثمانيين، فانتصر المتفقون. ولم أقف على مقدار جيشهم حتى بلغ الفارّون من العثمانيين خيمة السلطان، وعلى أثرهم عساكر المتفقين، وبالأخص عساكر النمسا والمجر حتى كادوا أن يأسروا السلطان. فأظهر جلالته من الهمة والشجاعة ما أبهر العقول، وأمر الخدمة بالهجوم فهجموا على الأعداء حين إشتغالهم بالنهب والسلب.

ثم أتت فرقة من العثمانيين من وراء الأعداء فاندهشوا، وداخلهم الرعب، فانهزموا بهيئة شنيعة حتى لم ينج منهم إلا القليل.

وفي رواية: قيل إن من مات منهم يبلغ مائة وخمسين ألفاً، وما أظن ذلك إلا تحريفاً. والأقرب للعقل هو أن الجيش الذي اضمحل كان مائة وخمسين ألفاً ومنهم المقتول والمجروح والفارّ والأسير.

وبناء على هذه النصرة العظيمة عاد الجيش للأستانة بسرور كامل. وفي أثناء رجوعه عزل السلطان إبراهيم باشا الصدر الأعظم، ثم أعاده بعد برهة. غير أن الصدر الأعظم بدل مسلكه الحسن في صدارته الأولى بعكسه في صدارته الثانية فعزل، وعين بدله حسن باشا الخادم الذي كان قائماً مقامه بالأستانة.

وفي سنة ١٠٠٦ جاء سفراء إيران وبخارى وفاس والونديك للتبريك بالإنتصار.

وفي هذا العام أرسل شريف مكة المشرفة كسوة الكعبة الشريفة للأستانة، فسر الأهالي سروراً عظيماً واستبركوا بها.

وفي سنة ١٠٠٧ أفسد العساكر الفارّون في الأناضول. وفيه عاد الألمانيون والمتفقون السابق ذكرهم إلى سفك الدماء في قريم، وحاصروا قلعة ينكيبولي وغيرها. فعين إبراهيم باشا السردار بعد إعادته للصدارة، وذهب بجيشه إلى هناك. وبوصوله إلى بلغراد أعدم محمد باشا ساطرجي بتهمة العز والغنى. وسجن أحمد باشا الدفتدار إبن اتمكجي، فحصل في الجيش القال والقيل بسبب قتل الباشا المذكور بغير ذنب.

وفي سنة ١٠٠٨ إتحد إبراهيم باشا المذكور مع خان قريم ومراد باشا والي ديار بكر، فتغلبوا على الأعداء المتفقة واضطروهم إلى الصلح.

وفي أثناء ذلك توفي إبراهيم باشا الصدر الأعظم، فغدروا على الصلح. فعين حسن باشا القائم مقام للصدارة، وذهب إلى الحرب.

وفي سنة ١٠٠٩ في أثناء ذلك إستولت النمسا على قلعة أرول، وأرسلت فرنسا عساكر كثيرة باسم متطوعين للنمسا بناء على إلحاح البابا (الاتفاق (٢٥)). وفي أثناء ذلك ظهر شخص في سيواس يسمى قرديازجي، ومعه كثير من الأشقياء، خصوصاً العساكر الفارة. فأكثروا في الأرض فساداً، وأغاروا على قرمان ومرعش. وعلاوة على ذلك خرجت عساكر الدولة الموجودون في محاربة النمسا عن الطاعة. ولما رأت دولة إيران ذلك نقضت العهد.

وفي سنة ١٠١٠ طلبت فرنسا من الدولة العلية لما رأت حرج موقفها مرور أساطيلها بالبحر الأبيض، وألحت بذلك، فاضطرت الدولة للقبول. ولما رأت إنكلترا ذلك طلبت مثلها في الحال، فأجابتها أيضاً رغماً عنها.

وأما الصدر الأعظم فإنه سكن فتنة الجيش العاصي بوعد ووعيد حتى طرد الأعداء من الحدود. ثم ذهب إلى الأناضول لاستتباب الأمن وتأديب قره يازجي وأعوانه. فأخذ النمساويون ومن معهم هذا فرصة لعودتهم إلى الحدود، واستولوا على حصار أسترغونة، وحاصروا قاينجة، فدافع عنها متصرفها حسن باشا ترياكي بهمة وخدعة وثبات، حتى اضمحل عساكر الأعداء وتركوا حصارها مع قلة عساكر هذا الباشا. وبعد ذلك ذهب النمساويون بإثنين وأربعين مدفعاً وخمسين ألفاً من العساكر إلى بودين.

واما الصدر الأعظم فإنه لما بلغه عودة النمساويين كما ذكر، ذهب إلى هناك بجيشه قبل إتمام مسألة الأناضول. فبوصوله إرتد النمساويون على أدبارهم.

وكان هذا الصدر إشتهر بأنه لا يولي أحداً في منصب إلا بالرشوة. (قاتل الله الراشي والمرتشي). فثارت الضباط اليكجيرية بالأستانة والمستحفظون، فهجموا على السراية، وطلبوا السلطان على بابها الخارجي، فهددهم وسأل عن غرضهم. فقالوا: إن الصدر الأعظم مرتكب، وإن الحدود الشمالية في روملي (يعنون بها بلاد المجر) في إرتباك مستمر، وفي أسوإ حال. وإن الأناضول أغلبها صار في يد الأشقياء، وامتلأت بالفوضويين. فأرسل السلطان يقول لهم: إنكم أبديتم ما في أفكاركم، وأني سأنظر فيما يكون صالحاً للدولة. وأرسل في الحال يطلب علي باشا ياوز والي مصر، وأما الصدر الأعظم فإنه عند وصوله إلى الأستانة قتل وعين بدله والي مصر المذكور.

ولما رأى الشاه عباس شاه إيران إرتباك الدولة العلية، هجم على عراق العجم، قولاً منه أنها كانت من أملاك أجداده وهو وارثهم. واستولى على تبريز وناخجوان. واتفقت معه ألمانيا، وانضم إليه الأشقياء الفارون من بلاد الدولة. ففي الحال عين حسن باشا المقيم بأرضروم سردارا للشرق.

وأما أحوال الأناضول فلخلوّها من القوّة العسكرية من توالي الحروب في روملي، ظهر فيها من يدعى قره يازجي عبد الحليم، هو وأخوه دلي حسن ومعناه حسن المجنون، فأعلنا بالعصيان ونهبا بعض القرى والقصبات. وكذلك ولاية أرضروم صارت تحت يد عسكر كوسه باشا. وكذلك ولاية سيواس صارت في حكم رجال أحمد باشا المعروف بألاجه أتلو، ومعناه ذو الخيل البلق. وكذلك ولاية قرمان في حكم دلي حسن المذكور. وكذلك ولاية مرزيفون وقسطموني وكانقرى تحت يد قرة سعيد. وكذلك اليمن، صار في حكم الشقي المسمي نفسه بالإمام المهدي. وكذلك ولاية طرابلس الغرب، صارت في حكم الدايين.

والحاصل أن ثلثي ممالك الدولة صار تحت حكم الأشقياء.

وأما السلطان محمد الثالث فإنه أخذ يفكر فيما يفعل لإعادة هذه البلاد من يد الأشقياء المتغلبة من الداخل، والمتغلب من الأعداء الخارجية، وإذا بمرض أتاه فمات، رحمة الله عليه في جمادى الأولى سنة ١٠١٢.

وكان أولاده ثلاثة: محمود، وأحمد، ومصطفى. فالأول مات في حياة أبيه.

* * *

(أسماء معاصري السلطان محمد الثالث من الملوك والأمراء وجهاتهم)

أوروبا

ألمانيا : الأمبراطور رودولف الثاني.
بلونيا : إسطفان باطوري، ثم سيزسيموند الثالث .... ملوك.
الروسيا : علكسي، ثم ميخال الثاني .... ملوك.
إنجلترا : چان الأول، ثم إبنه شارلي .... ملوك.
أفلاق : علك ساندر حاكم من قبل الدولة.
إسقوجيا : جاك الثاني .... ملك.
أسبانيا : فليب الرابع.
برتغال : ألفونس، ثم ديشيليو، ثم لوي الرابع عشر .... ملوك.
فرنسا : لويس الرابع عشر .... ملك.
إيطاليا : قله مان الثامن، ثم ليئون، ثم پول الخامس .... بابات.

آسيا

إيران : الشاه عباس.
أفغان وأوزبك ونجارى: دخلت دولة مغول.

* * *

[١٤] السلطان أحمد خان الأول إبن السلطان محمد المتوفى

ولد المشار إليه في سنة ٩٩٨ في مدينة مغنيسا. وجلس في سنة ١٠١٢ هجرية الموافقة لسنة ١٦٠٣ ميلادية في ثمانية عشر رجب، بالغاً من العمر أربع عشرة سنة. ومدّة سلطنته أربع عشرة سنة وأربعة أشهر. بايعه الأمراء والوزراء كالمعتاد. ثم عين سنان باشا إبن القبودان جفاله أميراً مؤبداً لإطفاء نار إختلال الأناضول.

وفي أثناء ذلك جاء علي باشا الصدر الأعظم من مصر والشام ومعه خزينتاهما ووزعت العطايا المعتادة للجلوس.

وفي شعبان هذا العام صار ختان السلطان في السراية الجديدة.

وفي سنة ١٠١٣ ذهب الصدر الأعظم بالجيش إلى ميدان الحرب، فبوصوله إلى بلغراد إنتقل إلى رحمة الله تعالى. وعين بدله محمد باشا لاله، وفي الحال ذهب إلى الحرب. وفي زمن قصير إستولى على قلاع (بشتة) و(قودان) و(جان قورتران) [١] و(خطمان). وحاصر قلعة (آج)، فأحرق الأعداء ما في القلعة، وفروا إلى قلعة (أسترغون). فاستولى الصدر الأعظم على الأولى، وحاصر الثانية. ثم أرسل (توقتمش) إبن خان قريم بعساكر التتر إلى بلاد النمسا فانتصر وعاد ظافراً، ولدخول فصل الشتاء عاد إلى بلغراد.

أما شاه العجم فبعد أن استولى على تبريز وما حولها كما تقدّم، حاصر (وان). ولقد قاوم ودافع عنها واليها محمد باشا الشريف بألف عسكري سبعة أشهر ولم يأته مدد. وأخيراً قام إبن جفالة إمداداً له من الأستانة، وقبل وصوله فرّ أغلب عساكر محمد باشا الشريف إلى الشاه من الجوع، فاضطر إلى تسليم القلعة إلى الشاه.

وأما إبنه جفالة فإنه لما سمع الخبر ذهب إلى قرة قاش أحد الأشقياء المتغلبين، وعرض عليه الصلح. فقبل ذلك الشقي على شرط أن الدولة تعينه والياً على بوسنة، فتم ذلك.

(١) معناه منجى الروح.

أما سنان باشا سردار الشرق فإنه استرد من الشاه جميع ما استولى عليه . ثم لحقه أحمد باشا أمير أمراء (وان)، وقرة قاش باشا والي جلدر بأربعة آلاف عسكري، ودعوا الشاه للحرب فلم يقابلهم. واشتد القحط والغلاء فاضطر السردار ومن معه إلى الرجوع وإطلاق سبيل أغلب العساكر.

ولما بلغ هذا الخبر للشاه حاصر قلعة (وان)، ووقعت بعض مناوشات بينه وبين السردار. وبعد أيام أبقى السردار شمسيا باشا حاكم (وان) وكيلاً عنه فيها، وذهب هو بالزوارق من أخلاط إلى أرضروم. فعاد الشاه إلى جهة تبريز.

وفي أثناء ذلك عين قاسم باشا القائمقام والياً على بغداد، فأهمل الذهاب إليها. فعين محافظ على (كوتاهيه) وتكاسل أيضاً، فأحضر أمام السلطان في قصر سنان باشا وأعدم.

وفي سنة ١٠١٤ عين الصدر الأعظم سرداراً لرفع الإختلال الحاصل ببلاد المجر واسترداد ما استولى عليه النمساويون. فأخذ جيشاً ومعه مصطفى باشا بوشتاق وخسرو باشا، فحاصروا قلعة (شانقراد) وفتحوها. ثم استولوا على تلك الجهات جميعها. وعلاوة على ذلك إنضم أمراء المجر إلى عساكر الدولة بهمة ونصيحة السردار، وقبلوا تبعيتهم لها، ونبذوا دسائس النمسا وراء ظهورهم. بل إن رئيسهم بوجقاي حارب النمساويين وتغلب عليهم، واستولى على قلاع (داران) و(توقاي) و(قاشة) و(يس) و(إيواء). فعينته الدولة حاكماً على أردل، وملكاً على أنكروس.

وفي هذه الأثناء إشتبكت الحرب بين سنان باشا سردار الشرق وبين الشاه عباس، فانتصر السردار على الشاه، حتى دخل سفر باشا كوسة أحد القواد حدود العجم بفرقته، واقتتل مع فرقة بقيادة الله ويردي خان [1] من عساكر الشاه، ومعهم ذو الفقار خان أيضاً، فانتصر سفر باشا. ثم عاد فهجمت عليه فرقة من عساكر الشاه في الطريق فأسروه مع جملة من عساكره. فلما أحضروه أمام الشاه دعاه إلى مذهبه فأبى فقتله شهيداً. ثم إن السردار قتل حسين باشا والي حلب لعدم إسراعه بالإمدادات. ثم عاد إلى ديار بكر فمرض هناك ومات رحمه الله.

وفي هذا العام تبين ظلم وفساد محمد باشا إبن سنان باشا في الشام فأحضر إلى الأستانة وضرب عنقه.

---

(١) معناه عطا الله خان.

وفيه ذهب السلطان بروسة، وأرسل نصوح باشا إلى الأناضول لدفع شر المتغلبين الأشقياء، وأنعم عليه برتبة أمير الأمراء على من يسمى الطويّل من الأشقياء المتغلبين ليرجع بمن معه عن الفساد. ثم عاد السلطان إلى الأستانة، وبوصوله بلغه إنهزام سنان باشا سردار الشرق من أمام الشاه، فعزله وولى بدله نصوح باشا المذكور. وعين درويش باشا القبودان صدراً أعظم.

وفي سنة ١٠١٥ عين فرهاد باشا بوستانجي باشي سرداراً لدفع شر المتغلبين بالأناضول، غير أنه لعجزه لم يحصل ثمرة. ثم مات وهو عائد رحمه الله.

وفيه أن من يدعى جمشيداً أحد الأشقياء قتل حسين باشا والي حلب. وأما درويش باشا الصدر الأعظم فإنه كان من ذوي الأغراض فأمر بقتله فقتل. وعين بدله مراد باشا صدراً أعظم، وكان مقداماً فضايق على دولتي أوستريا وألمانيا، فاضطرها إلى الصلح. غير أنه لعلمها أن مركز الدولة العلية كان حرجاً أصرت بأن الصلح يكون على أساس عدم دفع ويركو بعدئذ، ومساواة الطرفين في كافة المعاملات لمدّة عشرين سنة. فقبل الصدر الأعظم ليتفرغ لتخليص الأناضول من يد المتغلبين، حيث أن إبن قلندر وقرة سعيد تغلبا على قرمان وسيواس، وتغلب من يدعى الجاويش على حلب وأورفة، واستولى جان بولت على كردستان، وفخر الدين وابن معن إستوليا على جبل لبنان. فاضطر مراد باشا الصدر الأعظم إلى جمع جميع قوته العسكرية لإزالة هؤلاء الأشقياء.

وفي سنة ١٠١٦ ذهب المشار إليه بالجيش إلى قونية، وقبض على ثلاثين ألفاً من الأشقياء، ودفنهم في الآبار أحياء، فدخل الرعب في قلوب جميع الأشقياء. ثم ذهب إلى الشام فهرب جان بولت وفخر الدين فطهر بلاد الشام من الأشقياء. ثم قبض على إبن قلندر وقتله، وقتل كثيرين من الأشقياء الغير معلومة أسماؤهم. وكذلك محمود باشا المتعين في جهات بغداد قتل أغلب العصاة وطهر البلاد منهم.

وفي سنة ١٠١٧ عاد مراد باشا الصدر الأعظم إلى الأستانة، وملأ الأرض بهيبته فجاء السفراء من جميع بلاد أوروبا وما وراء النهر للتهنئة..

وفي سنة ١٠١٨ ذهب الصدر الأعظم المذكور إلى ولايتي أيدين وصاروخان، وقتل يوسف باشا المتغلب هناك مع من يدعى موصللو الشقي الشهير، ثم عاد للأستانة. فانسر السلطان من هذه الأحوال وأسس بناء الجامع الشريف الشهير بإسمه بالأستانة.

وفي سنة ١٠١٩ ذهب الصدر الأعظم سرداراً إلى الشرق لتأديب الشاه عباس، فبوصوله إلى

تبريز هرب الشاه إلى جهة العراق ومنها إلى بلاده. ثم أرسل بطلب الصلح، فقبل الصدر الأعظم هذا الطلب ببطء واشتغل بالتجهيزات الحربية، وإذا بالموت أتاه فجأة في سنة ١٠٢٠ رحمه الله رحمة واسعة. وعين بدله نصوح باشا. وأعقب ذلك وفاة خان قريم، وعين بدله جان بك كراي خاناً.

أما الشاه عباس فإنه عرض على نصوح باشا الصلح على شرط أن يدفع للدولة سنوياً مائتي جمل حريراً فقبل منه، وعقد الصلح معه. ثم عاد للأستانة.

وفي سنة ١٠٢١ أرسل السلطان إلى الروضة الشريفة المطهرة حجراً من الماس قيمته خمسون ألف جنيه، لتعليقه بالمقام الشريف على ساكنه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وفي هذا العام تجددت المعاهدات التجارية بين الدولة العلية وحكومة هولاندة.

وفي سنة ١٠٢٢ ساح السلطان إلى كليبولي، ثم إلى أدرنة، فحصل إختلال في إيالات أردن وبغدان وأفلاق بدسائس دولتي أوستوريا وبولونيا. فغضب لذلك السلطان وأرسل جيشاً، فاستولى على قلعتي (لبوة) و(يانوة). فاتخذت حكومة إيطاليا هذه المشغولية فرصة لإرسال أسطولها، فاستولت به على (مورة) و(إستانكوي) و(منتشاوايج) وما حولهم، متحدة مع حكومة مالطة. فأرسل السلطان قوّة بحرية فدمرت أغلب جزيرة مالطة.

وتصادف إغارة قرصان القوزاق على سواحل البحر الأسود، فأرسلت إليهم سفناً حربية، فأغرقت أغلبهم وهرب الباقون. لكن إتهم نصوح باشا بعدم إستعماله حسن التدبير في هذه الوقائع فقتل لهذا السبب.

وفي سنة ١٠٢٣ إشتد البرد بالأستانة حتى مات به كثير من الناس والحيوانات.

وفي هذا العام ذهب خليل باشا القبودان إلى مالطة، واستولى عليها. ثم إليه طرابلس الغرب، فقتل المدعو لوندا الشقي المتغلب عليها، وأصلح الحال هناك.

وفي سنة ١٠٢٤ أرسل أنجلو جاويش لإحضار الحرير من بلاد العجم المشروط في عقد الصلح كما تقدّم، فعاد صفر اليدين. فبناء عليه عين محمد باشا سرداراً بدل نصوح باشا المقتول فذهب إلى حلب.

وفي سنة ١٠٢٥ قام منها وذهب إلى أرض الروم، ومنها إلى قارص فعمر قلعتها. ثم سافر إلى روان وحاصر قلعتها. وفي زمن قليل دخل الشتاء واشتد البرد، حتى مات كثير من العسكر. وعاد

بلا ثمرة فعزل، وعين بدله خليل باشا، فذهب إلى أرضروم. ثم حصلت فتنة ومشاجرة بين عساكر الروس وبلونيا، وبين عساكر بغدان. فأرسل إسكندر باشا والي بوسنة لإصلاح ذات بينهم، فأطفأ الفتنة وعاد.

وفي سنة ١٠٢٦ طردت الإفرنج الكاثوليك القسس والرهبان من طائفة الجزويت لسبب تداخلهم في الحكومات، (كما حصل من فرنسا في عصرنا هذا)، وكانت طائفة منهم إلتجأت إلى الدولة العلية في غلطة بالأستانة، فلم يعرفوا قيمة الإحسان إليهم. بل أفسدوا طائفة الأروام حتى كثرت في حقهم الشكاوى من الأروام، فقررت الدولة إجلاءهم من الأستانة. فاحتج سفراء فرنسا على ذلك بعض إحتجاجات، فحصل فتور بين الدولتين. وأعقب ذلك دخول سفير ألمانيا الذي جاء لتجديد المعاهدة في الأستانة بالمزامير والطبول، فحصل القال والقيل بين الأهالي لاستصعابهم هذا الأمر.

وفي أثناء ذلك تم بناء الجامع المتقدّم ذكره، ووزع الكثير من الصدقات على الفقراء والمساكين والأرامل والأ والإنعامات على الوزراء. وأعقب ذلك أن السلطان مرض وتوفي في الليلة الثالثة عشرة من القعدة، رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

وكان له ثلاثة أولاد: عثمان، ومراد، وإبراهيم.

* * *

(أسماء الملوك والأمراء المعاصرين للسلطان أحمد وجهاتهم)

أوروبا

أفلاق وبغدان	:	ميخال، ثم سريان، ثم رادوا	حكام.
أردل	:	بوچقاي، ثم سيزسموند، ثم غبريل باطوري	حكام من قبل الدولة.
ألمانيا	:	رودلف، ثم ماتياس، ثم فردنيادوا الثاني	أمبراطورية.
بلونيا	:	سيزسموند	ملك.
فرنسا	:	لوي الكبير.	
ساردنيا	:	شارل أمانويل	ملك.
أسبانيا	:	فليب الرابع	ملك.
انجلترا	:	ألي زايت ملكة، ثم استوارت من قبيلة أورانز.	

آسيا

الصين	:	شيزمونغ	أمبراطور.
العجم	:	الشاه عباس	شاه.
الهند	:	الشاه سليم جهنكر، ثم خرم شهاب الدين	سلطان.

* * *

[١٥] السلطان مصطفى خان الأول أخو السلطان أحمد

ولد المشار إليه في سنة ألف، وجلس في ٢٣ القعدة سنة ١٠٢٦ بالغاً من العمر ٢٦ سنة. بوصية من أخيه السلطان أحمد لصغر سن أولاده.

وهو أول من جلس بالأخوّة من السلاطين. وكان ضعيف الرأي لا شقاوة بل عجزاً، فحصل قيل وقال، وظهرت علامات الفتن والفساد. فاتفق العلماء والوزراء بناء على فتوى على خلعه. فحبس بإحدى غرف السراية بمعرفة مصطفى أغا الذي هو أغادار السعادة في غرة شهر ربيع الأول سنة ١٠٢٧ بعد جلوسه بثلاثة أشهر وتسعة أيام، وأجلسوا مكانه عثمان أكبر أولاد أحمد.

* * *

[١٦] السلطان عثمان الثاني

ولد المشار إليه سنة ١٠١٣ . وجلس سنة ١٠٢٧ بالغاً من العمر ١٣ سنة . فأرسلت الدولة لكل من الدول الأجنبية سفراء لتحديد معاهدات الصلح خوفاً من إتخاذهن الإختلال الداخلي الذي حصل في مدة السلطان مصطفى فرصة للإعتداء على بلاد الدولة.

وفي أثناء ذلك عصت إيالة بوهميا متبوعها أمبراطور ألمانيا ، وعرضت على الدولة العلية قبول تبعيتها لها ، فلم تقبل الدولة العلية ، بل توسطت في إزالة النفور بينها وأصلحت ذات بينهم .

أما الشاه عباس فإنه نقض العهد ، فأرسلت الدولة خليل باشا سرادارا إلى هناك . وقبل وصوله إلى أردبيل إنضم إليه خان قريم بعساكر التتر في صحراء سراو . وهناك وقعت محاربة جسيمة بغتة ، لأن العساكر العثمانيين كانوا في أشد التعب بخلاف عساكر الشاه .

وبعد ساعتين تشتت شمل العساكر العثمانيين ، ووقع حسن باشا أمير أمراء روملي ، ومصطفى باشا أمير أمراء ديار بكر ، وأرسلان باشا وغيرهم قتلى . وأسر كثيرون ، منهم : الحاج محمد باشا ، ورشوان محمد باشا .

وأما عساكر التتر فإنهم ثبتوا في الحرب ثباتاً عجيباً ، غير أنه لوقوع الكثير من الشجعان والأمراء قتلى اضطروا إلى الإنسحاب . وكذلك أظهر عساكر الشام شجاعة عظيمة . أما شاه العجم فإنه لم يغتر بهذا الإنتصار ، بل خاف من الكر ، فعرض الصلح على خليل باشا السردار الذي لم يكن حاضراً بهذه الواقعة ، بل كان في مؤخر الجيش . ولما بلغه الإنهزام المذكور أسرع بالحضور لمحل الواقعة ، فوجد عريضة الشاه بالصلح على شرط أن يدفع سنوياً مائة حمل حرير ومائة حمل من غيره ، فقبل السردار منه وتم الصلح .

وفي سنة ١٠٢٨ بلغ ظلم (غشبر) حاكم أفلاق وبغدان عنّان السماء ، فعزلته الدولة ، فعصى وساعده أحزابه على ذلك . وأمده أمراء بلونيا بستين ألفاً من العساكر بقيادة من يسمى (قانشير) . فأرسلت الدولة إليهما إسكندر باشا والي سلسترة سرداراً ، وأعطي له عشر آلاف عسكري . وانضم إليه عساكر التتر من قريم ، ولم يعرف عددهم .

وفي سنة ١٠٢٩ حصلت أمام مدينة ياش محاربة عظيمة ، إنهزمت فيها عساكر غشبر وقانشير ففر الأول ، وطلب الثاني الصلح على شرط دفع مائة ألف فلورين حمراً للسردار، وللسلطان مبالغ وافرة لم أقف على مقدارها . فمال السردار إلى القبول . فخالفه (قانتمر) أحد أمراء قريم ، وقتل السفير الذي جاء للصلح ، وأرسل للعدو خبراً بالحرب . فاندهش قانشير وأراد الهروب بمن بقي معه من جيشه ، فلحقه السردار بالتغقيب عند معبرة صوباشي ، فوقع الحرب ليلاً على ساحل نهر طورلة لمنع العدو من العبور به بواسطة شجعان التتر. فلم يبق في هاتين الواقعتين من الستين ألفاً غير بضع مئات . وقيل لم ينج إلا أربعمائة نفر، ووقع نحو مائة من أمراء وضباط بلونيا ما بين قتيل وأسير. أما قانشير فإنه قتله البغدانيون لتبرئة ذمتهم لدى الدولة ، فعاد الجيش ظافراً غانماً إلى بلاده .

وفي سنة ١٠٣٠ نزل الثلج بالأستانة ستة عشر يوماً متواليات حتى جمد البحر فيما بين سراي بورني واسكدار، حتى صار العبور عليه بالعربات والمواشي . فلهذا السبب انقطع مرور السفن به ، ونتج من ذلك القحط والغلاء .

وفي هذا العام عادت بلونيا للتحريك والفساد . فغضب السلطان ، وأراد أن يذهب بنفسه إلى الحرب ، وشوّقه إلى ذلك علي باشا الصدر الأعظم . فتوسطت إنكلترا في الصلح فلم يقبل . ثم مات الصدر الأعظم ، وعين بدله حسين باشا . ثم قام السلطان بجيشه وعبر نهر طونة حتى قربوا من بلونيا ، فتعب العسكر وأظهروا بعض العصيان . ولما صار تشجيعهم بالعطايا الجزيلة رجعوا عن العصيان ، ومضوا حتى قربوا من قلعة (خوتين) ، وهناك قامت الحرب بين مقدّمة الجيش وبين ستين ألفاً من عساكر العدو، وحصلت خسائر بالجهتين ، ووقع محمد باشا قرة قاش شهيداً بأغراض نفسانية لحسين باشا الصدر الأعظم ، ومات أغلب من كان معه حيث لم يرسل له إمداداً . وحصل فتور عام للعسكر، فلم يتيسر فتح القلعة . وقد أظهر قانتمر مرزا قائد عساكر قريم شجاعة وغيرة بما أبهر العقول .

وأخيراً تم الصلح بواسطة حاكم بغدان . ومضمونه : أن البلونيين لا يعتدون مرة أخرى ، وأن الإنتصار نسب للسلطان حيث كان طلب الصلح من الأعداء ، فعاد السلطان إلى الأستانة في أوائل ربيع الأول سنة ١٠٣١ . وقد وافق تاريخ هذا الحرب حساب (زهي غزا) .

* * *

(واقعة فظيعة محزنة غريبة)

قد تقدّم أن اليكيجريين هاجوا وعصوا في سفر تلك الواقعة. فغضب السلطان عثمان وعلم الرؤساء المتسببين في حركة العصيان. فلما عاد إلى الأستانة شدّد بمنع شرب الدخان الذي وجد من منذ خمسة عشر سنة، وكان ممنوعاً من مدّة سلفه، وكان مجلوباً من أمريكا بواسطة تجار من دولة فلمنك. وشدّد أيضاً بمنع المسكرات حيث أن أخلاق الأمة ساءت بسببها، فصار يخرج في أغلب الليالي مختفياً بتغيير الزي، وكلما وجد من المحركين مخالفة بتعاطي ما نهى عنه أدبهم تأديباً صارماً حتى كسر نفوذ بعض الوزراء فاغتاظ الكثيرون. وقد علم هو بذلك علم اليقين، فأراد إيجاد طريقة لتمام تأديبهم جهراً. فأشار عليه بعض ندمائه وأصحابه بالذهاب إلى الحج.

فلما أشيع ذلك ظن أعداؤه أن الغرض من هذا السفر هو إيجاد جيش آخر مطيع من العرب والشام ومصر وغيرها لمحو وإلغاء اليكيجريين كلياً. فلما بلغ السلطان ذلك أصابه نوع الحيرة، فرأى النبي ﷺ مناماً في حالة شبه عتاب، فعبَّره عمر أفندي الشهير بتأييد نية السلطان على الحج، فلم يقتنع. فطلب تعبيره من محمود خداي الإسكداري وهو عزيز وقته، فعبرها له تعبيراً حسناً، ونصحه بعدم السفر.

لكنه لنفاذ التقديرات الإلهية صمم على السفر للحج، وذبح القرابين في أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، وفرقها على الفقراء والمساكين. وظهرت علامات تدل على أنه عازم على عبور البحر إلى إسكدار، فظهرت فجأة ثورة لم يسبق لها مثال.

وذلك أن اليكيجريين والسياهيين [١] هجموا متسلحين على بيوت الوزراء فنهبوها. ثم اجتمعوا في آت ميدان [٢]، فأرسلوا بعضاً من العلماء إلى السراية، وطلبوا رؤوس الكثيرين، منهم: عمر أفندي إمام السراية، ورئيس أغوات الحريم، والصدر الأعظم، وغيرهم ممن له مصاحبة مع السلطان.

فلما مضى زمن ولم يروا أحداً من العلماء لا ذاهباً ولا عائداً، ذهبوا عاجلاً إلى السراية ودخلوها جميعاً. فهددهم الخفراء والجنانيون والبوابون المتسلحون بها، وحذروهم من الدخول. فلم يصغوا لقولهم، وقابلوهم بالقوّة مما جاء بأيديهم من أخشاب وأحجار وغيرهما. فاقتتلوا مدة ساعتين. وقال

(١) نوع من العساكر.

(٢) محل بالأستانة معناه ساحة الخيل.

قائل منهم: إننا نريد إعادة السلطان مصطفى للسلطنة. فقالوا جميعاً: نعم، إننا نريد السلطان مصطفى. ونادوا بذلك بأعلى أصواتهم. ثم صعد البعض منهم على سطح السراية حتى وصلوا إلى غرفة السلطان مصطفى، فأخذوه وأجلسوه في غرفة السلطنة.

أما السلطان عثمان فإنه لما رأى دخولهم السراية من الداخل سلم لهم الصدر الأعظم دلاور باشا وسليمان آغا أحياء فقطعوهما إرباً، وتفرقت في جهات متعددة. فقال لهم العلماء: أيها الرفقاء، إن السلطان أعطى لكم ما طلبتموه، وإن السلطان مصطفى مسلوب العقل لا تجوز مبايعته. فلم يتم كلامهم إلا وقد هجموا عليهم وأكرهوهم على المبايعة.

أما السلطان عثمان فبينما هو يفكر في أمر نجاته من هذه المصيبة، وإذا ببعض الأشقياء تحصلوا عليه، وأنزلوه من السراية في غاية من التحقير، وأرسلوه إلى يدي قلة، وسلموه لـداود باشا الذي عينه الأشقياء صدراً أعظم، وكان أذنب مرتين بما يوجب قتله. والسلطان عثمان يعفو عنه. فما كان منه إلا أنه قتل السلطان عثمان شهيداً رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

ووقع تاريخ قتله (شهيداً ولدى عثمان) ومعناه صار عثمان شهيداً.

وفي مشهده بكى الكثيرون من الأهالي. وكاد أن يحصل قتال عمومي بالأستانة.

أما هيئة الحكومة فقد اختلت كلياً وصارت فوضى. ثم أعقب ذلك حصول مصائب كثيرة منها أنه حصل حريق هائل، فأحرق بدستان وجميع السوق الشهير. ثم أمطرت السماء أياماً متواليات بشدّة حتى تهدّمت بيوت كثيرة، وبقيت المياه في الشوارع والحواري شهراً. ثم جاء طاعون أخلى كثيراً من البيوت، ثم قحط عظيم لم ير مثله. نسأل الله السلامة في ديننا ودنيانا. ولم يعقب إلا ولداً مات صغيراً.

ولما أجلس السلطان مصطفى ثانياً إستمر الفساد، ولم يبايعه أسعد أفندي شيخ الإسلام، عزل وعين بدله يحيى أفندي إبن زكريا أفندي.

أما داود باشا الصدر الأعظم فإنه صار يؤدّي للأشقياء جميع ما يطلبونه خوفاً منهم، حتى خلت الخزينة.

ثم إن الأشقياء صاروا يقتلون أرباب المناصب وينهبون أموالهم، حتى عم هذا الإختلال جميع الولايات فملت الأهالي. ولما علم الأشقياء مقدار ما أحدثوه من الفساد خافوا العاقبة، وزعموا أنه

بهجومهم على السراية السلطانية مرة ثانية وقتلهم داود باشا الصدر الأعظم والجبه جي[١] تبرأ ذمتهم، وترضى عنهم الأهالي. فهجموا قائلين: إنا نريد قاتلي السلطان عثمان فقتلوهما.

وفي ظرف ثلاثة أشهر تغيرت الصدارة أربع مرات من حيث أن اليكيجريين على مشرب مناقض لمشرب السباهيين فزاد الفساد.

ثم إن من يدعى بكر صوباشي ببغداد اتفق مع العسكر وقتل يوسف باشا أمير أمراء بغداد. فأرسل إليه سليمان باشا من الشام.

ثم هجم عساكر بلونيا على بغدان وأفلاق، فأرسل إليهم قانتمر مرزا بفرقة من العساكر التتر فهزمهم. فاغتاظ ملك بلونيا وأرسل سفيراً للأستانة بطلب عزل قانتمر المذكور فلم يجب.

وفي أثناء ذلك أرسل ملك الموسكو سفيراً للدولة العلية بطلب محو بلونيا وتقسيمها بينه وبينها فلم يحصل إتفاق.

وفي سنة ١٠٣٢ إهتم محمد باشا كرجي الصدر الأعظم بإعادة نظام الدولة، غير أن السباهيين إنتشروا أمام الديوان، وقالوا: يلزم إظهار قاتلي السلطان عثمان. وبهذه الوسيلة قتلوا الكثير من الباشوات.

وفي هذه الأثناء أفسدت طائفة الجزويت من قسيسي فرنسا بين الأروام، فتداخل سفير فرنسا، وطلب عزل كريلوس بطريق الأروام. فاضطرت الدولة إلى الإجابة نظراً للإضطرابات الحالية. فثارت الأروام.

وفي أثناء ذلك تسابق اليكيجريون على السباهيين في الفساد وقلة الحياء، وفي النهب والسلب. ولما رأى أبازة باشا الذي كان أميراً في سيواس تلك الإختلالات، استقل حاكماً على جهات (سيواس وقيصرية وأنقرة) وما حولها، ثم هجم على بروسة. فجاءت الشكاوى من أهلها.

وأما الشاه عباس فإنه اتخذ هذه الإرتباكات فرصة، فأرسل إمداداً لبكر الصوباشي المفسد لبغداد، القاتل ليوسف باشا كما تقدم.

وأما بر الشام فإن الفساد عم به، وعصى إبن معن الدرزي.

(١) إسم وظيفة كانت في ذلك الوقت، وهي مثل الشماشرجي.

والحاصل أن الفتن والفساد عما جميع الجهات في ذلك الحين، وكلما يسمع السلطان بشيء من تلك الفتن يزداد غمه حتى بلغ درجة الجنون، وصار في أغلب الليالي يبحث عن عثمان في جميع غرف السراية باكياً عليه.

وأما حسين باشا الصدر الأعظم الأخير فإنه لم يشتغل لإصلاح حال الدولة بشيء، بل كان إهتمامه بأخذ الثأر من أسلافه.

ولما عمّ الفساد وصار فوق طاقة العامة إجتمع العلماء وأصروا على عزل حسين باشا الصدر الأعظم، وتعيين علي باشا كمنكش بدلاً عنه. ثم في اليوم نفسه إجتمع الوزراء معهم وباتخاذ الآراء، خلعوا السلطان مصطفى. وأجلسوا السلطان مراداً الرابع أخا السلطان عثمان المقتول، وإبن السلطان أحمد الأول.

* * *

[١٧] السلطان مراد الرابع فاتح بغداد

ولد المشار إليه سنة ١٠٢٠، وجلس في يوم الأحد الرابع عشر من ذي القعدة سنة ١٠٣٢، بالغاً من العمر إحدى عشرة سنة وكسور، ومدّة سلطنته سبع عشرة سنة.

وبعد جلوسه توزعت العطايا المعتادة، وكانت والدته ماه بيكر ذات عقل وتدبير، فبحسن تدبيرها، صار تولية أرباب المناصب من ذوي الكفاءة والإستقامة حتى انبثت روح الحياة في الدولة. وفي الحال أرسل إمداداً لحافظ باشا سردار بغداد.

وفي سنة ١٠٣٣ وقد تقدّم أن من يدعى بكر صوباشي من أعيان جهة بغداد تغلب عليهم، وقتل يوسف باشا أمير الأمراء شهيداً، واستولى هذا الشقي على القلعة، وعين نفسه والياً عليها بإمداد من الشاه عباس كما تقدّم. فالدولة العلية عينت سليمان باشا والياً على بغداد، وحافظ باشا سرادارا لاستردادها من الشقي المذكور.

وكان حافظ باشا ذا حزم وتدبير، فافتكر أنه إذا ضيق على بكر، ربما يسلم القلعة للشاه عباس فيصعب إستردادها، فطلب من الباب العالي تعيين بكر المذكور والياً على بغداد موقتاً لتسهل إزالته. غير أن أرباب الحل والعقد بالأستانة، نظراً لعدم الأمن في ذلك الوقت، دخلهم الشك في هذا التدبير خوفاً من أن يكون حافظ باشا له مأرب مع بكر المذكور، فأرسلوا له فرماناً سلطانياً بإزالة بكر بالقوّة. فبناء عليه عزم حافظ باشا السردار المذكور على التنفيذ بما ذكر.

وأما بكر الشقي فإنه علم عجزه عن المقاومة، ودعى الشاه عباس لتسليم القلعة إليه. وكان الشاه عباس منتظراً مثل هذه الفرصة، فأرسل في الحال ثلاثين ألفاً وهو على أثرهم. ولما بلغ ذلك حافظ باشا أرسل منشوراً لبكر المذكور بولايته على بغداد من قبل الدولة وأرسله بواسطة حاكم العمادية. فلما رأى بكر ذلك ندم على دعوته الشاه عباس فأظهر له العداوة والمقاومة ضدّه فغضب الشاه غضباً شديداً وحاصر بنفسه على بغداد ودس دسائسه على الدلى[١] محمد بن بكر المذكور

(١) معناه المجنون.

ببعض مواعيد عرقوبية . فما كان من هذا الجنون إلا أن مكنه من القبض على أبيه ، فوضعه الشاه في قفص حديد . وبعد سبعة أيام أضرم ناراً بجوار القفص فكان الصديد يسيل منه وهو حي حتى مات بهذا العذاب الأليم .

ثم ان الشاه عباس استولى على بغداد في ظرف ثلاثة أشهر وملأها بشيعته . وقتل نحو ثلاثين ألفاً من أهلها حتى بلغ غدره وظلمه إلى عنان السماء . ثم أرسل قاسم خان إلى كركوك والموصل فاستولى عليهما بلا حرب ، حيث لم يكن بهما عسكر . غير أنه لحقه من يدعى كوجك أحمد من شجعان الأرانطة بخمسة آلاف عسكري ، فطرد قاسم خان ، وآستردّهما . فعين حافظ باشا سليمان إبن أخ أحمد المذكور والياً على الموصل .

أما حافظ باشا فلقلة جيشه لم يحارب الشاه .

أما الصدر الأعظم علي باشا كمنكش فإنه عزل من الصدارة بتهمة كتم خروج بغداد من يد الدولة عن السلطان ، وعين بدله محمد باشا الشركسي ، وأضيفت إليه وظيفة السردارية لدفع غائلة أبازة باشا من الأناضول ، واسترداد بغداد من شاه العجم . فقام أولاً بتشتيت شمل عصاة الأناضول ، وهرب أبازة باشا إلى جهة أرضروم . فلما وصلها أظهر أنه غير عاص ، بل غرضه أخذ ثأر السلطان عثمان المقتول ظلماً . فلمحبة الأهالي في السلطان عثمان إجتمع معه أربعون ألف مقاتل ، فقتل من كان موجوداً من اليكيجريين في أرضروم وكرجستان وما حولهما . ثم وصل بهذا الجيش إلى توقاد فهرب منها اليكيرجريون جميعاً ، وأعطى الأمان للأهالي .ثم عزم على الحضور إلى الأستانة لإبداء ما في ضميره للسلطان . وإذا بخبر أتاه أن طيار باشا استولى على سيواس ، فذهب لاستردادها .

وأما محمد باشا الصدر الأعظم فإنه أخذ قوّة جسيمة لإستئصال أبازة باشا . فلما بلغه ذلك قام من سيواس لمحاربة الصدر الأعظم ، فتقابلا في صحراء قونية ، واقتتلا ، فقتل كثيرون من الطرفين . ثم إنهزم أبازة باشا ومن معه إلى أرضروم ، فطارده أمير أمراء روملي فقتل أكثر الفارين . ولدخول فصل الشتاء عفا الصدر الأعظم عن أبازة باشا ، وعينه والياً على أرضروم ، وعاد هو إلى توقاد .

وفي هذا العام عصى محمد كراي المعزول وهو خان قريم سابقاً بتحريك أخيه جاهين كراي ، فعينت الدولة جان بك كراي خانا على قريم ، ولتنفيذ ذلك أرسلت رجب باشا الأميرال .

أما محمد كراي فإنه جمع جيشاً كبيراً ، وعبر به نهر الطونة ، وآستولى على يركوي والإسماعلية .

أما رجب باشا فإنه عاد مغلوباً بخسائر جسيمة، فاضطرت الدولة لإعادة محمد كراي المذكور خانا على قريم.

وفي أثناء مشغولية رجب باشا بالحرب المذكور دخل قرصان القوزاق الأشقياء البحر الأسود بمائة وخمسين سفينة، فوصلوا إلى بوغاز الأستانة، ونهبوا (بكي كوي)(١). وفي أثناء ذلك مات الصدر الأعظم في توقاد، وعين بدله أحمد حافظ باشا والي ديار بكر.

وفي سنة ١٠٣٤ أرسل الشاه عباس (قارجغاي خان) سرعسكر بثلاثين ألفاً إلى كرجستان التابعة للدولة العلية، فقاومه أهلها برئاسة حسين باشا والي جيليدير، وقتلوا أغلبهم، وتشتت شمل الباقي منهم.

وكان الصدر الأعظم أحمد باشا حافظ إذ ذاك في صحراء جولك، فاتحد مع أمير الأمراء والمآمير، وذهب إلى بغداد وحاصروها. وحاربهم الشاه مراراً عديدة، ومات غالب عسكره. وبعد تسعة أشهر من الحصار طلب الصلح على شرط تسليم بغداد، وسائر ما آستولى عليه من الجهات حديثاً. أعني البلاد التي كانت موجودة تحت يد الدولة العلية من قبل الفتنة الكبرى، وقتل السلطان عثمان الشهيد، بحيث ترد للدولة العلية كما كانت. فقبل الصدر الأعظم، وأرسل نسخة المعاهدة والصلح، وإذا باليكيجريين عصوا عن الحرب. ولما رأى الشاه ذلك امتنع عن الإمضاء فاضطر الصدر الأعظم إلى العودة إلى الموصل.

وأما الجيش العاصي فقد إبتلاه الله بالجوع والمشقة حتى مات منه أكثر ممن مات في الحرب لحين وصوله إلى الموصل.

وفي سنة ١٠٣٥ هجم الأوجاقيون (٢) بالأستانة على محمد علي باشا كرجي قائمقام الصدر الأعظم وقتلوه، قولاً منهم أنه أهمل في إرسال الإمداد إلى بغداد. وكان عمره سبعين سنة رحمه الله تعالى. فعين بدله رجب باشا القبودان، وعين بدله حسن بك ميراخور وأنعم عليه برتبة الوزارة. وقام في الحال بالأسطول إلى البحر الأسود فأغرق مائة وخمسين سفينة من السفن الصغار والزوارق بأربعة آلاف ممن كان فيها من القوزاق، وطهر منهم البحر الأسود. ثم بنى قلعة أوزي لتكون حاجزاً بين البحر الأسود وبين هذه الطائفة.

(١) معناه القرية الجديدة.

(٢) إسم ضباط اليكيجريين.

وفي سنة ١٠٣٦ عزل أحمد باشا حافظ الصدر الأعظم لأغراض شخصية، وكان رجلاً حازماً شجاعاً مدبراً. وعين بدله خليل باشا. فقام الأخير إلى ديار بكر لمحاربة أبازة باشا المعلوم أمره مما تقدّم، حيث إنه رجع إلى العصيان مرة أخرى. فلما وصل إلى ديار بكر بلغه أن عساكر شاه العجم حاصروا قلعة (أخسخا)، فأرسل إلى هناك فرقة فقابلها أبازة باشا وأظهر مساعدتهم. لكن توهم أن الصدر الأعظم أضمر له السوء، فجاء إلى العسكر وهجم على حين غفلة، وقتل كثيراً من اليكيجريين. فغضب الصدر الأعظم، وذهب إلى أرضروم لمحاصرتها، وأخذها من أبازة باشا والقبض عليه. فوقعت محاربات كثيرة حتى مات كثير من الباشوات والبكوات.

ثم قرب فصل الشتاء فاضطر الصدر الأعظم إلى عودته بالجيش خوفاً من حصول مجاعة للعسكر وموتهم بالبرد، ولم يرسل إمداداً لإنقاذ قلعة (أخسخا) من يد عساكر الفرس. وكانت تلفيات العسكر في هذا السفر عشرين ألفاً.

وفي سنة ١٠٣٧ إتحد النمسا والمجر والخروات، وهجموا على ولايتي (بشتا وخطوان). فأرسلت الدولة مرتضى باشا بفرقة من العساكر متحداً مع حاكم (أردل) فوقعت الحرب، واستمرت ثلاثة أشهر، وقتل من الأعداء عشرون ألفاً، وكانوا ستين ألفاً. ولم أقف على عدد جيش الدولة، ولا على مقدار من مات منهم بهذه الواقعة. ثم طلبت الاعداء الصلح بالكف عن الحرب مدّة خمسة وعشرين سنة.

وفي هذا العام عزل خليل باشا الصدر الأعظم بناء على عدم حزمه في واقعة أبازة باشا، وعين بدله للصدارة خسرو باشا، وكان غيوراً شجاعاً صادقاً. ففي الحال أسرع باليكجيريين إلى أرضروم، فاستولى على قلعتها، وقبض على أبازة باشا في الحال. فطلب منه الأمان والعفو فعفا عنه، وعينه مأموراً بالجيش. وعين بدله في ولاية أرضروم محمد باشا الطيار، وأعطى له ثلاثة آلاف من اليكيجريين للمحافظة.

وفي سنة ١٠٣٨ جاءت جملة من خانات العجم إلى جهة قارص للإستيلاء عليها. ولما بلغهم تسليم قلعة أرضروم للصدر الأعظم عادوا مسرعين. فقطع الصدر الأعظم طريقهم، وقبض على الجميع أحياء، وعاد بهم إلى الأستانة.

وفي هذه الأوقات حصل من شريف مكة ووالي مصر مخابرة سرية فيما بينهم ضد الدولة. ثم ظهر من يدعى الإمام محمد باليمن، وهو رئيس الزيدية ومعه أكثر من مائة ألف نفس، وأعلن أنه هو

الخليفة الحقيقي ، وضرب نقوداً بإسمه ، وحاصر حيدر باشا والي اليمن بمدينة صنعاء ، فأرسلت الدولة فرقة من العساكر إمداداً له . ولكن من سوء حركات قانصوه باشا أحد أمراء مصر لم تحصل ثمرة من هذا الإمداد ، بل إستولى الإمام محمد المذكور على صنعاء . ثم وصل إلى جدّة وقتل شريف مكة وأجلس بدله الشريف مسعود . وقد مات في هذه الأثناء الشاه عباس ، وجلس بدله الصيفي مرزا .

وفي سنة ١٠٣٩ عصى محمد كراي خان قريم ، وآعتدى بأربعين ألفاً من القوزاق ، فاهتم خسرو باشا به حتى شتت شمله .

وأما خسرو باشا المذكور فإنه أصلح أحوال أوروبا التركية ثم ذهب لاسترداد بغداد ، وفي الطريق محا جميع الأشقياء من بيكوات الأكراد . وكلما مر بجهة جعلها في نظام ، ورتبها ترتيباً حسناً ، وبث الأمن بها ، حتى وصل إلى شهر زور واستردّها في الحال من يد الأعجام . ثم شتت شمل أربعين ألفاً من عساكر الفرس بقيادة زينل خان بجوار قلعة مهربان . وآستولى على ولايات أردلان وهمدان وقلعة دركزين .

وفي سنة ١٠٤٠ حاصر بغداد ، وشتت شمل عساكر الفرس الامدادية . ثم قرب دخول فصل الشتاء .

وفي الواقعة الأخيرة إنهزمت عساكره بأسباب بعض أصحاب الأغراض لملل العساكر من كثرة الوقائع وتواليها ، فاضطر إلى ترك محاصرة بغداد وعودته إلى الموصل بعد أن أقام خليل باشا محافظاً على الحلة ومعه عشرة آلاف عسكري . ثم أرسل الشاه صيفي ميرزا أربعين ألفاً إلى الحلة فحاصروها ، فقاومهم خليل باشا ثلاثة أشهر . ولما لم يأته مدد ولا ذخيرة مع حصول قحط إذ ذاك قطع الأمل ، فهيأ مقداراً من فرسان عسكره وهجم بهم على عساكر الفرس ، فخرق صفوفهم ونجا هو ومن معه . لكن باقي العسكر إستأمنوهم وسلموا لهم الحلة ، فلم ينفع إستئمانهم ، بل قتلوا أكثرهم .

أما خسرو باشا فإنه أصلح أحوال قريم ، واستمال إليه محمد كراي ، وأخذ عساكر قريم إلى ديار بكر ، وآهتم بجمع قوّة كافية لإسترداد الحلة وبغداد . وإذا بأمر بعزله وعودته بالجيش للأستانة ، وعين للصدارة العظمى حافظ باشا الداماد .

لكن في الطريق حصل هيجان بالجيش لغضبهم من عزله ، حيث إنه كان شجاعاً كريماً مدبراً مصلحاً . فنصحهم نصيحة صادقة ، حيث إنه كان غيوراً قائلاً لهم : إن أحوال الدنيا هكذا ، يعزل واحد ويولى آخر ، وهو يفضل طاعتهم للدولة عن محبتهم له . فأطاعوا أمره . ووصل الجيش بغاية النظام للأستانة .

لكن كانت شرارة الفساد التهبت في جهات قرمان وسيواس وما حولها حيث أن السباهيين عثوا في الأرض فساداً. وعلاوة على ذلك فإن الأوجاقيين الموجودين بالأستانة لما تقابلوا مع رفقائهم الذين كانوا بالجيش، كثر بينهم القال والقيل.

وكان عزل خسرو باشا من الصدارة وحضور الجيش للأستانة مصيبة كبرى على الدولة، حيث اغتاظ رجب باشا القائمقام الصدارة بالأستانة من تعيين حافظ باشا للصدارة دونه، فحرك سائر الأوجاقيين على إتلاف المتسببين في عزل خسرو باشا. وبالطبع أشار عليهم بأن أولهم حافظ باشا الداماد المعين بدلاً عن خسرو باشا كما يظهر مما يأتي. وذلك أنه في صباح ذات يوم حصلت بغتة علامات ثورة عسكرية حتى قفلت الدكاكين وتعطلت الأسواق. ثم هجموا على السراية السلطانية ثلاثة أيام متوالية بحركات متتابعة تشبه حركات قتل عثمان الشهيد. فخرج السلطان مراد إلى الديوان ونصحهم كثيراً فلم ينتصحوا، بل ولم يصغ أحد منهم لشيء مما نصحهم به من شدة غلظتهم الناشئة من تهيج أفكارهم. وطلبوا تسليم يحيى أفندي شيخ الإسلام، وحافظ باشا الصدر الأعظم، ومصطفى باشا الدفتردار، وأربعة عشر من أمناء السلطان. فأحضر السلطان رهطاً رؤسائهم أمامه. وقال لهم: إننا أمة إسلامية، ولنا شريعة مطهرة يجب علينا إتباعها، وهذه الأعمال تخالف الدين والشريعة والآداب. وطلب منهم اقناع رفقائهم بالكف عن هذه الأعمال السيئة. فما زادوا إلا طغياناً وعناداً.

أما حافظ باشا فإنه توضأ ووقف على باب السراية منتظراً. فلما رأى هبوط مسعى السلطان وزيادة عنادهم قال ما ترجمته: سيدي وسلطاني إني أفدي بروحي في صالحك، وإن هؤلاء الطغاة لا يثمر فيهم النصح. فلا تتعب نفسك فيما لا يكون له نتيجة. ثم خرج إلى ميدان البلاء بنفسه، وكل من يهجم عليه منهم يضربه في فمه لكماً فيخر ميتاً، حتى تكاثروا عليه بالخناجر. وعلى مرأى من السلطان قطعوه إرباً. فتولى الصدارة العظمى رجب باشا المذكور، وعزل يحيى أفندي شيخ الإسلام، وسكنت الفتنة على ذلك.

وأما السلطان فإنه غضب غضباً شديداً، وأرسل مرتضى باشا إلى توقاد لقتل خسرو باشا الصدر الأسبق حيث أن هذه الفتنة قامت بسبب عزله، توهماً أنه هو المحرك لها، مع أن الواقع خلاف ذلك كما يؤخذ مما تقدم من نصحه للعساكر، ومما هو معلوم من شدة نصحه للدولة.

أما رجب باشا فإنه استقل برأيه، وأراد محو بعض المقربين للسلطان حتى لا يعارضه في أمره أحد. فحرك الأوجاقيين على طلب المتسببين في قتل خسرو باشا. فهجموا على السراية، وطلبوا

الدفتردار باشا، وحسن خليفة، وموسى چلبي من مقربي السلطان، وقد استحوذوا عليهم وقتلوهم شهداء.

وبعد ذلك خرج هؤلاء الأشقياء عن أطوارهم، وكلما أرادوا شيء أجبروا الوزراء على تنفيذه، حتى مل السلطان فاضطر لاقتحام صعاب الأمور، وتولي الإدارة بنفسه. وأحضر رجب باشا أمامه فأمر بقتله خنقاً، وعين بدله محمد باشا الأرنؤوطي ثم تحصل على إحضار رؤساء الأشقياء أفراداً وأزواجاً وقتلهم. ثم خرج جهراً بمن معه في الاسواق والشوارع، وكل من يجده منهم يقتله. وبعضهم يدخله في الزكايب ويرميه في البحر حياً حتى طهر الأستانة منهم، وأخذ ثأر أخيه عثمان الشهيد.

وفي سنة ١٠٤٢ طهر هذا السلطان الشاب الغيور الغضنفر الأناضول من الأشقياء والعصاة ومحا وجودهم، كما طهر الأستانة. ثم أطفأ الفتن في الحجاز ومكة المكرمة في هذه المدة الوجيزة.

وفي سنة ١٠٤٣ إستولى توخنة خان قائد عساكر الفرس على وان وما حولها، فأرسل إليه محمد باشا الصدر الأعظم. وإذا بخبر أتاه في الطريق باسترداد وان بمعرفة خليل باشا أمير أمراء أرضروم. فعاد إلى حلب، وحارب إبن معن الدرزي الذي عاث في الأرض فساداً مدة طويلة في جبل لبنان وبعلبك، واتفق أخيراً مع حكومة إيطاليا على معاداة الدولة العلية. فانتصر محمد باشا عليه وأسره مع جملة من أكابر أعوانه.

وفي أثناء ذلك إعتدى القوزاق وملك بلونيا على بلاد الدولة، فقام السلطان عازماً على الذهاب إلى هناك وإذا بخبر أتاه أن أبازة باشا الشهير جمع كثيراً من عساكر التترونغاى فقتل كثيراً من عساكر القوزاق، وأسر أكثرهم، ففدوا أنفسهم بمبالغ جسيمة، وتم الصلح. وعقب ذلك جاء أبازة باشا إلى الأستانة، وتقرّب للسلطان. وبعد قليل تداخل بين الأرمن والأروام في منازعاتهم المذهبية فكان هذا سبباً لقتله.

وفي سنة ١٠٤٤ جهز السلطان قوّة عظيمة، وعين بيرم باشا محافظاً على الأستانة، ثم ذهب لمحاربة الفرس. وكان ذهابه يشبه ذهاب السلطان سليم الأول لمحاربة الشاه إسماعيل في حصول بعض تمرد من الأوجاقيين واليكيجريين، فصار يقتل كل من يتمرد حتى أدهش العسكر من شجاعته وشدّة بأسه، فخافوا واستقاموا. ولما وصل إلى روان فتح قلعتها في الحال وأسر محافظها طهماسب بن ميركون.

وفي سنة ١٠٤٥ قام السلطان من هناك حتى وصل إلى تبريز في إثنين وعشرين يوماً ، فهرب رستم خان إلى خانان ، وطلب الصلح . فلم يقبل بل ذهب إلى جهة وان ، وطلب من الشاه الحرب . فلم يجسر بل هرب من جبل إلى جبل بقصد إطالة الزمن لدخول الشتاء . فأبقى السلطان ما لزم لمحافظة روان وغيرها وأبقى الصدر الأعظم في ديار بكر ، وعاد هو بالأستانة لتمضية فصل الشتاء بها .

وفي سنة ١٠٤٦ حاصر الشاه بعساكر كثيرة روان ، ومن شدّة البرد لم يحصل إرسال مدد حتى آستولى عليها الشاه . وبناء عليه عزل محمد باشا الصدر الأعظم وعين بدله بيرم باشا .

وفي سنة ١٠٤٧ عزل حاكم أردل المدعو (راقوجة) ، وعين بدله (تبلن أشتوان) ، فعصى الأول . فحاربه بكر باشا بجوار نهر موروش مراراً . وأخيراً إنهزم وفرّ ، وغنم بكر باشا وعسكره ذخائره .

وفي أثناء ذلك إستولى القوزاق على قلعة أزاق ، وقتلوا أكثر من فيها من المسلمين .

أما شاه العجم فإنه خاف من ذهاب السلطان إليه في أول الربيع ، فأرسل سفيراً إلى الأستانة معتذراً وطالباً العفو عنه . فرده السلطان بالقول : إن الجواب عن ذلك سيكون في بغداد . فخاف الشاه ، واستعد للحرب . أما السلطان فإنه عين موسى باشا قائم مقام عنه بالأستانة .

وفي سنة ١٠٤٨ ذهب بجيشه لاسترداد بغداد ، وقتل في الطريق كثيراً من الأشقياء وأصحاب الجرائم . منهم : درويش أحمد المدّعي المهدوية الذي ضبط محل الشيخ كامل من السادات بجوار نهر سقرية ومعه خمسة آلاف من فوارغ العقول الجهلة . ونفى أبا بكر جلبي شيخ سجادة الطائفة من قونية ، وعين بدله عارف جلبي .

وفي أثناء ذلك مات الصدر الأعظم بيرم باشا رحمه الله تعالى ، وأحضرت جنازته للأستانة ، وعين بدله طيار باشا محافظاً للموصل .

ثم إن السلطان حاصر بغداد أربعين يوماً . وفي أثناء هذه المدّة حصلت وقائع حرب مات فيها من الفرس ثلاثون ألفاً . ومات فيها طيار باشا الصدر الأعظم شهيداً ، وعين بدله مصطفى باشا القبودان . وبعد إسترداد بغداد وجميع ما آستولى عليه الفرس ، عاد السلطان إلى الأستانة ومعه إثنان وعشرون خاناً من خانات الفرس أسراء ، ودخل الأستانة بموكب فاخر . ومدة غيبته بهذا السفر كانت ثلاثة عشر شهراً .

أما الصدر الأعظم مصطفى باشا فإنه أتم تجهيز معاهدة الصلح مع الفرس بإضافة قلعة درتنك للدولة العلية . وبالجملة فإنه كان لصالح الدولة العلية جداً ، ثم عاد للأستانة .

وفي هذه الأثناء عاد قرهان القوزاق بالبحر الأسود ، فأغرقت دونانمة الدولة الكثير منهم .

وفي هذا العام مات السلطان مصطفى المخلوع مرتين كما تقدم ، ودفن بمدفنه المؤسس له المتصل بجامع أيا صوفيا .

وفي سنة ١٠٤٩ دست جمهورية دولة الونديك دسائسها على إفساد أهالي هرسك الألبانيين والأشقودرة ، فسلط السلطان العساكر الموجودين في ولايتي بوسنة وهرسك عليها ، فاضطرت إلى الصلح .

ثم مات السلطان رحمه الله تعالى رحمة واسعة بالغاً من العمر ثماناً وعشرين سنة . وكان شجاعاً مهاباً مشابهاً للسلطان سليم الأول في العزم والحزم وعلو الهمة ، ولم يرزق بولد .

* * *

(أسماء الملوك والأمراء المعاصرين للسلطان مراد الرابع وجهاتهم)

أوروبا

الروسيا	: ميخال من قبيلة رومانوف	ملك .
بلونيا	: لادسلاس السابع	ملك .
فلمنك	: فرادريك هانر	ملك .
ألمانيا وأستريا	: فردينياندو من قبيلة هابسبورغ	ملك .
دانيمارك	: شارل ستواد الأول .	
أسبانيا - برتغال	: ـــ نابولي : فليب الرابع .	
أسوج ونوروج	: كوستاو الثاني من فاملية غستا ووازا .	
فرنسا	: الأمبراطور لوي الثالث من فاملية بوربون	أمبراطور.
بروسيا	: جورزكوبلوم	دوق .
إنكلترا	: جاق ، ثم بعد خلعه وإعدامه سنة ١٦١٩ تحوّلت جمهورية .	

آسيا

الصين جابون	: هيجونغ ، ثم هواي جونغ .
الهند	: السلطان سليم ، ثم شهاب الدين جهان شاه .
إيران	: عباس ، ثم حفيده صفي مرزا ، ثم حسن شاه .

* * *

١٨ ـــ السلطان إبراهيم إبن السلطان أحمد خان

(أخو السلطان مراد الرابع)

ولد المشار إليه سنة ١٠٢٤، وجلس سنة ١٠٤٩، وله من العمر خمس وعشرون سنة. فبعد المبايعة توزعت العطايا المعتادة.

أما الصدر الأعظم مصطفى باشا فإنه اهتم في اقتفاء أثر السلطان مراد في حزمه ضد الأشقياء، وأصلح طرق التحصيلات وضرب النقود، وقام بالعدل، وأرسل مأمير إلى الجهات لتنفيذ هذه الإصلاحات.

وفي سنة ١٠٥٠ تجددت المعاهدات مع الدول الأجنبية بهمة وتدبير ماهبيكر والدة السلطان.

وفي هذا العام جاء السفراء من الروسيا وإيران بالهدايا الكثيرة. وشدّد الصدر الأعظم في منع المسكرات وشرب الدخان كلياً، فاضطر أصحاب الكيف المبتلون به على استعمال النشوق والأفيون.

وفي سنة ١٠٥١ أحرق بعض الكنائس في بروسة فأدبتهم الحكومة تأديباً صارماً.

وفي سنة ١٠٥٢ عصت عربان بغداد، فأرسلت إليهم فرقة من العساكر فأدبتهم.

وفي هذا العام كثرت القلاقل لعدم وجود أولاد للسلطان مع كونه كان مغرماً بالنساء. ومضى ثلاث سلاطين قبله بلا ذرية، فخافت الأمّة من إنقراض السلسلة العثمانية. ثم إن الله تعالى منّ على السلطان إبراهيم الحالي بثلاثة أولاد متوالية. وهم: محمد، وأحمد، وسليمان. فانسر الأهالي سروراً زائداً.

وفي هذا العام صار إسترداد قلعة أزاق من القوزاق، وتداخل حسين باشا بن نصوح باشا أمير أمراء الحلب في أمور مصطفى باشا الصدر الأعظم. وكان الأول ذا ثروة هائلة حتى أدت هذه الخصومة إلى عصيانه، فهجم على سواس، وانتصر على جملة باشوات. ثم أراد الحضور إلى الأستانة

لينتقم من الصدر الأعظم. فوصل إلى جامايجة بالقرب من إسكدار، ووضع خيامه. وكلما ذهبت إليه فرقة من العسكر إنتصر عليها حتى استولى على أهالي الأستانة الهرج والمرج. فطلب الصدر الأعظم فتوى على جواز قتل حسين باشا بسبب خروجه على السلطان. ثم أرسل محمد باشا كرجي بمدافع وعساكر إلى أسكدار. وذهب السلطان إلى بستانها.

أما حسين باشا فلكثرة فرسانه كان قادراً على جعل عالي أسكدار سافلها بحملة واحدة. ولكن لم يفعل شيئاً من ذلك، بل طلب محاكمة الصدر الأعظم شرعاً، وعرض على السلطان إنقياده لأوامره، فلم يصغ أحد لطلباته. فقام من هناك خفافاً إلى ساحل البحر الأسود وعبره، ووصل إلى تار وسجفة، فلحقه بستانجي باشي فقبض عليه حيا، وأحضره إلى الصدر الأعظم فقتله شهيداً. فلما بلغ الخبر لأحزابه ظهرت فتنة كبيرة حتى تغلبت الحكومة عليهم، وأهلكت جملة من باشوات أحزابه. ثم صادرت أموالهم، فكانت مليونا من الأقجة. وهذه أول مصادرة في الدولة العلية. ثم صارت المصادرات شيئاً فشيئاً على حالة رديئة.

وفي سنة ١٠٥٣ ظهر حسين جنجي خوجة أي معلم عالماً ببعض أدعية مأثورة، فتقرب بها إلى السراية حتى صار في مدة قليلة معلماً للسلطان، ثم مدرساً، ثم نال لقب رتبة قاضي عسكر. وصار يتداخل في كافة أمور الدولة حتى تسبب في إزالة مصطفى باشا الصدر الأعظم.

وفي أثناء ذلك مات يحيى أفندي شيخ الإسلام إبن زكريا أفندي، فعين بدله أبو سعيد أفندي.

ولكن بعد هذا صار زمام أمور السلطنة في يد من لم يكونوا أهلاً لها حيث أن السلطان إبراهيم كان محبوساً في مدة أخيه السلطان مراد، وكان أغلب حركاته بخفة وطيش، وكان مغرماً بحب النساء منقاداً لمشورتهن. فبهذا السبب زادت مخصصات أهل السراية وخدامها زيادة باهظة، حتى صارت مالية الدولة على وشك التفليس، وتأخر صرف مرتبات العسكر، فكثرت الشكاوى. وصار السلطان يغير ويبدل الوزراء والمأمورين، حتى أن الولاة يعزلون من قبل وصولهم إلى محل ولاياتهم. ثم صار نفي محمد كراي خان قريم إلى جزيرة رودس.

وفي سنة ١٠٥٤ عين محمد باشا والي الشام للصدارة العظمى.

وفي هذه الاثناء قدمت الروسيا وبلونيا الشكاوى في حق التتر، فنظرت الدولة لشكواهما بعين الرعاية، وصار التنبيه عليهم بحسن المعاشرة معهما. ثم وقع الشقاق بين الشراكسة، فعينت الدولة منهم أنطوناقا رئيساً، فاندفع الشقاق بذلك بينهم.

وفي هذا العام حصلت فتنة في ألمانيا لكون البروتستانيين منها عادوا أمبراطورهم، وكذلك دولة أسوج جلبت داقوجة حاكم أردل من قبل الدولة العلية إليها لمحاربتها أوستريا، فتداخلت الدولة العلية بمنع المومأ إليه من الحرب، والصلح مع أوستريا، وإصلاح ذات بين الجميع. فليتأمل فيما كانت تفعله الدولة العلية من الإصلاح بين الدول وما تفعله الدول معها.

وفي هذا العام نفى السلطان سنبل آغا، آغا دار السعادة إلى مصر ومعه أمواله، فقابل قرصان مالطة السفينة التي بها الآغا فقتلوه، وأسروا حجاجاً كثيرين، وفيهم: محمد أفندي البروسة لي قاضي مكة المشرفة. ثم صادفهم أمواج هائلة فأغرقت أغلبهم. ولما وصل هذا الخبر إلى الأستانة، جهزت الدولة فتح جزيرة كريد لأمن الطريق براً وبحراً برئاسة يوسف آغا القبودان، بعد تعيينه سرداراً، والإنعام عليه برتبة الوزارة في سنة ١٠٥٥. وكان جيشه هذا ثلاثين ألفاً. وفي ظرف خمسين يوماً فتح قلعة خانية. ونظراً لكثرة المنافسات والنفاق بين باشوات الجيش وأرباب الحل والعقد بالأستانة، ولإمداد دولة فرنسا للكريديين، وقيام دولة الونديك ضدّ الدولة، امتدت مدة فتح كريد نهائياً خمسة وعشرين سنة كما يأتي. وكان كلما يبلغ السلطان خبر هذه المنافسات يعامل بعضهم أشد معاملة، ويجازيه جزاء صارماً، حتى صار له أعداء كثيرين.

ثم لما أرسلت دولة الونديك عساكرها إلى مورة، وقتلت من أهاليها آلافاً من الأشخاص، وبلغ ذلك السلطان، أراد قتل الكثيرين من الوزراء والأمراء من موظفي الجيش والأستانة. فمنعه شيخ الإسلام أبو سعيد أفندي بتدبيراته الحسنة. ومن هذه الحركة انتقل جميع سفراء الدول من مساكنهم التي بالأستانة إلى بك أوغلو.

وفي سنة ١٠٥٦ فتحت قلعة رتمو في كريد بانتصارات عجيبة لا مثيل لها في ذلك الوقت. ثم ظهر في الجيش وباء مات بسببه الكثيرون، فاضطر الأسطول إلى الرجوع للأستانة.

ثم عين محمد باشا الصدر الأعظم سرداراً، وعين صالح باشا دفترداراً، وعزل أبو سعيد أفندي شيخ الإسلام، وعين بدله أحمد أفندي مفيد. وإتخذ السلطان يوسف باشا القبودان فاتح خانية السابق ذكره صهراً له، ثم قتله شهيداً. وعين بدله موسى باشا قبوداناً.

وفي هذه الأوقات أرسلت الدولة لمآمير الحدود شمالاً وغرباً أوامر بحسن معاشرة دول الحدود حتى لا يحصل مشاغبات ولا قلاقل.

وفي هذا العام جاء رجلان من بلاد الروسيا، وطلبا من السلطان إبراهيم إعانتها على تعيين

أحدهما حاكماً على الموسكو، وفي نظير ذلك يعطيان للدولة العلية إيالتي قزان وأجدر خان. فمال السلطان إلى القبول، وعارض الوزراء باللطف والإحتشام حتى تغلبوا على فكره، وأ الشخصين، قولاً منهم: إنا نحن معاشر العثمانيين ليس من دأبنا إفساد ممالك الغير، ولا الإعتيال لشيء منها.

وفي سنة ١٠٥٧ إتخذ السلطان فضلي باشا أحد ندمائه صهراً له، وعمل وليمة عظيمة إنبنى عليها فراغ الخزينة. ثم عقد السلطان على جاريته المدعوة (تللي)، وأجبر رجال الدولة على هدايا جسيمة من فراوي السمور. ثم عين فضلي باشا هذا قبوداناً، وأرسله بالأسطول إلى كريد، فانتصر على أسطول الونديك، وشتت شمل سفنها، وحاصر على قلعة قندية.

وفي سنة ١٠٥٨ عصت عساكر أرضروم وقارص، ووالي سواس علي باشا، ومحمد بن قرة حيدر في ولاية حميد، حتى صارت الأناضول في حالة يرثى لها ويحزن عليها. وعلاوة على ذلك ظهر فساد في بوسنة من تكاسل واليها إبراهيم باشا فاضطرت الدولة إلى إرسال فرقة من العساكر إليها.

وأما دولة الونديك عدوة الدولة العلية المستمرة فإنها هجمت بسفنها على حين غفلة على جزيرة (مدللو)، وسدت بوغاز الدردنيل لمنع الإمداد إلى كريد، فقتل صالح باشا الصدر الأعظم شهيداً بلا موجب، وعين بدله أحمد باشا.

والحاصل أنه في ذاك الوقت كانت الدولة العلية في حالة خطرة، حيث أن الإختلالات والإرتباكات عمتا الأناضول والروملي، وعلاوة على ذلك فالسلطان إبراهيم أكثر من القتل في الوزراء، وفي صرف المصاريف الباهظة بلا موجب منها، فرش كشكه من فراوي السمور، علاوة على ميله الشخصي إلى الخفة والمضاحكة، وجولانه في الأسواق والشوارع ليلاً بالمشاعل، حتى صارت الأهالي في انتقاد عليه. ثم آشتدت الفتنة، وتسببوا في تبديل الوزراء. وقطعوا أحمد باشا الصدر الأعظم إرباً. فاهتمت والدة السلطان في تسكين الفتنة، فلم يتيسر. بل خلعوا السلطان إبراهيم وسجنوه في خلوة من السراية، وأجلسوا إبنه محمداً بالغاً من العمر سبع سنين. وبعد خمسة عشر يوماً من هذه الواقعة قام السباهيون، وأنكروا عليهم شدة هذه المعاملة للسلطان. فخاف أصحاب الحل والعقد والأعيان من إستفحال الفتنة، وحصول ما لا تحمد عقباه. فبناء عليه قتل السلطان إبراهيم شهيداً في محبسه، ودفن في مدفن عمه مصطفى بجوار أيا صوفيا. رحمة الله عليه.

وكان أولاده ثلاثاً: محمد، وأحمد، وسليمان.

***

(أسماء معاصري السلطان إبراهيم الأول من الملوك والأمراء وجهاتهم)

أوروبا

أوستريا وألمانيا : فرديناندو الثالث .... أمبراطور.
فرنسا : لوي الرابع .... أمبراطور.
إنجلترا : كانت جمهورية.
الدانيمارك : فردريك الثالث .... ملك.
أسبانيا ونابولي : فليب الرابع .... ملك.
البرتغال : جان الرابع .... ملك.
الروسيا : علكس من فاملية رومانوف .... ملك.
ساردينا : شارلي إمنويل الثاني .... ملك.
سقسونيا : البرد.
فلمنك : كيلوم الثاني.

آسيا

إيران : صيفي مرزا، ثم عباس الثاني، ثم حفيده صيفي مرزا الثاني .... شاه.
الهند : جهان أورنك .... شاه.

* * *

[١٩] السلطان محمد خان الرابع

(إبن السلطان إبراهيم)

ولد المشار إليه في ليلة تسعة وعشرين رمضان سنة ١٠٥١ بالأستانة. وجلس في ثامن عشر رجب سنة ١٠٥٨، بالغاً من العمر سبع سنين. ومدّة سلطنته إحدى وأربعون سنة. وتولت والدته وصايته، وأمور إدارة المملكة، وإسمها (ماه بيكر).

وأول حكمها كان مجازاة المتسببين في فراغ خزينة المالية. ثم صار نفي جنجي معلم السلطان المعهود، ومصادرة أمواله، ودفع منها مليونان من الجنيهات في العطايا المعتادة للجلوس.

وفي سنة ١٠٥٩ حصلت فتنة بين أغوات السراية للمزاحمة على ترفيع الرتب والزعامة، فبمعرفة السباهيين واليكيجريين صار تسكين الفتنة وتأديب المذنبين. ثم آشتدت الفتن والطغيان بالأناضول حتى أن الشقيين إبن حيدر وإبن القاطرجي (البغال)، قتلا والي الأناضول بجوار (أفيون قرة حصاري).

وفي أثناء ذلك طلب سردار كريد إمداداً، فأرسلت الدولة الدونانمة من ساحل قوجة، فوصلت إلى كريد بكل صعوبة من تسلط سفن الونديك.

وفي هذا العام تجدّدت المعاهدات مع دول أوروبا ما عدا الونديك. ثم اتفق أخو محمد باشا الصدر الأعظم الأسبق مع إبن القاطرجي المذكور، ووصلا بأعوانها إلى أسكدار فأرسل إليها فرقة، وبسبب الخلاف الواقع بينهما رجعا منهزمين.

وفي سنة ١٠٦٠ إهتم حسين باشا دلي السرعسكر في كريد بالحركة الحربية، لكن لم تحصل ثمرة من إستمرار عصيان اليكيجريين. ثم آشتدت الفتن، وعم الخلل في جسم الدولة من تغلب الأوجاقيين، حيث كانوا يعزلون الوزراء تباعاً، ويولون من ليسوا أهلاً للوزارة، فزادوا في الإسراف والسفاهة، وصاروا يتسابقون على أخذ المناصب بالرشاوى، وسرقة الأموال الأميرية. ثم

سرى الظلم على الأهالي بزيادة الضرائب بما لا يحتمل ولا يطاق. وإزداد البلاء من أعمال أحمد باشا ملك الصدر الأعظم في قتل أصحاب الثروة بغير موجب لمصادرة أموالهم. ثم كثرت الدراويش أرباب الطرق الصوفية الجهال، وكل منهم يتملق لأحد الأوجاقيين وهم يحترمونهم، حتى كثرت البدع والحكايات الخرافية بإسم الدين. فاجتمع العلماء أفراداً وأزواجاً بالجوامع، وصاروا يعظون الناس، ويبينون لهم حقيقة الدين. وأستمروا على ذلك حتى أن الأهالي إنقادوا لنصائحهم في محو البدع من التكايا، فاغتاظ الدراويش والأوجاقيون من ذلك.

وفي سنة ١٠٦١ جاء الخبر من كريد بعصيان اليكيجريين ومغلوبية دونانمة الدولة فتحيرت أفكار العامة. فما كان من الأوجاقين واليكيجريين إلا وهجموا على السراية، وبمساعدة أغواتها قتلوا ماه بيكر والدة السلطان والوصية عليه شهيدة رحمة الله عليها. ومآثرها الخيرية لا تحصى.

وعلاوة على ذلك فإن سياوش باشا الصدر الأعظم قتل جميع الأغوات ومستخدمي السراية، ممن كان ينتمي للمرحومة والدة السلطان. بزعمه أن ذلك من باب الإحتياط، لئلا يقصد أحدهم بالسلطان سوءاً. فانزعج ما بقي من أغوات ومستخدمي السراية، فتسلحوا وأخرجوا الراية الشريفة، وطلبوا العلماء والعساكر الطائعين، وجمعوهم في أورتة جامع، وقبضوا على أغلب الأوجاقين والمفتي بهاي ونفوهم. أما نفي المفتي فهو لتهمته بإعطاء الفتوى بقتل بعض من قتل. وقيل غير ذلك.

وفي سنة ١٠٦٢ عصى حسن باشا أبازة المعزول من ولاية التركمان، فجرم الأهالي من قسطموني إلى قرمان، وهزم العساكر التي أرسلت إليه. ثم اتفق مع أبشير والي بغداد، واستوليا على أنقرة، وقتلا اليكيجريين الذين كانوا موجودين هناك.

وأما من الخارج فإن دولة الونديك استولت على جهات موستار، وحاصرت باب بوغاز الدردنيل.

وفي سنة ١٠٦٣ حصلت مضايقة مالية فوق ما يتصوّر، فبناء على لائحة أحمد باشا طرخونجي، صار تنقيص مرتبات المستخدمين بما فيهم خدم السراية السلطانية مع زيادة الضرائب فوق طاقة الأهالي.

وفي هذا العام حصل الحرب بين بلونيا، وبين طائفة زابوروق الساكنين في سواحل نهر أوزي المعروفين (بصارى قامش قوزاق). فأفسد الأجانب الموجودون في بغدان ولاية بغدان، وأرادوا إنضمامها إلى بلونيا. فحارب خان قريم بلونيا، وانتصر عليها.

وفي سنة ١٠٦٤ حصلت محاربة بحرية بين الدولة والونديك بجوار جزيرة (يوزجة)، فانتصرت دونانمة الدولة وعادت بغنائم كثيرة.

وفي سنة ١٠٦٥ تغوّل أبشير باشا العاصي في جهات الحلب، فدعته الدولة لتعينه للصدارة، فلم يحضر مطيعاً. بل جمع عساكره وجاء بهم للأستانة، فجلس للصدارة، وعين لجميع المناصب الأخساء من رجاله جبراً. ثم كثرت مظالمه وازداد كبرياؤه، فحرك بعض الوزراء بعضاً من سفهاء اليكيجريين والسباهيين على نهب بيتي الصدر الأعظم وشيخ الإسلام، ففعلوا وقتلوا أبشير باشا الصدر الأعظم بقطع رأسه، وتحصلوا على زيادة علوفات خيلهم ومرتباتهم.

وفي هذا العام عصت عربان بصرة، وتغوّل حسن باشا أبازة في جهة حلب بالظلم والطغيان.

وفي سنة ١٠٦٦ إجتمع الأوجاقيون في ألاي كشك بالأستانة، وصاروا كلما وجدوا أحداً من خدم السراية وأغواتها يصلبونه على الأشجار بجوار جامع السلطان أحمد. واستمروا على ذلك مدّة أربعة أيام متوالية. وعزلوا الصدر الأعظم وشيخ الإسلام، وغيروهما مرتين في الأربعة أيام.

وفي سنة ١٠٦٧ إستولت دولة الونديك على سواحل مورة وبعض جزائر. ثم تولى الصدارة محمد باشا كوبريلي، وكان ذا تدبير حسن، فظهرت الحياة في جسم الدولة.

وفي سنة ١٠٦٨ أرسل هذا الصدر النشيط وحيد عصره وفريد دهره العساكر براً وبحراً إلى البحر الأبيض، فشتتوا شمل سفن الونديك وأحرقوا الكثير منها، واستردوا جزيرتي (يوزجة ولمني).

وفي سنة ١٠٦٩ عصت حكام أردل وبغدان وأفلاق فأرسل إليهم خان قريم، وكلف بعزلهم. فقام بهذه المأمورية أحسن قيام، وفتح قلعة (بانوة). ثم إن الصدر الأعظم محا أكثر من عشرين ألفاً من عصاة جهة بروسة الذين كانوا يداً لحسن باشا أبازة.

وفي سنة ١٠٧٠ صار رفع الإختلال كلياً من قرمان وبرية الشام ومصر حتى نال الأهالي كمال الرفاهية. وقتل أربعة آلاف من عصاة اليكيجريين والسباهيين. وأنشأ إستحكامات مستجدّة ببوغاز البحر الأبيض (الدردنيل).

وفي هذا العام عصى حاكم أفلاق المعزول، وتغلب على العثمانيين الموجودين وقتئذ في ترغوبيج ويركوي وإبرائيل. فأرسل إليه خان قريم فمحا أغلبهم، وهرب بعض رؤسائهم ملتجئين إلى أوستريا، فقبلتهم. فبناء عليه أرسلت الدولة عساكر إلى بلاد المجر.

وفي سنة ١٠٧١ أغرت دولة الروسيا طائفة القوزاق، فأرسل إليها خان قريم، وهجم على الروسيين، فقتل منهم نحو مائة ألف وعشرة في مرات، كما هو في التواريخ، وفيه نظر. حيث أن هذا العدد كثير، وربما كان هذا عدد المحاصرين، وبقتل بعضهم وتشتيت الباقي نسب القتل للكل والله أعلم.

وفي سنة ١٠٧٢ أمدت فرنسا دولة الونديك لأجل مضادة الدولة العلية (الإتفاق (٣٥))، فأوجب ذلك إمتداد مدة فتح كريد.

وفي هذا العام مات محمد باشا الصدر الأعظم الكويريلي رحمه الله رحمة واسعة. وتولى بعده إبنه أحمد فاضل باشا الكويريلي.

وفي سنة ١٠٧٣ إنتصرت عساكر الدولة على أوستريا، واستولت على قلعة أوبواد وغيرها.

وفي سنة ١٠٧٤ أرسل خان قريم مائة ألف فارس من عساكر التتر والقوزاق المسلمين إلى بلاد أوستريا، ففتحوا قلاع لونج ونوغراد.

وفي هذا العام قام الصدر الأعظم من بلغراد إلى قلاع قانيجة وستواد لمنع عساكر أوستريا من الإستيلاء عليها، فوجد أن فرنسا أمدت أوستريا بعساكر كثيرين، فوقعت حرب هائلة فانتصر عليها، واستولى على قلعتي زرينوار وراب.

وفي سنة ١٠٧٥ جاء الإمداد من دولتي أوستريا وفرنسا، ووقعت الحرب في صحراء سنفوتارد، فمات من عساكر الدولة نحو عشرين ألفاً. فعقد الصدر الأعظم صلحاً.

وفي أثناء ذلك كان السلطان محمد في الصيد في جبال يانبولي، ومعه فريق من الناس أكثر من ألاي. ثم عاد إلى سراية ادرنه بموكب.

وفي سنة ١٠٧٦ جهز الصدر الأعظم أوردیا (جيشاً) لمحاربة الونديك والفرنساويين لإتمام فتح كريد، وقتل الباشوات الذين كانوا يظلمون الناس في مصر وقبرص وساقز.

وفي سنة ١٠٧٧ ظهر شخصان أحدهما كردي في الموصل وادعى أنه المهدي، والآخر يهودي وادعى أنه المسيح عيسى في أزمير، فأرسل الصدر الأعظم فرقتين فأدبتهما. وعزل والي بصرة.

وفي سنة ١٠٧٨ ذهب أحمد باشا الصدر الأعظم إلى كريد، فاشتدت الحركة. وأمدت فرنسا والبابا ومالطة الونديك والكريديين.

وفي سنة ١٠٧٩ تم فتح كريد. وكان السلطان محمد في يكيشهر عاصمة ولاية ترحالة.

ففي سنة ١٠٨٠ عاد إلى أدرنة وطلبت فرنسا تجديد المعاهدات فأجيبت.

وفي سنة ١٠٨١ حاربت طائفة القوزاق المعرفون بصارى قامش بلونيا.

وفي سنة ١٠٨٢ فتح أحمد باشا الصدر الأعظم قلعة قانيجة وما حولها، ثم عقد الصلح مع بلونيا، وعاد.

وفي سنة ١٠٨٣ لما وجدت بلونيا جهة الشمال خالية من عساكر الدولة خابرت حكام أفلاق وبغدان، وحرضتهم على العصيان. فاستردت بهذه الوسيلة بعض المحلات التي سبق أخذ الدولة لها بالعام الماضي.

وفي سنة ١٠٨٤ إستولى الصدر الأعظم على قلعة لازدين.

وفي سنة ١٠٨٥ ضربت الروسيا بلاد القوزاق المسلمين وتغلبت عليهم.

وفي سنة ١٠٨٦ عقد الصلح بينها وبين الدولة على شرط تمليك الجهات الكائنة بين نهري طورلة وأوزي للدولة العلية.

وفي سنة ١٠٨٧ مات النشيط النصوح أحمد باشا الصدر الأعظم رحمه الله تعالى رحمة واسعة في السنة الخامسة عشرة من صدارته، وتولى بعده مصطفى باشا قرة.

وفي سنة ١٠٨٨ حصلت مناوشات بين الدولة العلية والروسيا، فاستولت الأولى على قلعة جهرين.

وفي سنة ١٠٨٩ عقدت المعاهدة بينهما بواسطة خان قريم على ترك الحرب.

وفي سنة ١٠٩١ طردت دونانمة فرنسا سفن طرابلس الغرب لحد جزيرة ساقس، ثم عادت. وآنبنى على ذلك حصول الحركات العدوانية بين الدولتين. ولم يحصل حرب.

وفي سنة ١٠٩٢ دست دولة أوستريا الدسائس في بلاد المجر حتى حصل فيها الإختلال، فعينت الدولة أنكروس بك ملكاً على المجر ليكون مدافعاً عنها، فعاندت أوستريا وهاجمت بلاد المجر، فغضب الصدر الأعظم مصطفى باشا.

وفي سنة ١٠٩٣ ذهب إلى هناك وانتصر على أوستريا إنتصاراً باهراً، حتى وصل إلى ويانا عاصمتها وحاصرها، لكن لإبطائه في الهجوم عليها لم تحصل ثمرة، حيث أن ملك بلونيا هجم على بلاد الدولة، فاضطر الصدر الأعظم على ترك المحاصرة والرجوع إلى بلغراد. ثم اتحدت دولة الونديك أوستريا وبلونيا على محاربة الدولة (الإتفاق (٣٦))، فالونديك في جهة هرسك ومورة، وأوستريا في جهة بوسنة، وبلونيا في جهة حدودها، قاصدين بذلك إرتباك حال الدولة وإذلالها.

وفي سنة ١٠٩٤ إضطر الصدر الأعظم إلى تقسيم الجيش ثلاث فرق. فالفرقة التي أمام جيش بلونيا انتصرت عليه حتى شتتت شمله. وأما الفرقتان الثانيتان فقد أبليا بلاء حسناً.

وفي سنة ١٠٩٥ حصل هياج في الجيش بدعوى أن السلطان محمد لم ينظر لصالح الدولة، ولا لصالح الأهالي، وأنه مغرم بالصيد الذي لا يليق اشتغال مثله به. وتآمروا على خلعه فخلعوه، وجلس أخوه السلطان سليمان.

أما أولاد السلطان محمد الرابع، فهما: السلطان مصطفى الثاني، والسلطان أحمد الثالث. وسيأتي زمن توليتهما إن شاء الله تعالى.

* * *

(أسماء معاصري السلطان محمد من الملوك والأمراء وجهاتهم)

أوروبا

ألمانيا وأستريا : فردريك الثالث، ثم لويولو الأول .... أمبراطورية.
فرنسا : لوي الرابع عشر .... ملك.
إنجلترا : شارل الأول، ثم قروموول، ثم شارل الثاني، ثم خاق الثاني.
برتغال : ألفونس السادس .... ملك.
روما : علكساندر .... ملك.
روسيا : علكس، ثم فودور الثالث، ثم كازمير الخامس، وبترو الأول وهو بطرس الكبير بالإشتراك في الحكومة.
بروسيا : فردريك الأول .... دوق.
بلونيا : جان كازمير، ثم ميشل، ثم جان .... ملوك.
فلمنك : كيلوم الثالث .... ملك.
ساردنيا : شارل العاشر، ثم شارل الحادي عشر.
دانيمارك : فردريك الثالث، ثم فرستيان الخامس.
إيران : الشاه عباس الثاني.

* * *

[٢٠] السلطان سليمان خان الثاني

(إبن السلطان إبراهيم)

ولد المشار إليه سنة ١٠٥٢، وجلس في شهر ذي الحجة سنة ١٠٩٩، بالغاً من العمر ٤٧ سنة. ومدّة سلطنته ثلاث سنين وكسور.

وقد تقدّم أن هياج الجيش أوجب خلع السلطان محمد. فالأوجاقيون بالأستانة لم يكتفوا بذلك، بل أجمع اليكيجريون في آت ميدان، والسباهيون في ميدان السلطان أحمد، ونصبوا الخيم، وصاروا يتداخلون في أمور الدولة، بعزل هذا ونفي ذاك، وتجريم الآخر، وقتل ونهب بيوت غيرهم. حتى في ذات يوم هجموا على الباب العالي، وقتلوا سياوش باشا شهيداً عند مدافعته عن حرمه حال هجومهم عليها. فهاج أهالي الأستانة وأعيانها، وتسلحوا واتحدوا مع خدم السراية، واجتمعوا تحت الراية الشريفة. ثم هجموا على هؤلاء الأشقياء فقتلوا منهم كثيراً، وهرب الباقون إلى قشلاقاتهم، منقادين طائعين ظاهراً وسكنت الفتنة.

ثم عين إسماعيل باشا للصدارة العظمى، لكن الدولة قد ابتليت خارجاً باستيلاء أوستريا على قلعة أكرى، والونديك على جهات مورا.

وعصى عثمان باشا يكن [١] سرعسكر الأناضول واستقل. ثم عبر إلى البحر إلى روملي ودخل قهراً إلى بلغراد. ثم عصت العساكر الموجودة بكريد وطمشوار. واستولت أوستريا على بلاد بوسنة وجميع ما حولها، فاتخذت الدولة خلع السلطان محمد وجلوس السلطان سليمان وسيلة لعقد الصلح مع أوستريا مؤقتاً للكف عن الحرب.

وفي سنة ١١٠٠ عزل سليمان باشا الصدر الأعظم، وعين بدله مصطفى باشا تكفور طاغلي.

ثم إن السلطان سليمان اهتم بالتجهيزات الحربية براً وبحراً، حتى أن دونانمة الدولة طردت

(١) معنى يكن ابن أخت أحد السلاطين.

عسكر الونديك من جهة أغريبوز. وكذلك عساكر التر شتت شمل القوزاق، وخربوا كثيراً من بلاد الروسيا، حيث أنهم كانوا اعتدوا.

ثم طلب خان قريم للحضور للأستانة للمشورة في أمر عثمان باشا يكن العاصي، فاستقر الرأي على التنفير ضده وضدّ أعوانه. فبناء عليه أعدمت أعوانه العصاة بالأناضول، ومنع من ذاك الوقت إتخاذ صاريجة وسكبانة [1] بطرف الباشوات.

وفي سنة ١١٠١ قرر أركان وأعيان السلطنة السنية تعيين مصطفى باشا بن كوبريلي الشهير للصدارة، وكان حازماً نشيطاً نصوحاً للدولة كعائلته الكوبريليين، وقد مر ذكر بعض مآثرهم الجميلة. فاهتم المذكور بالتجهيزات الحربية، وطلب حضور حاكم أردل لإنضمامه في الجيش.

وكانت أوستريا استولت على جميع قلاع بلاد الصرب، فرتب الصدر الأعظم الجيش فرقاً، واسترد كثيراً من القلاع. فلم تشغل هذا الرجل الهمام فريد عصره ووحيد دهره المشاغل ولا المحاربات الخارجية عن رفع المظالم عن الأهالي، وتجديد نظامات جديدة عادلة، وسنّ قانوناً لكيفية تحصيل الأموال الأميرية بطريق الراحة للأهالي، حتى تمكن من زيادة الإيرادات السنوية. ثم جمع بذلك عساكر كثيرة، وحارب المتغلبين على الدولة بهمة عالية. فاسترد من الونديك جزيرة مورا وما حولها، ومن أوستريا وألمانيا بلاد الصرب، ومن الروسيا وبلونيا بلاد تران سيلوانية، وجميع ضائعات الدولة فجزاه الله عن الإسلام خيراً.

ثم في سنة ١١٠٢ أعاد الأمن في بلاد مصر وقبرص، وأدّب بعض عصاة العساكر بها. ثم قوى حدودات هرسك وبلاد الأرانطة وملأها بالعساكر لقطع طمع الونديك من تلك الجهات. واستمر على تجديد الأعمال الصالحة حتى اندهشت الدول من سطوته وعلوهمته. لكن بالأسف قتل شهيداً في معركة كما سيأتي.

وفي هذا العام مات السلطان سليمان بغير ذرية، وكان موته في أدرنة، رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

* * *

(١) هما إسمان للعساكر الذين يتخذونهم الباشوات والولاة قبل ذلك خلاف عساكر الحكومة.

(أسماء الأمراء والملوك المعاصرين للسلطان سليمان الثاني وجهاتهم)

أوروبا

أوستريا وألمانيا : فليب . وقيل ليوبولد الأول .... أمبراطور.
الروسيا : إيوان الخامس من عائلة رومانوف ، بالإشتراك مع بترو الأول وهو بطرس الأكبر الشهير.
إنكلترا : جاك أورانثر الثاني من عائلة سطوار، ثم كيلوم الثالث من عائلة داسوه.
فرنسا : لوي الرابع عشر من عائلة بورلون .
فلمنك : كيلوم الثالث .
بلونيا : جان سوبيه سكى .
بروسيا : فردريك الأول .
أسبانيا : شارل الثاني .
برتغال : بيترو الثاني من عائلة براكانس .
ساردنيا : ويغورات الثاني .

ولم أقف على إسم سلطان الهند.

* * *

[٢١] السلطان أحمد خان الثاني

(ابن السلطان إبراهيم)

ولد المشار إليه سنة ١٠٥٢، وجلس في ٢٦ رمضان سنة ١١٠٢، بالغاً من العمر خمسين سنة. ومدّة سلطنته ثلاث سنين وثمانية أشهر وخمسة وعشرون يوماً.

وكانت مبايعته في أدرنة. وكان الصدر الأعظم مصطفى باشا الهمام في حرب مستمر مع دول الشمال، خصوصاً ألمانيا وأوستريا، حتى حصلت واقعة هائلة بعد جلوس السلطان أحمد المذكور بلغ فيها عساكر الدولة خيمة الأمبراطور. لكن بمهارة سر عسكر الأعداء حصلت مقاومة عنيفة وقع الصدر الأعظم فيها شهيداً، رحمه الله رحمة واسعة. وعين بعده خليل باشا السردار، وقد مات بهذه الواقعة نحو نصف الجيش من الطرفين. وبموت الصدر الأعظم انهزم جيش الدولة، فحاصر الأعداء قلعة وارادين، وحاصر عساكر بلونيا قلعة قامنجة.

وفي سنة ١١٠٣ ذهب جيش ألمانيا وأوستريا إلى الصرب، فقاومهم العثمانيون هناك.

وفي أثناء ذلك جاء السفراء من بخارى وإيران، وطلب الأمبراطور الصلح بواسطة سفراء دولة هولندة، لكن لجسامة طلبات الأمبراطور لم يقبل السلطان، بل استمرت الحرب.

وفي أثناء ذلك حصلت فتنة في مكة المكرمة بين الأشراف والسادات من جهة المزاحمة في إمارة مكة، فعزل الصدر الأعظم، وعين بدله الحاج علي باشا.

وفي سنة ١١٠٤ قام الصدر الأعظم المذكور من أدرنة، وقبل وصوله للجيش استولى الأعداء المتفقون على قلعة يانوة، وشرعت في محاصرة بلغراد.

أما من جهة بوسنة فإن دولة الونديك لم تزل مستمرة على محاربتها، حتى صار جيش الدولة أربع فرق على أربع دول. ثم تحركت دولة الروسيا أيضاً، فارتبك أمر الدولة وملت عساكرها من استمرار الحروب.

وفي هذا العام مات السلطان محمد خان الرابع المخلوع في سنة ١٠٩٩ ودفن في ساحة جامعه بالقرب من (باغجة قبوسي)، أي باب البستان بالأستانة، رحمه الله تعالى وعفا عنه.

وفي هذا العام لم تقتصر الحال على ما حصل للدولة من الكرب باتحاد الدول عليها، واستمرار الحروب، بل حصلت فتنة بالشام. فأرسلت إليها الدولة فرقة من العساكر لإيجاد الأمن بها.

ثم حصل حريق هائل بالأستانة بادئاً من أيازمة قبوسي أحرق السليمانية وات بازاري وغيرهما.

وفي سنة ١١٠٥ أرسل الجيش إلى بلغراد في أول فصل الربيع، فحاصر قلعة وارادين.

أما الونديك فإنها استولت على حصار غبلة، واستولت بحراً على جزيرة ساقز من استقلال العساكر التي أمامها. وانتصرت عساكر التتر قيادة خان قريم على عساكر بلونيا.

وفي سنة ١١٠٦ بلغ ظلم سعد بن سعيد أمير مكة عنان السماء من سلب ونهب أموال الحجاج وقتلهم. فكلفت الدولة والي الشام بإيجاد الأمن بالحجاز، وأمدّته بمال ورجال. وحصلت منازعات بين الأوجاقيين في سواحل البربرية في جهة المغرب، فأصلحت الدولة ذات بينهم، وطلبت جميع سفنهم إلى جزيرة ساقس.

وفي هذا العام جاء السفراء من إنكلترا وهولندة لينصحوا الدولة بالصلح على ترك الحرب بدون إسترداد شيء مما استولى عليه الأعداء من بلاد الدولة، فلم يقبل السلطان.

أما فرنسا فإنها كانت تحرض الدولة العلية سراً على استمرار الحرب وتعد بتسليط أعداء ألمانيا عليها، وكان ذلك لصالحها لا لصالح الدولة العلية.

وفي هذا العام مات الشاه سليمان، شاه إيران. وتولى بعده إبنه حسين شاه.

وفيه توفي السلطان في أدرنة، وشيعت جنازته إلى الأستانة. ودفن بجوار الجامع السليماني بجوار مدفن أبيه. ولم يكن له ولد رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

* * *

(أما معاصرو السلطان أحمد فهم المذكورون في عصر أخيه السلطان سليمان).

* * *

[٢٢] السلطان مصطفى خان الثاني

(إبن السلطان محمد الرابع)

ولد المشار إليه سنة ١٠٧٤، وجلس في سنة ١١٠٦ بالغاً من العمر إثنتين وثلاثين سنة.

وبعد جلوسه بيومين كتب جواباً بخط يده شديد اللهجة للباب العالي مضمونه: أن أسلافه من مدّة طويلة اختاروا الراحة، ولم ينظروا باهتمام إلى نظام الدولة. وأنه بعدئذ سيتولى بنفسه الإدارة العمومية، وسيكون موجوداً بميادين الحرب. وفي الحال إهتم بالتجهيزات الحربية، ولم يفرق العطايا المعتادة لخلو الخزينة من النقود. فأظهر الأوجاقيون علامات الثورة، فوعدهم أن ذلك يكون بعد الإنتصارات، واسترداد الممالك الضائعة، وإخراج الأعداء منها، حيث ذلك مفروض على جميع الأمّة، وبعد ذلك تكون العطايا والهدايا والإنعامات.

وفي سنة ١١٠٧ ذهب بنفسه مع الجيش، وهجم على عساكر ألمانيا وأوستريا وانتصر عليهم. ودخل بلاد المجر، وفتح قلاع ليبوة ونتل وغيرهما، واسترد بلغراد ونيجو وقرلسبورق. ثم حصلت الواقعة الحربية المشهورة بمحاربة لغوس وقتل من الطرفين أكثر من خمسة عشر ألفاً. وانهزمت الأعداء وعاد السلطان إلى الأستانة منصوراً مؤيداً وحصل للأمّة السرور.

وفي أثناء هذا الحرب انتصر حسين باشا القبودان إبن عم الكوبريليين على سفن الونديك في جزيرة ساقس. ثم دخلت عساكر قريم التتر في بلاد بلونيا وأحرقوا جهات كثيرة.

وفي سنة ١١٠٨ قام بطرس الكبير بعد أن صار ملكاً على جميع الروسيين والقوزاق بمائة وستين ألفاً بعد أن تحالف مع ألمانيا وأوستريا على دوام الحرب ضدّ الدولة العلية (الاتفاق (٣٧))، ثم حاصر قلعة أزاق، وأوقد النيران في البلاد المجاورة. فاضطرت الدولة العلية إلى جمع أغلب قوّتها أمام عساكر الروسيا. فاشتدّت الحرب مدّة ثلاثة أشهر، فات من عساكره نحو ثلاثين ألفاً، فيئس من الإنتصار وعاد إلى بلاده.

وقد ولد في هذه الأ يام السلطان محمود الأ ول إبن السلطان مصطفى الحالي . وعصت عربان بصرة ومنعوا مرور سفن الدولة من نهر شاط ، فأرسلت الدولة إمداداً لعساكر بغداد لتأديبهم ، وجهزت دونانمة جديدة في بصرة .

وقد تقدّم جمع أغلب قوّة الدولة أمام الروسيين ، فبذلك كرت عساكر ألمانيا وأوستريا والونديك وبلونيا ، كل منهم هجم على ما يليه من حدود الدولة . فذهب السلطان بنفسه . فأولاً : شتت شمل عساكر بلونيا . ثم حصلت موقعة عنيفة بجوار نهر بغا فانهزمت عساكر ألمانيا وأوستريا شر هزيمة ، وطردوا من الحدود مشتتين ، وعاد السلطان منصوراً على قصد العودة إلى الأستانة . فبلغه أن بطرس الكبير حاصر قلعة أزاق بقوّة جسيمة تقرب من مائتي ألف مقاتل ، وعقب ذلك استولى عليها . واستولت دولة الونديك على مورة ، ومنها ذهبت إلى جهات أتينه وأستفة .

ثم اهتم السلطان إهتماماً زائداً في إنشاء مراكب في سواحل البحر الأ بيض والبحر الأسود ونهر الطونة ، وزيادة المعامل لصب المدافع والقلل ، وأنشأ في أدرنة وأرضروم وأزمير ومصر ضر بخانات لضرب النقود ، وزيدت رسومات الدخان للإستعانة على المصاريف الحربية .

وفي سنة ١١٠٩ اضطرت الدولة العلية إلى تفريق العساكر أمام هذه الأعداء الكثيرة .

ثم حصلت واقعة عنيفة بين عساكر ألمانيا وأوستريا بقيادة البرنس أوجنة السرعسكر وبين فرقة من عساكر الدولة العلية ، فقتل فيها الآلاف العديدة من الطرفين . منهم أكثر أمراء ووزراء الدولة . ودخل عساكر الأعداء في ولاية بوسنة ، وأحرقت سراي الحكومة فيها . فعزل السلطان الصدر الأعظم ، وعين بدله حسين باشا القبودان إبن أخي محمد باشا الكوبريلي . فاهتم المشار إليه بتنظيم واردات الدولة ومصروفاتـها ، فجمع بهذا التدبير خمسين ألفاً من عساكر البيادة ، وأربعين ألفاً من السواري ، وذهب بهم إلى محاربة ألمانيا وأوستريا أولاً . ولما وصل إلى صوفية توسطت دولتا إنكلترا وهولندة . قيل : إن ذلك كان بإيعاز من امبراطور ألمانيا . فأبدى بطرس الأكبر وبلونيا أيضاً عدم قبول الصلح ، لكن لملل الأمبراطور وعساكره من دوام المحاربة ، ولعلمه بحصول الفائدة له من هذا الصلح تغلب برأيه على المتفقين ، فطلب من جميع أوروبا المسالمة العمومية .

أما الدولة العلية فكانت مضطرة إلى الصلح لحرج موقفها وخطر مركزها . فتم الصلح على ما يأتي :

(شروط الصلح)

منها: أن الدولة العلية لا تطلب بعدئذ ويركو وهدايا من إحدى الدول.

وأن دولة ألمانيا وأوستريا تتصرف في الأراضي الكائنة أمام أنهر طونة وصوة وأوتا. واسترداد مورة والجزائر السبعة واليونان والدلماجيا للونديك.

وأن تكون حدود بلونيا نهر طورلة، بترك بوروليا وا وقران لها، وتكون معافاة من إعطاء ويركو لخان قريم.

ومنها ترك قلعة أزاق للروسيا.

ففي هذه الحالة تكون ضائعات الدولة العلية ما يأتي:

١ ـــ بلاد المجر.
٢ ـــ ترانسلوانيا.
٣ ـــ دلماجيا.
٤ ـــ قران.
٥ ـــ مورة.
٦ ـــ الجزائر السبعة.
٧ ـــ قلعة أزاق.

فعاد السلطان والصدر الأعظم حسين باشا إلى الأستانة موقتاً للمكالمة مع السفراء الكبار الذين جاؤوا لهذا الأمر من جميع الدول لإتمام الصلح.

وفي سنة ١١١٠ ولد للسلطان ولد سماه محمداً.

وفي سنة ١١١١ ولد له آخر وسماه حسيناً.

ولما تمت الأمور الخارجية والمشاغلات الحربية بما ذكر، اهتم السلطان والصدر الأعظم بالإصلاحات الداخلية والنظامات الحربية. وأنشأ كتاتيب وجوامع وكباري وقشلاقات، ونحو ذلك من الأساسات الخيرية. وتأمين الحجاج من تعديات العرب عليهم.

وفي سنة ١١١٢ جمع سليم كراي خان أخو خان قريم الغازي الكثيرين من طوائف نغاي

وبوجاق، وأظهر هناك الفساد. فأحالت الدولة تأديبه على محافظ أوزي فانهزم والتجأ إلى الأستانة.

وفي سنة ١١١٣ إهتم حسين باشا الصدر الأعظم بضرب النقود الفضية في سلانيك وتعمير القلاع.

وفي هذا العام أفسد قسيسو الجزويت فيما بين الأرمن لدخول فريق منهم في مذهب الكاثوليك، وعدم رضا الآخرين بذلك. فاستفحلت الفتنة، فاضطرت الدولة إلى عزل بطريق الأرمن، ونفي بعض من القسيسين المذكورين، وقفل مكتبهم الموجود بأرضروم.

وفي سنة ١١١٤ عين مصطفى باشا دالطبان للصدارة، وصار فيض الله أفندي المفتي الذي كان معلماً للسلطان يتداخل في أمور الدولة. فعزل مصطفى باشا الصدر الأعظم، وتولى بدله محمد باشا رامي.

وفي هذه الأيام ولد ولد للسلطان سماه مراداً. وكان السلطان إذ ذاك في أدرنة. وفي ذات يوم إجتمع الأوجاقيون بسبب سير المفتي المذكور بما يخالف رغبتهم، وأخرجوا الراية الشريفة من السراية، ومعهم ستون ألفاً خارج الأستانة. فقام السلطان من أدرنة بما معه من العسكر، وعند ما قرب منهم انضم عسكره إليهم. فلما رأى ذلك خلع نفسه ودعا أخاه أحمداً وأجلسه.

وفي سنة ١١١٥ مات مصطفى بعد خلعه بخمسة أشهر، رحمه الله رحمة واسعة.

وكان له من الأولاد: السلطان محمود الأول، والسلطان عثمان الثالث. ولم يذكر شيئاً عن الآخرين. ولم أقف إن كانوا ماتوا في حياته، أو لم تذكرهم التواريخ لعدم توليتهم السلطنة.

* * *

(أسماء معاصري السلطان مصطفى الثاني من الأمراء والملوك وجهاتهم)

أوروبا

الروسيا	:	بطرس الكبير.
أسوج	:	شارلي الثاني عشر من عائلة دبون .
فلمنك	:	جمهورية .
أوستريا وألمانيا	:	ليوبولد الأول من عائلة بسبورغ .
فرنسا	:	لوي الرابع عشر.
بروسيا	:	فردريك الأول .
الونديك	:	جمهورية .
أسبانيا	:	فليب الخامس من عائلة بوربون .
دانيمارك	:	قرستيان الخامس، ثم فره دريك الرابع .
انكلترا	:	كيلوم الثالث .
ساكسونيا	:	شارل الثاني عشر من عائلة ألبرت .

* * *

[٢٣] السلطان أحمد خان الثالث

(إبن السلطان محمد الرابع)

ولد المشار إليه في سنة ١٠٨٤، وجلس سنة ١١١٥، بناء على طلب أخيه السلطان مصطفى كم تقدّم، بالغاً من العمر إحدى وثلاثين سنة. ومدّة سلطنته ثمان وعشرون سنة وكسور.

وابتدأ بمحو آثار المفسدين من اليكيجريين ورئيسهم أي أغاهم. ثم عزل الوزراء والمستخدمين المتعينين بمعرفة وواسطة الأوجاقيين، فانطفأت نيران المظالم.

وفي سنة ١١١٦ بنى قلاع باطوم وبغداد جك وطمرق لتأمين وتقوية الحدود.

وفي هذا العام عصت قبيلة منتفك، وأفسدت في جهات بصرة. فأرسل إليهم فرقة لتأديبهم.

وفي سنة ١١١٧ أظهرت دولة الروسيا المحبة والتودد للدولة، وبعد البحث إتضح أنها مهتمة بالتجهيزات الحربية سراً. فلم تدخل هذه الغفلة على الدولة، بل جهزت دونانمة عظيمة، وساقتها إلى البحر الأسود. ثم اهتم السلطان باتخاذ الأسباب في حسن معاشرة الدول. لكن لنوايا الروسيا ضد الدولة العلية بأنواع السوء، لم تفد الأسباب الودية. بل ظهرت منها العداوة ظاهراً وباطناً على ما يأتي، وكانت استولت على أغلب ممالك دولة أسوج. وتصادف حصول شقاق بين دول الغرب بخصوص المنازعة في وراثة تخت أسبانيا.

وفي سنة ١١١٨ أفسد قسيسو جزويت بين الأرمن لدعوتهم للدخول في مذهب الكاثوليك، فانبنى عليه نفي الكثيرين من الأرمن الكاثوليكيين المفسدين، وسجن بعضهم.

وفي هذا العام طردت دونانمة الدولة قرصان مالطة في البحر الأبيض، وسفن القوزاق من البحر الأسود، فالتجأ الفارون إلى الغازي كراي خان قريم. فغضب السلطان وعزله، وعين بدله قبلان كراي.

وفي سنة ١١١٩ هجم قبلان المذكور على طائفة قبارطاي (وهم طائفة من الشراكسة مما يلي الروسيا)، فمن سوء تدبيره عاد مغلوباً.

وفي سنة ١١٢٠ لما رؤي من حاكم بغدان المساعدة للروسيا سراً والتودد الزائد عزل وعين بدله.

وفي سنة ١١٢١ انتصر بطرس الكبير على قارلوس الثاني ملك أسوج فهرب الأخير، والتجأ إلى قلعة بندر من ممالك الدولة العلية.

وفي سنة ١١٢٢ جعل بطرس الكبير قبول الملك المذكور إهانة له وعداوة من الدولة العلية، فطلب منها طرده وعزل رئيس القلعة المذكورة ترضية له، فردت عليه الدولة الطلب. فقام في الحال بجيشه الجرار على بلاد الدولة. فأرسلت الدولة محمد باشا البلطجي الصدر الأعظم لمقابلته، فأسرع المشار إليه بالسير حتى التقى مع بطرس الكبير في جهة قالجي، فاشتبكت الحرب واشتد لهيبها، فانتصر الصدر الأعظم، وكاد أن يحصره هو وعائلته، فأرسل بطرس كترينا زوجته للصدر الأعظم طلباً للصلح والأمان، فقبل على شروط منها:

رد قلعة أزاق التي كانت للروسيا بناء على معاهدة سنة ١١٠٩.

وهدم الإستحكامات التي أنشأتها الروسيا على ساحل البحر الأسود.

وعدم جواز إستحكامات بدلها مرة أخرى.

وعدم التعرض لملك أسوج في عودته إلى بلاده.

وعدم جواز مرور دونانمتها في البحر الأسود.

ودفع ثمانية آلاف جنيه ذهباً غرامة حربية خلاف ما أعطي للصدر الأعظم مما لم أقف على مقداره. وما كان ذلك ممنوعاً بل كان من ضمن العادات.

وفي سنة ١١٢٤ افترقت وزراء الدولة وأصحاب الكلمة في أمر الصلح المذكور. ففريق استصوبه والآخر خطأ الصدر الأعظم. قولاً منهم: أنه كان ممكن القبض على بطرس وعائلته وإرسالهم للأستانة العلية. وبعد مجادلات تغلب رأي الأخير، وترتب عليه عزل ونفي الصدر الأعظم.

وفي سنة ١١٢٥ ظهرت من دولة الونديك علامات الخداع بالسعي في التجهيزات الحربية سراً، وكذلك الروسيا من قبل جفاف نسخ المعاهدة. فاضطرت الدولة إلى الصلح مع دول الشمال.

وفي سنة ١١٢٦ دست دولة الونديك الدسائس في طائفة الألبانيين الذين هم على مذهب اللاتين، وأهالي الجبل الأسود، فثاروا ضدّ الدولة. وكذلك حصل شقاق بمصر بين الأمراء المعروفين بالمماليك. وكذلك ظهرت بالشام الفتن والفظائع، فاضطرت الدولة إلى إرسال فرقتين إلى مصر والشام، وساقت باقي الجيش ضدّ الونديك. ففتح جزيرتي أشنديل وأكنة.

وفي سنة ١١٢٧ ثارت أرْوام رومة من ظلم دولة الونديك ورغبوا في الرجوع للدولة العلية.

وقد تقدّم أن هذه الجهه كانت ألحقت بدولة الونديك بناء على معاهدة سنة ١١٠٩، فاتخذت الدولة إظهار عداوة الونديك لها ونقضها العهد وإستغاثة الأروام بها وسيلة لقبول إستغاثاتهم، فذهب الصدر الأعظم علي باشا الداماد (أي الصهر)، فاستولى على قلاع كوردوس وأنابولي ومطون وقورون ومسترة ومنكشة وجبل مانية وغيرها حتى ميناء سودة بالكريد التي كانت باقية بها الونديك. وكذلك في حدود هرسك صار تخريب ممالكها.

وفي سنة ١١٢٨ إتحد وتحالف أمبراطور ألمانيا وأوستريا مع الونديك (الإتفاق (٤٠))، وقدّما الإحتجاج على الدولة بأنها هي التي خرقت حرمة المعاهدة المنعقدة في سنة ١١٠٩، مع أنه من البين أن الونديك هي الناقضة بأفعالها المتقدّمة آنفاً، وساق الأمبراطور عساكره إلى الحدود. فذهب الصدر الأعظم للمقابلة، فقدّم له أغلب أمراء المجر الشكوى من ظلم الأمبراطور لهم، فوعدهم بتخليص بلادهم من يده. لكن انتصر عسكر الأمبراطور على جيش الدولة بهمة باش وكيله البرنس أوجن بعد وقوع علي باشا الداماد شهيداً، واستولى على بلاد الأفلاق.

وفي سنة ١١٢٩ أرسلت الدولة جيشاً جديداً هناك، وانتصرت دونانمة الدولة في نهر طونة على سفن الأعداء حتى شتتت شملها. لكن انتصرت الأعداء براً بجوار بلغراد، واستولت على قلعتها، ولم ينهزم نعمان باشا الكوبريلي، لكن لقلة فرقته إنسحب أخيراً. ثم عين إبراهيم باشا الداماد للصدارة العظمى.

وفي هذا العام لما رأى بطرس الكبير إشتغال الدولة بهذه الحروب وإتمام التجهيزات الحربية، قدم مذكرة للدولة العلية يطلب منها تعديل معاهدة الصلح السالفة الذكر وإمتيازات لرعاياه، خصوصاً في القدس الشريف. فأعطته الدولة الإمتيازات مضطرة لداعي الحالة.

وفي سنة ١١٣٠ إنتصرت دونانمة الدولة على سفن الونديك ثلاث مرات متواليات ، فطلبت الصلح مضطرة. فتوسطت دولتا إنكلترا وهولاندة.

وفي سنة ١١٣١ الموافقة سنة ١٧١٨ ميلادية تم الصلح على إعادة قلاع إيموجة وبرة وزة ونيجة وجزائر اليونان ومورة للدولة العلية.

وفي سنة ١١٣٢ إهتم بطرس الكبير بتفريق فرنسا عن مسالمتها مع الدولة العلية ، وذهب بنفسه إلى باريس. فشعرت الدولة العلية بالمضار التي ربما تنتج من هذه السياحة ، فأرسلت محمد أفندي سفيراً إلى باريس لتقوية وثائق العلاقات.

وفي سنة ١١٣٣ قابلته فرنسا بالتبجيل والتعظيم غير أنه لم يحصل أدنى ثمرة من هذه المأمورية ، وذلك لغموض سياسة فرنسا وقتئذ ، حيث أنها كانت تريد تخليص ممالك دولة أسوج التي اغتصبتها الروسيا منها ، وذلك لا يمكن إلا بقهر الروسيا. فألحت فرنسا على محمد أفندي السفير بأن تتحارب الدولة العلية مع الروسيا. ولما كان بطرس الكبير حليفاً لأمبراطور ألمانيا وأوستريا ودولة الونديك لم يقبل السفير المذكور إلحاحات فرنسا بذلك.

وأما بطرس الكبير فإنه اتخذ حصول الإختلالات الجسيمة في بلاد إيران وضعف حكومتها فرصة لتوسيع بلاده الآسيوية أضعافاً ، حيث استولى على البلاد الكائنة غربي بحر الخزر.

وفي سنة ١١٣٤ ضعفت دولة إيران ضعفاً كلياً ، فاستقلت بكوات بلاد الكرج. وكذا الأفغانيون بقندهار وقتلوا الشاه حسين واستولوا على أغلب بلاد إيران. ثم حصل الخصام والمنازعات في شروان بين الشيعيين والسنيين ، وطلبوا من الدولة العلية إنتخاب أحد منهم والياً عليها ، وإلحاقها بممالك الدولة ، فقبلت منهم هذا الطلب لكون شروان كانت لها من قبل مدة من الزمن.

أما الروسيا فإنها تغولت في جنوب بحر الخزر ، فاضطرت الدولة العلية إلى إرسال عساكرها إلى هناك. وكانت الروسيا قد استولت على جهات تارخو ودربندة لحدباكو. وأما الدولة فإنها استولت على قلاع وجهات كوري وتفليس وكنجة وشماخ وجميع بلاد الكرج وقرة باغ وشروان.

وهنا يتأسف كل مسلم من إستمرار تفرق دول الإسلام وغلطاتهم الكثيرة التي ترتب عليها إستقلال البعض وإستيلاء الأجانب عليه بعد معاناة تلك المشاق.

وفي سنة ١١٣٥ غش بطرس الكبير الشاه طهماسب الذي نصب نفسه شاهاً على إيران بغير أمر قانوني، بقوله له: لو تركت لي جهات كيلان ومازندراني وأستر أباد مع ما استوليت عليه من قبل أساعدك على حفظ مركزك، وإسترداد ما أخذته الدولة العلية منك إليك. فقبل ذلك منه، ومكنه من هذه البلاد. ولما بلغ الدولة ذلك أرسلت دونانمة عظيمة بالبحر الأسود وجيشاً لبلاد إيران.

وفي سنة ١١٣٦ إستولت الدولة العلية على ولايات أردلان وسنة وكرمان شاه وهمدان وأورستان بواسطة والي بغداد. واستولت أيضاً على جهات سلماس خوى ومراغة وأردبيل بواسطة عبد الله باشا الكوبريلي.

ثم إن بطرس الكبير حرّض أمبراطور ألمانيا وأوستريا على محاربة الدولة بناء على المحالفة القديمة بينهما (الإتفاق (٤١)). وفي هذه الأثناء صار أشرف خان أحد أمراء إيران أميراً على جانب من بلاد العجم مع وجود الشاه طهماسب في مركزه، وذلك من إستفحال الإختلال في بلاد إيران.

ثم إن فرنسا توسطت بين الروسيا وألمانيا وأوستريا من جهة، وبين الدولة العلية من جهة أخرى في الصلح، فاستقر الرأي على ذلك. ومضمونه: أن الجهات الكائنة في سواحل بحر الخزر تكون للروسيا وبلاد الكرج وشروان وقرة باغ وأذربيجان، أعني يكون الخط الفاصل مستقيماً من همدان إلى أردبيل. فجميع البلاد الواقعة غربيه تكون للدولة العلية. وفي نظير ذلك تساعد الدولة العلية الشاه طهماسب على حفظ باقي بلاده من الإغتيالات الروسية.

وفي سنة ١١٣٧ مات بطرس الكبير واستولت بدله على البلاد الروسية كترينا الأولى، فدست الدسائس في بلاد العجم على مضادة الدولة العلية. وجدّدت المحالفة سراً مع أمبراطور ألمانيا وأوستريا على محاربة الدولة العلية (الإتفاق (٤٢)).

وأما السلطان أحمد ووزراؤه فإنهم وجهوا أفكارهم إلى إستمرار المسالمة وتبادل المساعدة مع دولة إيران. لكن دسائس الروسيا وشدّة عداوة الإيرانيين للدولة العلية تغلبتا. فما كان من عساكر إيران إلا أنهم هجموا على حدود الدولة، فاضطرت الدولة إلى المقابلة بالمثل. فأرسلت إبراهيم باشا الصدر الأعظم بالجيش.

وفي سنة ١١٣٨ أرسل أشرف خان المذكور سفراء ومعهم بلاغ بأنه لا يصح الحرب بين دولتين مسلمتين. وكان ذلك من باب الدسيسة ليس إلا كما يعلم مما سيأتي.

وفي سنة ١١٣٩ شتتت عساكر الدولة شمل الطوائف العصاة المساعدين لعساكر إيران، وهم من عربان هويرة وشاهسون والأكراد والأفغان والأرمن. وكان من مات منهم وجرح يقرب من ستين ألفاً.

ثم إن أشرف خان حضر في ميدان الحرب، ودس دسائس في الجيش العثماني، ونادى فيه بأعلى صوته: كيف تزعمون أنكم مسلمون وأنتم تقتلون المسلمين إخوانكم؟ أفهل تشفع لكم أمراؤكم يوم القيامة؟

فما كان من عساكر الدولة إلا أنهم أصغوا لقوله، وألقوا السلاح تاركين ميدان الحرب فجأة. فاحتل الإيرانيون بغير حرب الولايات العشرة السابق أخذها منهم بموجب صلح سنة ١١٣٦. وعلاوة على ذلك فإنهم أخذوا قلعتي سلطانية والأبهر.

وفي سنة ١١٤٠ ألقى قسيسو الإفرنج الفتن في الأرمن وعشموهم باستقلالهم، وتعين واحد منهم ملكاً. فبناء عليه ثاروا ثورة واحدة وعثوا في الأرض فساداً. ففي الحال شتتت الدولة شملهم ونجا من هرب من رؤسائهم إلى الونديك. ثم عفا السلطان عن الباقين.

وفي سنة ١١٤١ جمع الشاه طهماسب من طوائف جمشكزك وأقشار وسائر التركمان خمسة وعشرين ألفاً وتغلب على الأفغان. ثم دخل مدينة أصفهان عاصمة إيران وقتئذ. وجمع منها أيضاً عساكر كثيرة، وذهب بها إلى تبريز لرد ممالك مورثه إليه.

وفي سنة ١١٤٢ أرسل السفراء إلى السلطان في الأستانة بذلك. فعقد السلطان المجالس، وجرت مذاكرات كثيرة بشأن ذلك.

وفي الأثناء أتى الخبر بدخول عساكر الشاه في الحدود العثمانية، فاضطرت الدولة إلى تجهيز جيش كاف. ولمصادفة ذلك لفصل الشتاء مضت أربعة أشهر ولم يرسل الجيش. فاستولى الشاه على قلاع تبريز وهمدان وكرمان شاه.

وفي سنة ١١٤٣ حصلت بالأستانة فتنة عظيمة بسبب ما نسب لإبراهيم باشا الداماد الصدر الأعظم من التأخير عن إرسال الجيش. فقام باترون خليل الأوجاقي وجمع عشرين من زملائه، وقام اليكيجريون وحملوا القزانات على عواتقهم علامة على الإختلال والثورة على حسب عوائدهم. وكان السلطان أحمد في أسكدار، فعاد إلى السراية، وعقد مجلساً في دائرة الخرقة الشريفة للمشورة في

هذا الأمر، وإذا بالعصاة هجموا على السراية وحاصروها وطلبوا بغير إمهال رؤوس الصدر الأعظم والقبودان باشا والكتخدا بك فسلموهم إليهم، ولم يتركوا محاصرة السراية. في الحال أحضر السلطان إبن أخيه السلطان محمود الأول وأجلسه للسلطنة واختار هو لنفسه العزلة في خلوة من السراية، قولاً منه:

إني لا أحب نزول قطرة من الدم في نظير ما بقي لي من الحياة الدنيا.

وكان عمره يومئذ ٥٩ سنة.

وله من الأولاد: السلطان مصطفى الثالث، والسلطان عبد الحميد الأول.

* * *

(أسماء معاصري السلطان أحمد من الأمراء والملوك وجهاتهم)

أوروبا

أوستريا وألمانيا : شارل السادس .... أمبراطور.
إنكلترا : الملكة آنا من فاميلية ستوار.
أسوج : شارل الثاني عشر.
دانيمرك ونوروج: فردريك الرابع .... ملك.
أسبانيا : فليب الخامس .... ملك.
فرنسا : لوي الخامس عشر.
بروسيا : فره دريك كيلوم الأول .... ملك.
فلمنك : جمهورية رئيسها هنسبوس.
روسيا : الأمبراطور بطرس الكبير، ثم كترينا الأولى.
الونديك : جمهورية رئيسها دوجة.
ساردنيا : فرفنور آمه ده .... ملك.
بلونيا : فردريك أوكست .... ملك.
برتغال : بدور الثاني.
نابولي وسجليا : كانتا على أمبراطور.
ألمانيا وأستريا : شارل السادس .... أمبراطور.
إيران : الشاه حسين، ثم محمود خان، ثم طهماسب الثاني.

* * *

[٢٤] السلطان محمود خان الأول

ولد المشار إليه في سنة ١١٠٨، وجلس في سنة ١١٤٣، بالغاً من العمر خمساً وثلاثين سنة. ومدّة سلطنته ٢٥ سنة.

وقد تقدّم ذكر الفتنة الكبرى التي انبنى عليها تنازل السلطان أحمد عن السلطنة.

وكان الأوجاقيون العصاة قد غيروا وبدلوا في الوزراء والمآمير. فبهمة بشير أغا (أغا دار السعادة) عين للصدارة العظمى عثمان باشا توبال [١]، وبهمتها محى أثر خمسة عشر ألفاً من الأشقياء المذكورين. وقد تمكن السلطان من بث الأمن في الأستانة.

وفي سنة ١١٤٤ أعلن السلطان الحرب على شاة العجم. وإن كان متوالياً من قبل لإستيلاء الشاه على الجهات المتقدم ذكرها بغير إعلان حرب. فأرسل علي باشا بن الحكيم فاقتتل مع عساكر إيران بقيادة (نادر قولى خان) بجوار كوريجان من ملحقات همدان، فقتل من الإيرانيين نحو ثلاثين ألفاً، وانهزم عسكرهم شر هزيمة، واسترد علي باشا الجهات التي استولى عليها الإيرانيون أخيراً. فأرسل نادر شاه سفراء لطلب الصلح، فتم الصلح بتعديل الحدود، واسترداد بعض جهات أخرى. لكن لبقاء ولايات أردبيل وأذربيجان وأردلان وهمدان ونهاوند للإيران غضب السلطان وعزل جميع الوزراء.

(تنبيه): لصعوبة المواصلات وطول واتساع ممالك الدولة العلية كان السلاطين يفوضون الأمور للولاة والسرداريين وأمثالهم فيما يفعلون من حرب وصلح وغير ذلك. وما تم في هذا الصلح وغضب السلطان لذلك فهو من هذا القبيل.

وفي سنة ١١٤٥ خابرت الروسيا سراً شاه الإيران بالإتفاق ضد الدولة (الإتفاق (٤٣)). ثم أرسلت مذكرة للدولة تدعي بها أن الأراضي الكائنة بجوار نهر قوبان، الساكن بها قبيلة القبارطاي

(١) أي الأعرج.

من الشراكسة كانت لطائفة القوزاق، ويلزم إعادتها إليهم. وهذه كانت إحتجاجات لجر المشاكل فقط. فاهتمت الدولة العلية للإحتياط بالتجهيزات الحربية.

وفي أثناء ذلك أنزل نادر قولى خان القائد الإيراني السابق ذكره الشاه طهماسب الثاني عن كرسي المملكة، ونصب نفسه شاهاً. ثم خلع شاه كرمان وهجم على بغداد وحاصرها، وأظهر حكمه على جميع إيران مستقلاً.

وفي سنة ١١٤٦ ذهب عثمان باشا توبال الصدر الأعظم سرعسكراً، فترك قولى خان الإيراني محاصرة بغداد وقابل عثمان باشا المذكور في ساحل نهر الدجلة. وكان عساكر الدولة متفرقين في جملة حدود، معظمها في حدي الروسيا وإيران، فوقعت حرب هائلة وانهزم جيش إيران. لكن أتت فرقة إيرانية إمداداً، وهجمت على عثمان باشا فوقع شهيداً، وانهزم عسكره.

وفي سنة ١١٤٧ وصل نادر قولى خان الشاه المذكور إلى شهر زور. ولما لم ترد إليه أخبار بانتصارات الروسيا على الدولة العلية طلب الصلح. فأرسلت الدولة فتح كراي خان قريم إلى شروان بجيش التتر لجلب أميال سر خاي خان وشمخال للدولة العلية كما كانا، وهما أمراء الداغستان، فلم ينجح لسبب مخابرة الروسيا والإيران لهما بمحو نفوذ الدولة العلية عنهما، واستقلال بلادهما استقلالاً تاماً. وعاد فتح كراي بعساكره إلى قريم.

أما الروسيا فإنها لم تشأ هجومها على بلاد الدولة مباشرة، بل احتلت بلونيا، ونصبت من قبلها أحد الأمراء من محاسيبها ملكاً لها. ثم حاصرت قلعة أزاق من أملاك الدولة العلية المستردة بناء على صلح محمد باشا البلطجي مع بطرس الكبير سنة ١١٢٣.

وفي سنة ١١٤٩ فرح نادر شاه من إعلان الدولة العلية للروسيا بالحرب، وإرسال نحو ثلثي جيشها أمام الروسيا، فأخذ عساكره وذهب إلى جهات أردبيل وقره باغ، واستولى على قلعة بايزيد، وانتصر على عساكر الدولة. ثم استولى على تفليس وروان وشروان وجميع بلاد الكرج. ثم طلب الصلح.

وفي هذه الأثناء قام أمبراطور ألمانيا وأوستريا (الإتفاق (٤٤)) وهجم على بلاد الدولة قياماً بشروط المحالفة بينه وبين الروسيا والإستيلاء على بلاد الدولة في هذه الأوقات الحرجة.

ولما رأت الدولة العلية هذه المصائب فضلت المصالحة مع إيران بترك أغلب الجهات التي استولت عليها حديثاً.

وفي سنة ١١٥٠ قسمت الدولة العلية جيشها بين حدود الروسيا وألمانيا.

وفي أثناء ذلك احتلت الروسيا بلاد قريم، وانتصرت على عساكر الدولة التي كانت بجوار قلعة أوزي.

وأما أوستريا فإنها انتصرت على عساكر الدولة، واحتلت الصرب بأكثر من مائتي ألف عسكري، وحاصرت قلعة نيش. فحصل حرب هائل بينهم وبين أحمد باشا الكوبريلي والي روملي فاضطرت عساكر أوستريا إلى الإنسحاب وترك القلعة.

ثم أرسلت أوستريا جيشاً آخر إلى حدود البوسنة، واستولت على بعض حصار غير مهم، وكان معها نحو الثلاثين ألفاً من الألبانيين والصربيين. فما كان من علي باشا بن الحكيم واليها إلا أنه أفناهم، ولم ينج منهم إلا القليل. ولقرب فصل الشتاء توسطت فرنسا في الصلح. وأساسه هو ترك أغلب البلاد التي احتلت فيها الأعداء فطاولتهم الدولة العلية في المخابرات حتى مضى فصل الشتاء.

وفي سنة ١١٥١ عادت الحرب كما كانت، فانتصرت الدولة على الأعداء في بوسنة، وقتلت منهم كثيراً، واستردّت قلاع بلغراد وسمندرة وأورشوة وبعض جهات من ولاية بانان.

وفي سنة ١١٥٢ إنتصرت الدولة على الروسيا براً في جوار نهر بروط، وكذلك في أورقبو، وبحراً في بحر أزاق بتدمير دونانمتها. لكن أرسلت الروسيا سبعين ألفاً من جيشها مع القوزاق بطريق بلونيا، واستولوا على قلعتي خوثين وأياش.

وفي أثناء ذلك إنتصرت فرقة من عساكر الدولة على أوستريا، فملت الدول من الحرب ورغبت في الصلح بواسطة فرنسا.

أما الدولة العلية فإنها ملت أكثر منهن. ولكن أظهرت الصبر والجلد حتى تساهلت الدول المحاربة والواسطة. وقد تم الصلح على شرط أن بلغراد والصرب والأفلاق ترد للدولة من مستوليات ألمانيا وأوستريا وعلى هدم قلعة أزاق وإنجلاء عساكر الروسيا عن سواحل نهري أوزي وبراد والقبرطاي وداسن، وعدم جواز سفن حربية للروسيا في البحر الأسود، وعلى تعيين قنصل لها بالأستانة.

وفي سنة ١١٥٣ تجددت المعاهدات التجارية بين الدولة وبين دولتي فرنسا وأسوج.

وفي هذا العام حصل قحط عظيم من توالي الحروب. ثم إن نادر قولي خان شاه إيران خرج عن

الأطوار اللائقة لسكرته مما ناله من الصلح الأخير من استرداد بعض الممالك كما تقدّم في سنة ١١٤٩. فأرسل سفيراً كبيراً، وبرفقته أربعة آلاف من خدمه وحاشيته إلى الأستانة ليطلب التصديق على مذهبه الخامس الجعفري، وتخصيص ركن مخصوص له بالحرم الشريف. فردّه السلطان بجواب مبهم مؤداه أن علاقة الدولتين في غاية من الصفاء.

وفي سنة ١١٥٤ مات أمبراطور ألمانيا وأوستريا، وجلست وارثته الأمبراطورة مارجزبا فلم تصدّق الدول عليها، فحصل بينها وبين بعضهن عداوة. وعرضت أغلب الدول على الدولة العلية العذر عن الصلح الماضي، وانتهاز هذه الفرصة للإنتقام من دولة أوستريا وألمانيا العدوّة القديمة. فلم يقبل السلطان محمود هذا العذر، وقال: إن سلاطين الدولة جميع أعمالهم مملوءة بالشهامة والشرف والصداقة والمروءة، لا كأعمال اللصوص والقرصان. وبالفعل صادق على أمبراطورية الأمبراطورة (ومن العجب أن هذا الجميل الفائق الحد لم يثمر ولم ينقص شيئاً من العداوة المستمرة من دولة أوستريا وألمانيا للدولة العلية).

وفي سنة ١١٥٥ توهم نادر شاه أن عدم مهاجمة الدولة العلية على أوستريا وألمانيا في حال حرج موقفها من عدم تصديق الدول على أمبراطوريتها ومهاجمة أغلبهم عليها، ما هو إلا لفرط ضعفها من استمرار الحروب السالفة. فطلب ثانياً التصديق على المذهب الخامس كما سبق، وطلب أيضاً ولايات كردستان والعراق. وهجم على حين غفلة على مدينة بغداد.

وفي سنة ١١٥٦ أرسل السلطان الخلع على كل من سرخاي خان وشمخال وأوسمي أمراء دغستان السالفي الذكر في سنة ١١٤٧، وجهز جيشاً بقيادة سر عسكري ديار بكر وبغداد، فانتشبت الحرب بينهما وبين الشاه بالقرب من نهر الزاب. فانهزم عسكر الشاه واضمحل، وفر هو هارباً. ولكن افتكر أن جميع قوّة الدولة العلية مع السرعسكرين المذكورين. ومن جهة أخرى فإنه خاف من الشعب الإيراني أن يعتبره مهاناً، فاهتم بالتجهيزات الحربية، واتحد مع بكوات الأمّة الكرجية.

وأما أحوال الأستانة فإن حسن باشا عين للصدارة العظمى، وكان غيوراً حازماً. فسعى في الإصلاحات الداخلية، وجهز مائة ألف من العساكر في جهات القارص وديار بكر وبغداد.

وفي سنة ١١٥٧ هجم نادر شاه ومعه بكوات الكرج على روان وانتصر على والي جلدر. ثم اتفق مع العربان وبعض الأكراد حتى بلغ عسكره مائتي ألف، وهجم بنفسه على قلعة قارص، وهناك

اشتبكت الحرب وامتدت خمسة أشهر، وكانت الحرب في أغلب الوقائع سجالاً، وأخيراً اشتد وطيسها وحمي فانتصرت عساكر الدولة، وانسحب الشاه راجعاً بما بقي من جيشه.

وفي سنة ١١٥٨ إقتفى أثره أحمد باشا الجنه جي.

وفي هذه الأثناء إنضمت عساكر التتر مع خان قريم إلى باقي الجيش الذي بقارص. ثم وقعت الحرب بقرب روان بين الشاه وبين محمد باشا يكن السر عسكر، وبعد برهة وقع السر عسكر شهيداً وتفرّقت عساكره. فبناء عليه أرسل مذكرة يطلب فيها جهات وان والموصل وبغداد وبصرة، يعني أن هذه الولايات كانت للإيران قديماً، وما زال غيرها تحت يد الدولة العلية.

فلما بلغ ذلك السلطان قال: إن دماغ هذا الشاه مملوء بالفساد. فأمر في الحال بجمع عساكر روملي والأناضول، وأرسلهم إلى ديار بكر، فكان جيشاً عظيماً عديم النظير. فلما رأى الشاه هذا الجيش الهائل سحب طلباته وطلب الصلح، فوقع الصلح على أساس وشروط معاهدة السلطان مراد الرابع، وذلك في سنة ١١٥٩.

وفي سنة ١١٦٠ إشتدت منازعة الدول في وراثة الأمبراطورية، وصار كل منها يرسل السفراء إلى الأستانة ويطلب المشاركة والمحالفة، حتى وعد بعضهم برد بلاد المجر للدولة العلية. فلم يقبل السلطان محمود قائلا: إني لا أحارب أحداً بادئاً بالتعدي.

وفي هذا العام أعدم نادر شاه أمراء عساكر إيران، فطلب أهالي تبريز وكرمان شاه وهمدان عساكر الدولة لاحتلال بلادهم. فلم يتحوّل السلطان محمود عن عهده قولاً منه: أن في ذلك نوعاً من الغدر، ولا بد من حصول سفك دماء بين المسلمين في ذلك. ثم جدّد المعاهدة مع أوستريا.

وفي سنة ١١٦١ أراد اليكيجريون بالأستانة وبغداد إحداث فتن، وأظهروا بعض الوقاحة في الأسواق. ففي الحال تمكن السلطان من تأديبهم تأديباً صارماً. ثم اشتغل بأبنية جوامع وكتبخانات وقشلاقات وغيرها من العمارات الخيرية.

وفي سنة ١١٦٢ صار تأديب عربان بغداد وقرصان البحر الأبيض، وخلاص المسلمين الذين وقعوا أسراء في يد القرصان الموجودين في بلاد إيطاليا.

وفي سنة ١١٦٣ ملئت بلاد الغرب بالثورات والفساد وعصيان بني تميم. فأرسل السلطان للولاة بالموصل وبغداد والرقة بتأديبهم.

وفي سنة ١١٦٤ ظهر الفساد بالأناضول وبوسنة من طائفة الأكراد وغيرهم . في الحال أطفىء لهيبه وخمدت ناره .

وفي هذا العام شكى بعض الدول للدولة العلية من تشتت مآربهم . وذلك أن الروسيا أرادت الإستيلاء على بلاد أسوج الشمالية ، فاضطربت أحوال الدول ، وحرضت فرنسا الدولة العلية على محاربة الروسيا ، وإن دولة بروسيا ستحاربها بالإتفاق مع الدولة . فلما أحست الروسيا بذلك أرسلت لائحة تبرىء نفسها من هذه الإشاعة .

أما الدولة العلية فإنها لم تصغ لأقوال فرنسا ، بل أظهرت علناً الحياد التام ، وأنها ليست مع أحد من الدول ضد الأخرى .

وفي سنة ١١٦٥ حصلت منازعات بين الشريف مساعد أمير مكة وبين الشريف محمد بن عبد الله ، فقدّم الأول الشكوى في حق الثاني . فأرسلت الدولة مندوباً عالياً فأصلح ذات بينهما .

وفي أثناء ذلك ظهر في ملاطية من عشائر مللو وتجرلو، وممن يدعي إبن قلندر الشقي العصيان والفساد . وكذا ظهر في هزارغراد وروسجق وقرمان وما حولهن . وكذا ظهر قرصان مالطة في البحر الأ بيض . فأرسلت الدولة العساكر لتأديب الجميع ، فشتتت شملهم وأسرت القرصان . ثم إن السلطان محمود إستشعر بوجوب الإهتمام في تزايد القوى البحرية ، فأمر بإنشاء ثلاث سفن جسيمة ، كل منها بثلاثة عنابر مع استمرار إنشاء غيرها .

وفي سنة ١١٦٦ حصلت فتنة من اليكيجريين بالأستانة منشؤها أن بشير آغا دار السعادة عامل العلماء بما لا يليق بهم ، فسكنت الفتنة بقتل هذا الآغا .

وفي سنة ١١٦٧ إستمرت راحة الأهالي مع عدم حصول إختلال بهمة السلطان ووزرائه ، مع أن اليكيجريين كانوا يسعون دائماً في إيجاد الإختلال .

ثم ظهرت فتنة في أواخر السنة بسبب أن قسيسي الإفرنج كانوا لا يفترون عن دس الدسائس بين الأرمن تارة وبين الأروام أخرى ، وأنه من ظلم البطارقة وارتكاباتهم ثارت الأروام ، وهجموا على بيت بطريقهم ونهبوه . وأعقب ذلك حصول زلزلة عظيمة هدمت الأستانة حتى الأسوار[١] ، ولولا خروج الأهالي في الفلوات لماتوا .

---

(١) هكذا ورد . وربما جاء تهويلاً للأمر، وإلا فلا يعقل أن جميع الأستانة هدمت عن آخرها فليتأمل .

وفي سنة ١١٦٨ مرض السلطان، فكتم الأطباء حالة مرضه خوفاً من حصول الفتن، حتى أن كافة الأوامر السلطانية كانت تصدر كما كانت في حال صحته.

ثم لما اشتد به المرض في ذات يوم وكان يوم جمعة، لم يشأ تأخيره عن صلاة الجمعة ولا عن إجراء الموكب المعتاد فذهب، وبعد الصلاة عاد وهو راكب جواده والعساكر مصطفة من الجانبين.

وإذا بالأجل المحتوم أتاه فاستشعر به، وقال لمن بجانبيه من الوزراء والأمراء: إن الأجل قد أتى على ما أظن، فيلزم أن تحافظوا عليّ راكباً من غير أن يشعر أحد. فقاموا بأمره، حتى إنه لما وصل باب السراية مات راكباً، رحمه الله رحمة واسعة. ودفن في تربته المخصوصة بيكي جامع. ولم يكن له ولد.

* * *

(أسماء معاصري السلطان محمود الأول من الأمراء والملوك والحكام وجهاتهم)

أوروبا

نابولي وسجلية	:	دون قارلوص من فاميلة بوربون.
فلمنك	:	جمهورية رئيسها كيلوس الرابع.
بروسيا	:	فردريك الثاني من فاميلة هوهتجولو.
إنجلترا	:	جورج السادس من فاميلة هاتور.
أسبانيا	:	فردينانذو من فاميلة بوربون.
فرنسا	:	لوي الخامس عشر من فاميلة بوربون أيضاً.
روسيا	:	إيوان الخامس.
أسوج	:	فردريك.
ألمانيا وأوستريا	:	شارل، ثم مارجزبا .... أمبراطورة.
وندیك	:	جمهورية رئيسها دوجة.
ساردنيا	:	وفنورامه ده.
برتغال	:	بدور الثاني.
دانمرك ونوروج	:	فردريك الرابع.
إيران	:	الشاه طهماسب الثاني، ثم عباس خان، ثم نادرقولي خان.

* * *

[٢٥] السلطان عثمان خان الثالث

(إبن السلطان مصطفى الثاني)

ولد المشار إليه سنة ١١١٢، وجلس سنة ١١٦٨ الموافقة سنة ١٧٥٤ ميلادية، بالغاً من العمر ٥٦ سنة.

وفي أول جلوسه إهتم بإبقاء كافة المعاهدات والمصالحات. ثم اشتغل بالإصلاحات الداخلية، وقفل كافة الخمارات بالأستانة، ومحا ما يخالف الشرع من البدع، ونهى عن مشي النساء في الأسواق بالزي المفتوح. واكتشف للرعية أزياء متنوعة الأجناس في الملابس.

وفي هذا العام حصل نزاع في القدس الشريف بين الأروام واللاتينيين بسبب إخراج اللاتينيين عن محافظة وملاحظة الكنائس ببيت لحم وحلول الأروام محلهم، فتكدرت العلاقات بين الدولة وبين بعض الدول، خصوصاً دولة فرنسا. ثم انتهى الأمر بنفي بعض المتسببين في هذا النزاع.

وفي سنة ١١٦٩ عين علي باشا إبن الحكيم للصدارة، فغير وعزل أغلب أصحاب المناصب. ثم حصل بالأستانة حريق هائل أحرق منها الربع. ثم عزل ونفي الصدر الأعظم المذكور بعد مرور ٥٣ يوماً من صدارته، لكن دسائسه ومساعيه لم ينقصا، حتى أن الصدارة تبدلت ثلاث مرات في مدة وجيزة، ولتغلب أحزابه أعيد للصدارة ثانياً، وأعقب ذلك حصول حريق آخر بادئاً من تيمورقبو، واستمر مدة ٣٦ ساعة حتى احترق الباب العالي وثلثا المدينة، فاضطر السلطان لأن يمر خفية بنفسه، حتى عرف الحقائق وسمع الشكاوى الكثيرة من الناس في حق علي المذكور، فأمر بقتله فقتل. وعين بدله محمد سعيد أفندي، وأنعم عليه برتبة الوزارة.

وفي هذا العام عصى أمراء الأكراد في موش ويطليس وملاس وخوشاف، واستولوا على قلاعها، فساقت الدولة والي أرضروم إليهم، فأدبهم وانتصر عليهم.

وفي هذه الأوقات جاءت السفراء من دول أوروبا للتهنئة بالجلوس. وتم بناء الجامع الذي كان جاري بناؤه في مدة السلطان محمود من مدة ثمان سنين.

وفي سنة ١١٧٠ ظهر إبن قرة عثمان في ولاية آيدين بالعصيان، فقبض عليه وأعدم.

أما السلطان فإنه عزل محمد سعيد باشا الصدر الأعظم، وعين بدله مصطفى ماهر باشا. وبعد زمن قليل عزله وعين بدله راغب باشا.

وفي سنة ١١٧١ عصت عربان الشام وقطعت الطريق على الحجاج. وأعقب ذلك وفاة والدة السلطان ومحمد أكبر أولاد السلطان أحمد الثالث. ثم أراد السلطان عزل راغب باشا الصدر الأعظم وإذا بالأجل المحتوم أتاه، رحمه الله تعالى رحمة واسعة. ولم يكن له ولد.

ومن الغريب أنه مع كون مدّة سلطنته ثلاث سنين غيرت فيها الصدارة سبع مرات، ومدفنه بجامع لاللي.

* * *

(أسماء معاصري السلطان عثمان الثالث من الأمراء والملوك وجهاتهم)

أوستريا وألمانيا	:	فرانسو الأول .... أمبراطور.
بروسيا	:	فردريك الثاني .
أسوج	:	فردريك أدولف .
روسيا	:	إيوان السادس .
فرنسا	:	لوي الخامس عشر.
انكلترا	:	جورج الثاني .
برتغال	:	جوزيف الأول من فاميلية برغش .
بلونيا	:	ساتسلاس لفتونكس .
نابولي وسجلية	:	دونقارلوص من فاميلية بوربون .
فلمنك	:	جمهورية رئيسها كيلوس الرابع .
أسبانيا	:	جورج السادس من فاميلية بوربون .

* * *

[٢٦] السلطان مصطفى خان الثالث

ولد المشار إليه في سنة ١١٢٩، وجلس سنة ١١٧١ الموافقة سنة ١٧٥٧ ميلادية، بالغاً من العمر ٤٢ سنة. ومدة سلطنته ١٦ سنة.

فأبقى راغب باشا في الصدارة. واهتم بتأديب عربان الشام، وفتح طريق الحجاز للحج، ودفع طائفة نغاي التي تجاوزت الحدود الشمالية، وكان تجاوزها بدسائس روسيا، حيث أن أمبراطورتها كترينا الثانية كانت شديدة العداوة للدولة العلية. وهي ليست من العائلة الملوكية، بل كانت زوجة بترو حفيد بطرس الكبير، فتحايلت على خلع زوجها بدعوى أنه لم يتبع وصية جده بطرس الكبير في معاداة الدولة العلية، والسعي في الإستيلاء على الأستانة باستمرار الإتفاق مع أوستريا وألمانيا.

ثم إنها لم تكتف بخلع زوجها، بل تسببت في قتله حتى أنها تستقل بذلك. وكانت ماهرة في الخداع والحيل، فاستقلت بالرأي والحكم. وسعت لدى إنجلترا والدانيمارك والبروسيا وأوستريا مع ألمانيا وأسوج للإتفاق معها على إعادة الأمبراطورية بالأستانة، ومحو دولة فرنسا. ومعنى ذلك هو طرد العثمانيين من أقاليم أوروبا، وإعادة أمبراطورية الرومية في الأستانة.

ومن العجيب أن بطرس الكبير لم يوص بإعادة الأمبراطورية الرومية بالأستانة مع أن كترينا المذكورة خدعت الأمة الروسية في خلع وقتل زوجها، بحجة أنه لم يتبع وصية بطرس كما تقدم، بل وخدعت أوروبا بدعواها أن الغرض هو رفع شأن المسيحيين بطرد العثمانيين من أوروبا، وإعادة الأمبراطورية بالأستانة مع أن حقيقة الأمر غير ذلك. بل كان غرضها الوحيد هو أخذ الأستانة وأوروبا التركية للروسية لا للأروام.

فبهذه الحيلة قادت كترينا المذكورة أوروبا لتنفيذ أغراضها. وفي الحال قامت الدول المتفقة (الإتفاق (٤٥))، وفي مقدمتهن كترينا، بدس الدسائس واشتعال نار الإختلال والثورة في البلقان ومورة.

وأما فرنسا فكانت همتها متوجهة إلى تحريض الدولة العلية على محاربة الروسيا، قائلة لها: إن هذه الفتن من الروسيا التي هي العدوة الوحيدة للدولة العلية. وكان غرضها من ذلك إشتغال الروسيا عنها.

أما رجال الدولة فنهم الصدر الأعظم محمد باشا بن محسن[1]، فقد نهى الدولة عن محاربة الروسيا، وصمم على ذلك مع استمرار التجهيزات الحربية. فتغلب أصحاب الرأي السقيم على عزله من الصدارة.

أما السلطان مصطفى فإنه لم يحزم ولم يتدبر في هذا الأمر المهم كما يجب، بل اشتغل بنظامات وتعديلات الداخلية، ورواج التجارة والصناعة، وتجديد بعض المعامل، وطرد الكسالى والمعروفين بالعكامين من الأستانة، وإرسالهم إلى بلادهم لمشغوليتهم بالزراعة.

وفي سنة ١١٧٢ حصل بين السادات والأشراف بمكة المشرفة الفتن والغوغاء، حتى نتج عن ذلك أن العربان قطعوا طريق الحج. فأرسلت الدولة عبديا باشا بفرقة من العساكر فأعاد الأمن.

وفي سنة ١١٧٣ حصل مثل ما تقدّم في مكة من عربانها، فاهتمت الدولة بالتنكيل بالأشقياء القاطعين للطريق.

وفي هذا العام زلزلت الأرض بالشام حتى خربت منها جملة مدائن، فأرسلت الدولة نقوداً كثيرة مع مأمورين لتعمير ما هدم.

وفي سنة ١١٧٤ شدّد السلطان بمنع المسكرات، وعدم خروج أحد بغير زيه. فانكب الناس على استعمال الأفيون والترياق.

وفي سنة ١١٧٥ أظهرت الروسيا ما في ضميرها من السوء، فأرسلت القوزاق إلى الحدود العثمانية بغتة، فقتلوا من كان موجوداً في بالطة من العثمانيين والبولونيين. ولما ورد هذا الخبر للأستانة اهتمت الدولة بالتجهيزات الحربية.

وفي سنة ١١٧٦ أظهر محمد باشا راغب الصدر الأعظم همته الفائقة في التجهيزات الحربية،

---

(١) هكذا في الأصل. وقد تقدّم أن الصدر الأعظم هو راغب باشا، ولم يأت ذكر عزله، وسيأتي أنه هو الصدر الأعظم. ومات في وظيفة الصدارة كما يأتي قريباً. وربما عزل راغب باشا، وعين بدله ابنه محسن، ثم أعيد راغب باشا، فليتأمل.

وكان مدبراً حازماً متيقظاً، فجعل في حدود الروسيا نصف الجيش أو أكثر، والباقي في حدود أوستريا وألمانيا بخلاف الموجودين في حدود الونديك. غير أنه بالأسف توفي في هذا العام.

وفي سنة ١١٧٧ طغت طائفة الياماق في بغداد، فعزل واليها، وأرسل غيره ذا كفاءة. وأعقب ذلك توقف حاكم كرجستان بناء على إشارة الروسيا عن عدم دفع الويركو المعتاد دفعه للدولة العلية، ووعدته بمساعدة عسكرية. فأرسلت إليه الدولة عساكر، فطلب الحاكم المذكور من الدولة العفو ودفع لها الويركو.

وفي سنة ١١٧٨ إشتدّت الدسائس الروسية في البلاد الممتازة التابعة للدولة العلية مثل كرجستان والأفلاق والبغدان والجبل الأسود والقريم وغيرها مثل مورة، بناء على إتفاق الدول كما تقدم. فكانت همة الدولة العلية في السياسة الخارجية في ذلك الوقت ضعيفة جداً بالنسبة لعصرنا هذا.

وفي هذا العام مات ملك بلونيا وحصل بها إختلال، وأراد العقلاء من أمرائها دخول بلادهم تحت حماية الدولة العلية مع إستقلالها، فقبلت الدولة ذلك لعدم إستيلاء إحدى الدول العظام عليها خصوصاً الروسيا. لكن دسائس كترينا أثرت على أفكار الأكثرين من أمرائها، حيث وعدتهم بالمساعدة لتكون بلونيا دولة كبيرة، فاغتروا بذلك وقبلوا دخول عساكرها في بلادهم. ثم اتفقت كترينا مع بروسيا سراً على مقاسمة بلونيا بينهما. فبناء عليه دخلت عساكرها هناك ونصبت من يدعي بونبا توسكي ملكاً على بلونيا.

وفي سنة ١١٧٩ لامت كترينا حاكم كرجستان على دفع الويركو للدولة العلية، وعرضت عليه قبول عساكرها في بلده لمنع العثمانيين عنه. فبناء على هذه الخدعة قبل. فأرسلت الدولة العلية فرقة من عساكر الأناضول لعزل دانيال سلمون حاكم كرجستان المذكور، وتعيين طهماسب أحد أقربائه بدلاً عنه، لحفظ بلاده من إغتيال الروسيا. وقبل أن يتم ذلك دخلت فيها عساكر الروسيا كما سيأتي.

وفي سنة ١١٨٠ قطع العربان بجوار مكة المشرفة الطريق على الحجاج. فاضطرت الدولة إلى إرسال جانب من العساكر هناك مع حرج الحالة.

وفي هذا العام زلزلت الأرض بالأستانة فانهدم كثير من الأبنية، من ضمنها جامع الفاتح، فحصلت مضايقة كبيرة من عدم وجود نقود لإعادة ما تهدم.

وفي سنة ١١٨١ ثارت أهالي قارص، وقتلوا واليهم. وكثرت القرصان الأجنبية في البحر الأبيض، خصوصاً في مياه قبرص ورودس. فاضطرت الدولة إلى تشغيل جانب من أسطولها لدفع هذا الصادع.

وفي هذا الوقت كان أمراء مصر في شقاق مستمر، وكان ذلك من شواغل الدولة.

وفي سنة ١١٨٢ عصى الجبل الأسود بدسائس الروسيا بواسطة أحد قسيسيها، وهجموا على بوسنة، فذبحوا العساكر المستحفظين هناك. فاضطرت الدولة العلية إلى تقسيم عساكرها في جهات متعدّدة منها خوتين، برفقة الصدر الأعظم حمزة باشا إمام عساكر الروسيا المحتلة بلونيا.

ومما ذكر يرى أن الروسيا في هذه المدّة المديدة كانت تحارب الدولة العلية بتقويم البلاد عليها بغير إعلان حرب من الطرفين، ومساعدتها لهم. ثم اشتبكت الحرب بغتة بين عساكر الروسيا وبين عساكر قديم المستحفظين في بالطة، فحرر الصدر الأعظم عقد إتفاق مع الروسيا بتصديق الدول المتفقة، مضمونه: أن الروسيا تتعهد بسحب عساكرها من بلاد بلونيا، وعدم تداخلها في شؤونها، وإبقائها دولة مستقلة كما كانت. فامتنعت الروسيا من التوقيع على عقد الإتفاق، حالة كونها كانت تظهر أنها لا تتداخل في أمر بلونيا. فغضب الصدر الأعظم، وسجن سفير الروسيا في يدي قله، وأعلن الحرب من قبل التجهيزات الحربية الكافية. وقيل أن ذلك كان في سنة ١١٨٣.

ثم اشتبكت الحرب بجوار قلعة خوتين، فقتل كثير من عساكر الأعداء. ثم طاف نهر طورلة فتشتتت عساكر الدولة، واستولت الأعداء على القلعة. وكذلك بخيانة الأفلاقيين والبغدانين إستولت الأعداء على بلادهم.

هذا ما كان من هذه الفرقة. وأما الفرقتان الموجودتان في حدود كرجستان وبلاد القبارطاي فإنهما عجزتا عن إستدامة المقاومة، فاستولت الأعداء على تلك الجهات، لأن الدولة العلية كانت مضطرة لتفريق جيشها في سائر الحدود، ومحاربة العصاة في جهات متعدّدة كما تقدّم.

وفي سنة ١١٨٤ تعرض الأميرال الكونت أورلوف مع عصاة مورا إلى قلعتها. فانتصرت عساكر الدولة عليهم، وقتلوا الكثيرين منهم. لكن جاءت سفن الروسيا من بحر بالطق، ومرت على جبل طارق، فأحرقت سفن الدولة بجوار جشمة. فأظهر المسيحيون في أزمير السرور من حرق سفن الدولة، فاغتاظ بعض المسلمين وقتلوا بعضاً منهم في سواحل أزمير.

أما من جهة الشمال فقد وقعت حرب هائلة ، ولسوء نظام العسكر تشتتت ، واستولت الأعداء على قلاع إسماعيل وكلي وبندرواق كيرمان و إبرائيل .

وفي سنة ١١٨٥ وصلت دونانمة الروسيا إلى جزائر لمني وبوزجة، فاهتمت الدولة بتقوية إستحكامات بوغاز البحر الأ بيض (الدردنيل) . ثم إن حسن باشا الغازي القبودان أظهر همة عالية في طرد سفن الروسيا من البحر الأ بيض . وأعقب ذلك أن الروسيا طلبت الصلح وترك الحرب على شرط أن يكون بينهما بدون مدخل الدول المتفقة ، فأخذت الدولة هذا الطلب فرصة لتفريق أوستريا وألمانيا عنها لتجمع عساكرها جميعاً في وجهها ، فنجحت مبدئياً ، ووعدت بلزومها الحياد . فلما أرادت الدولة إتمام هذا المشروع أسرعت كترينا بعرض تقسيم بلونيا بينها وبين أوستريا وألمانيا وبروسيا فقبلوا .

وفي أثناء ذلك عصى بعض اليكيجريين ، فاستولت الروسيا على بلاد قريم ، ونصبت عليها خاناً جديداً من قبلها . فهاجر الكثيرون منها إلى الأناضول .

ولما تم تقسيم بلونيا في سنة ١١٨٦ بين الثلاث دول ، أرادت الدولة جمع بعض عساكر إمداداً لإجبار الروسيا على صلح شريف . فما كان من اليكيجريين إلا أنهم عصوا عن الحرب ، ولم تنفعهم نصائح الوزراء ولا الأمراء .

وفي سنة ١١٨٧ إنتصرت فرقة عثمانية بجوار روسجق . فلما انتشر خبر عصيان العساكر اضطربت أحوال الدولة . فعزم السلطان على النفير العام ، وأراد الذهاب بنفسه إلى الجيش الموجود في نهر الطونة ، وإذا بالأجل المحتوم أتاه ، رحمه الله تعالى رحمة واسعة .

ومن مآثره بناء الجامعين : لالي وجامع أيازمة . ولم يكن له من الأولاد سوى السلطان سليم الثالث .

* * *

(أسماء معاصري السلطان مصطفى الثالث من الأمراء والملوك وجهاتهم)

روسيا	:	بترو، ثم بعد خلعه وقتله زوجته كترينا من فاميلية هولتين فوتورب .
أوستريا	:	فرانسو الأول ، ثم جوزيف الثاني .
ألمانيا وبروسيا	:	فردريك الأول من فاميلية هوهنجولار .
فرنسا	:	لوي الخامس عشر.
إنكلترا	:	جورج الثاني ، ثم جورج الثالث .
أسبانيا	:	شارل الثالث.
برتغال	:	جوزيف الأول .
أسوج	:	كوستاو الثالث .
بلونيا	:	بوميا أونونياتوسكي . (وفي مدّته تقسمت بلونيا كما تقدم) .
نابولي وسجليا	:	فردينان‌دو الرابع .

* * *

[٢٧] السلطان عبد الحميد خان الأول

ولد المشار إليه سنة ١١٣٨ ، وجلس سنة ١١٨٧ ، ومدّة سلطنته ١٦ سنة .

ولم يصرف العطايا المعتادة لعدم وجود نقدية بالخزينة . فاجتهد هو ووزراؤه في الحصول على الصلح ، لكن لما رأت كترينا من اليكيجريين الشقاق والإمتناع عن الحرب ، مع مصادفة وفاة السلطان مصطفى ، توهمت أنها تستولي على الأستانة ، فامتنعت عن الصلح ، واهتمت بتقوية جيشها .

وفي سنة ١١٨٨ إجتهد الوزراء والضباط في تحريض العسكر على الحرب ولو دفعة واحدة ليتم الصلح ، لكون الأعداء يريدون أخذ الأستانة . وتكلموا بالمواعظ الحماسية والنصائح الدينية فوقعت الحرب بقرب نهر الطونة ، فاضطرت العساكر الروسية إلى الإنسحاب . ثم ظهر في الجيش من الشقاق والنفاق ما لا يوصف .

ثم إن كترينا تيقنت عدم إمكانها الإستيلاء على الأستانة من الواقعة الأخيرة ، فقبلت الدخول في الصلح .

والسبب الأعظم في قبولها الصلح مسألة أخرى ، وهي أن الدولة العلية كانت أرسلت في أوائل هذا العام دولة كراي خان الرابع خان قريم والحاج علي باشا جانيكلي إلى طمان لجلب قبائل النوغاي وأقوام الشراكسة لإستخلاص قريم من يد الروسيا ، فقاما بهذه المأمورية أحسن قيام ، وجمعا كثيراً من هؤلاء الأقوام ، وانضم إليهم أهالي قريم ، فانتقموا من الأعداء وانتصروا عليهم مراراً متوالية . وبالأسف لعدم معلومية الدولة جيداً بما حصل من إنتصاراتها المتوالية ، وعدم قيام اليكيجريين بواجباتهم الحربية ، أسرعت الدولة بالصلح المسمى بمعاهدة قينارجة ، باسم الجهة التي حصلت بها المعاهدة ، وكان مضراً بها جداً ، حيث كان من جملته إستقلال قريم . ومن المعلوم أن الإستقلال هو من موجبات الضياع وقد حصل كما سيأتي .

ومن المصائب الكبرى أن أمراء بلاد المسلمين الممتازة والمستقلة لا يتعظون بما يشاهدونه من

الوقائع الماضية الموجبة لضياع بلادهم، حيث أن واقعة قريم كانت كافية لأن تكون موعظة للجزائر وتونس وأمثالها. وإنما يتذكر أولو الألباب. وكان من ضمن الصلح ترك قلاع أذان وتيفان وقليرون ويكي قلعة وكرش والجهات الكائنة في نهري تن وداوزي. ثم بعد إتمام هذا الصلح عاد محمد باشا بن محسن الصدر الأعظم بالجيش. ولما وصل إلى قرين أياد مات رحمة الله تعالى عليه. وأحضرت جنازته للأستانة، ودفن بالقرب من أبي أيوب الأنصاري رضي الله تعالى عنه. وعين بدله للصدارة العظمى محمد باشا عزت.

وفي سابع ذي الحجة مات شيخ الإسلام مصطفى أفندي إبن الدري. وكذا مات شيخ الإسلام الأسبق محمد سعيد أفندي.

ومن مضرات هذا الصلح خلاف ما ذكر أن كرجستان تركت للروسيا ومرور سفنها التجارية بالحرية التامة بالبحر الأسود، وإعطاء بعض إمتيازات لبلاد أفلاق وبغدان تحت حماية الروسيا.

وفي سنة ١١٨٩ إهتمت الدولة بالإصلاحات الداخلية، وقطع دابر الفساد الذي كان عم البلاد. فأرسلت براً وبحراً العساكر إلى عكة، ومنها إلى الشام ومصر لإصلاحهما، وتأديب الأمراء المصريين.

وفي هذا العام جاء بعض أمراء قريم إلى الأستانة، فضيفتهم الدولة في سراية طولمة بغجة. وقد عزل الصدر الأعظم بسبب ما حصل بينه وبين شيخ الإسلام من الضغائن، ومن أفعال إسماعيل جلبي صهر الصدر الأعظم. وعين بدله محمد أغا درويش كتخداي الصدر العالي، وأنعم عليه برتبة الوزارة. وبعد اثنين وعشرين يوماً عزل شيخ الإسلام، وعين بدله محمد أفندي أمين بن صالح.

وفي هذا العام ظلم وغدر حاكم بايندر الذي هو عوض محمد آغا، وعجز الولاة عن تأديبه. فعينت الدولة القبودان حسن باشا الغازي، فظفر به وبأعوانه في قرب أكرى درة فأعدم.

وفي سنة ١١٩٠ إستفحل أمر عبد الكريم خان وكيل ممالك الإيران في جهة شيراز بعد زوال سلطنة طهماسب ونادر قولي خان كما تقدم، فطالت يده على جهة بغداد وبصرة. فأرسلت الدولة إليه أربعين ألفاً ليتحدوا مع بيكوات العشائر مثل عشيرة قرة كجيلو وميروس مما هو أكثر من خمسة عشر بيكاً وعشيرة. ثم عزل الصدر الأعظم، وعين بدله محمد باشا درندلي.

وفي سنة ١١٩١ ظهر أن حركة إيران من دسائس الروسيا، حيث أنه لما اشتبكت الحرب بين الدولة وبين إيران طلبت الروسيا طلبات نقضاً للعهد.

وفي سنة ١١٩٢ توالت إنكسارات الإيرانيين واشتدت طلبات الروسيا. فأرسلت الدولة مذكرات لسفراء الدول بتبيان حقوقها وفساد طلبات كترينا. ثم أرسلت من باب الإحتياط خمس سفن حربية إلى قريم. وعزل الصدر الأعظم، وعين بدله محمد آغا، آغا اليكيجريين، وأنعم عليه برتبة الوزارة.

ثم إن الروسيا دست الدسائس في مورة، فثارت الأروام فأرسلت الدولة في سنة ١١٩٣ القبودان حسن باشا الغازي فشتت شمل العصاة.

ثم إن الروسيا قدمت طلبات بخصوص القريم والأفلاق وبغدان لا يمكن قبولها. فعزل الصدر الأعظم، وعين بدله السيد محمد باشا السلحدار.

وفي سنة ١١٩٤ أباد سليمان باشا والي بغداد وبصرة أكثر من خمس وعشرين ألفاً من عربان وطوائف الأشقياء المتقدم ذكرهم، وأرسل رؤوس أكثر رؤوسائهم إلى الأستانة.

وفي أثناء ذلك طلبت الروسيا قنصلين لها في أفلاق وبغدان، فلم تقبل الدولة. بل قبلت قنصلاً في سلسترة فقط.

وفي سنة ١١٩٥ مات السيد محمد باشا الصدر الأعظم، وعين بدله محمد باشا عزت الصدر الأعظم الأسبق. وأعقب ذلك إستفحال شرور الروسيا في ظلم بعض طوائف المسلمين الذين صاروا تحت يدها من جهة، والإفساد بين أمراء قريم من جهة أخرى، حتى عزلت دولة كراي خان قريم نقضاً للمعاهدة، وعينت بدله شاهين كراي، فلم يقبل الأهالي ذلك. فبناء على هذه الوسيلة الفاسدة ساقت عساكرها في الحال إلى قريم.

وفي سنة ١١٩٦ إحتلتها. أما شاهين كراي صنيع الروسيا فإنه هرب إلى جهة طمان، فاتخذت الروسيا هروبه إهانة لها، فقتلت الكثيرين من عائلة الخان وألوفاً من أعيان المسلمين فيها.

أما شاهين كراي فإنه ندم على إنقياده للروسيا أولاً، فالتجأ إلى جزيرة رودس، فقطع الأهالي رأسه.

وفي سنة ١١٩٧ إتحدت كترينا مع أمبراطور ألمانيا يوسف الثاني (الإتفاق (٤٦))، وطلبا من الدولة تغيير الحدود.

وفي سنة ١١٩٨ ردت الدولة هذه الطلبات واهتمت بالتجهيزات الحربية.

وفي سنة ١١٩٩ إشتدّ الخلاف، وأعلن المتفقان بنقض العهد، وإعلان الحرب. وانضم إليهما أوستريا، فاهتم رجال الدولة بإيجاد طرق للإتفاق مع إحدى الدول، فلم يجدوا غير أسوج، نظراً لما سبق من إستيلاء الروسيا على أغلب بلادها كما تقدّم.

وفي سنة ١٢٠٠ ذهب القبودان حسن باشا الغازي إلى بحر أوزي وسدّ بوغازه. ثم هجم على قلعة قلبرون فدمرها.

أما الجيش الروسي فإنه عبر نهر الطونة، وكذلك جيش أوستريا هجم في الحدود الغربية الشمالية. فاضطرت الدولة إلى تقسيم جيشها قسمين.

أما القسم الذي أمام جيش أوستريا، فإنه انتصر إنتصاراً باهراً، وإذا بإمداد من جيش روسي أتاه، واستولى على قلعة خوتين.

وفي سنة ١٢٠١ حاصر جيش المتفقين قلعة أوزي، فلعدم متانة إستحكاماتها إستولوا عليها، وقتلوا خمساً وعشرين ألفاً ذبحاً. وكان جيش الأعداء ثمانين ألفاً. وفي سنة ١٢٠٢ إجتهد يوسف باشا الصدر الأعظم في تعليم الأوجاقيين ورجالهم الفنون الحربية، ولكنهم عصوا.

وفي سنة ١٢٠٣ إغتم السلطان عبد الحميد الأول من هذه الحالة فمرض، وبعد قليل مات بالغاً من العمر ٦٦ سنة، رحمه الله رحمة واسعة بمنه وكرمه.

وله من الأولاد مصطفى الرابع ومحمود الثاني.

* * *

(أسماء معاصري السلطان عبد الحميد الأول من الأمراء والملوك وجهاتهم)

فرنسا	:	لوي السادس عشر من فاميلية بوربون .
الروسيا	:	كترينا الثانية .
انجلترا	:	جورج الثالث من فاميلية هانور.
أسبانيا	:	شارل الرابع من فاميلية بوربون .
البرتغال	:	بدرو الثاني من فاميلية براقاتس ، ثم مارية .
أسوج	:	كوستاو الثالث .
بروسيا	:	فره دريك .
دانيمرك ونوروج	:	قرستيان الرابع من فاميلية أوندن بورغ .
أوستريا	:	جوزيف الثاني .
نابولي وسجلية	:	فردناندو الرابع من فاميلية بوربون .
فلمنك	:	كيلوم الخامس .
ساردنيا	:	أمه ده الثاني .
الصين	:	هيوان جونغ .
الهند	:	دارشكوه الثاني .

* * *

[٢٨] السلطان سليم خان الثالث

(ابن السلطان مصطفى الثالث)

ولد المشار إليه سنة ١١٧٥، وجلس في ثاني عشر رجب سنة ١٢٠٣، الموافق سنة ١٧٨٨ ميلادية، بالغاً من العمر ثمانياً وعشرين سنة. ومدّة سلطنته تسع عشرة سنة وكسور.

وكان غيوراً على المملكة، فطيناً نبيهاً متيقظاً. فاستبشر الناس بتوليته.

وقد تقدّم أن الحرب لم تزل على قدم وساق، وأن اليكيجريين عصوا يوسف باشا الصدر الأعظم. فاجتهد السلطان في التجهيزات الحربية، وعزم على الذهاب بنفسه إلى الحرب لإعادة سطوة الدولة كما كانت. فلم ترض الوزراء ولا الوكلاء بذهابه، ونصحوه بأن الجيش غير مأمون الثبات. ثم تسببوا في عزل القبودان حسن باشا الغازي الذي كان من أعظم رجال زمنه. وعين بدله حسين باشا الكريدلي. فقام بالدونانمة في شهر القعدة من هذه السنة في البحر الأسود بخمس عشرة سفينة حربية صغار الحجم. وبوصوله إلى قرب قلعة (أوزي) كمن بالمراكب، وأرسل المركب المسمى قانجة باش إلى قريب القلعة خدعة لإخراج مراكب الروسيا من المينا، فانخدعوا وأسرعوا بمطاردة هذه السفينة بفرقتين، وبجملة سفن حربية صغار الحجم، وكثير من العساكر البحرية. فلما قربوا من الكمين إشتبكت الحرب، فلم ينج من سفن الأعداء إلا القليل. ولاشتداد البرد عاد إلى الأستانة.

أما من جهة البر فإن يوسف باشا الصدر الأعظم أرسل أربعة آلاف عسكري أمام جهة قلاصة من ملحقات بغدان. فاشتدت الحرب، وكانت تلفيات العدو كثيرة لكثرته، وكانت النتيجة إحراق بلدة قلاصة وما حولها بمعرفة الروسيين وإنسحابهم، وما بقي من الأربعة آلاف عاد إلى الصدر الأعظم. هذا ومن جهة أخرى فإن أربعة آلاف بيادة وخمسة آلاف سواري إنتصروا في أجوت على عساكر أوستريا.

وفي شهر شوّال من السنة الحالية عرضت دولة أسوج على الدولة الإتفاق بشرط أن الدولة العلية تدفع لها عشرين ألف كيس فوقعتا على المعاهدة بذلك.

وفي أثناء ذلك عزل يوسف باشا الصدر الأعظم، وعين بدله حسن باشا سر عسكر ودين. ثم حصلت موقعة حربية بين عشرين ألفاً عثمانيين بقيادة عثمان باشا الكردوبين فرقة من عساكر الروسيا وأوستريا، وكانت النتيجة إنتصار الأعداء بضياع مهمات حربية. وكان ذلك من سوء تدبير الباشا المذكور.

وفي سنة ١٢٠٤ أرسل حسن باشا السردار ستين ألفاً بقيادة مصطفى باشا كمانكش إلى محل يسمى بوزاوة للإنتقام من الأعداء، وأخذ ثأر عثمان باشا المتقدّم ذكره، وهو على أثرهم، فوقعت الحرب بشدّة. ومن سوء التدبيرات الحربية وعدم الإحتياطات تغلبت عساكر الدولتين.

وفي الثالث من المحرم سنة ١٢٠٤ إشتبكت الحرب بين حسن باشا الغازي القبودان السابق سر عسكر جهات إسماعيل وبين الجنرال بوتمكين الروسي الشهير بعساكره الكلية فانتصر حسن باشا الغازي إنتصاراً فائقاً على إنتصاراتها السابقين، لكن بالأسف أن الروسيا إنتصرت بالإستيلاء على آق كرمان في جهات أخرى. واستولت أوستريا على بلغراد هذا وهذا في نقطة الصدر الأعظم. فبناء عليه عزل، وعين بدله حسن باشا الغازي القبودان المشار إليه، ولكن للأسف لم يمض قليل من وزارته حتى توفي في ١٤ رجب سنة ١٢٠٥ بداء الحمى، وعين بدله حسن باشا روسجقلي.

أما دولة أسوج فإنها نقضت العهد، واصطلحت مع الروسيا.

وأما من جهة البحر فإن السيد علي باشا القبودان الجزائرلي إنتصر مراراً في البحر الأبيض على الأعداء.

وفي ٢١ من شهر صفر إستولت الروسيا على قلعة كلي.

وفي سنة ٢٣ منه إستولت على سنّه.

وفي ٩ ربيع الأول إستولت على طوجلي.

وفي ٢٨ منه على إيساقجي.

وفي ١٦ ربيع الآخر الموافق ١١ كانون الأول حصلت واقعة مهيلة. ويقال: أن الدم سال على الأرض كالسيل. وأخيراً من كثرة عسكر الأعداء إستولت الروسيا على قلعة إسماعيل. فبناء عليه

في ليلة التاسع من جمادى الآخرة أعدم حسن باشا الروسجقلي الصدر الأعظم. وبعد بضع عشرة يوماً عين يوسف باشا الصدر الأعظم الأسبق. وقيل: أن قتل الصدر الأعظم في غير محله، حيث كانت عساكر الأعداء كثيرة جداً. وقيل: أنه أخطأ في المناورات والتدبيرات الحربية.

وفي سنة ١٢٠٦ حصل إختلال عظيم في داخلية فرنسا، وتغيرت سياسة بعض الدول منها أوستريا، فإنها رغبت كف الحرب عن الدولة العلية. فاتحدت إنجلترا وبروسيا معها، وتداخلوا فيما بين الدولة العلية والروسيا في الصلح. ومضمونه: ترك بلاد قريم وقوبان وبسارابية للروسيا وإعادة الباقي للدولة.

وفي سنة ١٢٠٧ نتج من إختلال فرنسا قتل ملكها وزوجته ومحو الملوكية وتحويلها إلى الجمهورية ورئيسها الجنرال نابوليون بونابرت الشهير. وكان أول سياسته إظهار المودة والتقرب للدولة العلية، وتعظيم شأن السلطان سليم، فأرسل له سفيراً ومعه مهندسون وضباط وطوبجية ومعلمون ومصابب ومسابك للترسخانة بأدوات وآلات كثيرة وبعض مدافع. أما السلطان سليم فإنه عزم على عمل عظيم وخطر جسيم، وهو ترتيب جيش الدولة على نظام جديد، وذلك من المحاضر المعمولة من السرداريين والصدور العظام ورؤساء الجيش. ومقدار تلك المحاضر لا يحصى، وكلها متحدة المعنى، وهو عدم إمكان مقاومة الأعداء بهذا الجيش الفاسد النظام. وكان السلاطين السالفون يخشون الدخول في ذكر هذه المسألة الخطيرة خوفاً من اليكيجريين، حتى قال يوماً الصدر الأعظم للسلطان مصطفى الثالث: أفندم، إن هذا الجيش لا ينفع في هذا العصر، وضروري من إيجاد النظام الجديد. فاندهش السلطان ونظر يميناً وشمالاً هل موجود في محضره من يفشي هذا القول لليكيجريين. ثم قال: إن جيشنا عظيم. يريد بذلك إخفاء هذا الخبر. وغمز إلى الصدر الأعظم بالسكوت. وبعد هذا المجلس طلب الصدر الأعظم بمفرده، وقال له: إنك قلت قولاً عظيماً يخشى منه الخطر، وأما أنا ففي حيرة من قبل توليتي السلطنة بسنين عديدة في مسألة إختلال الجيش، ولكن خوفاً من الخطرات العظيمة أخفي هذا الداء في جوفي كالقروح. ثم سأل يوماً أحد رجال الدولة يكيجرياً: ماذا تقول في النظام الجديد على قبول الإستفهام باللطافة. فكان جوابه: أننا ما كفرنا ولن نكفر. يريد بذلك التفهيم أن اتخاذ النظام الجديد ضرب من الكفر. وحيث أن كتابنا هذا مبني على الإيجاز فتكفي هذه العبارة لتصوّر الإنسان درجة كراهة اليكيجريين للنظام الجديد، وخطارة مركز الدولة في هذه السنين العديدة. فاقتحم السلطان سليم معمعة هذا الخطر، وشكل ألايا بيادة على أسلوب النظام الجديد في لوند جفتلك برئاسة عبد الرحمن باشا. إنما كان ذلك

مكتوماً على الخاص والعام. ولزيادة التكتم كانت المصروفات المخصصة لذلك البعض من طرف السلطان، والبعض من موارد سرية.

وفي سنة ١٢٠٨ حصل بونابرت مناقشات ومنازعات مع أغلب حكومات أوروبا.

وفي سنة ١٢٠٩ إشتدّ الخلاف والعداء بين فرنسا وإنجلترا، حتى أراد رئيس الجمهورية بونابرت قطع طريق إنجلترا على الهند.

وفي سنة ١٢١٠ إهتم السلطان سليم بالإصلاحات الداخلية وتقوية الحربية براً وبحراً، وأنشأ دونانمة عظيمة منتظمة.

وفي سنة ١٢١١ أمر السلطان بتعليم اليكيجريين الفنون الحربية في القشلاقات على أسلوب النظام الجديد، لكن على غير إسمه خوفاً من الفتن والخطرات كما تقدّم.

وفي سنة ١٢١٢ حصل بين البكوات بمصر المعروفين بالمماليك الشقاق، وكذلك عصى علي باشا دبه دلنلي في ألبانيا وحرك أهالي مورة بالعصيان.

وفي سنة ١٢١٣ ذهب بونابارت إلى مصر بعساكر كلية، وكتب جواباً لأهالي مصر والعلماء. مضمونه: أنه آت لتأديب المماليك، وأنه مؤمن بالله ورسوله وصديق للسلطان سليم إلى آخره. فوقع بينه وبين المماليك محاربات ومناوشات عديدة. ولتفرق كلمتهم وسوء نظامهم إنهزموا في أواخر كل الوقائع حتى احتلت عساكر فرنسا القاهرة. فلما بلغ ذلك السلطان سليم إندهش وغضب في آن واحد. أما اندهاشه فمن تكرار إظهار بونابارت الإخلاص والمودة له وبتسيره بجواباته عقب كل إنتصار قبل أن يصل إليه الخبر بالوقائع الفرنساوية وتعظيم السلطان بجوابات معنونة بوكيل محمد رسول الله ﷺ بهذه الألفاظ تماماً. وأما غضبه فلدخول العساكر الأجنبية في بلاده. ثم أرسل يوسف باشا الصدر الأعظم إلى الشام، ومنها إلى مصر بعساكر براً. وبعد وقائع حربية إنتصر يوسف باشا على الفرنساويين حتى طلبوا الصلح. فاصطلحوا على شرط أن يعطى ميعاداً إحدى وأربعين يوماً لجمع عساكره والجلاء عن مصر بشرط أنه لا يحصل إهانة ولا إستهزاء من أهالي مصر لهم. فبناء على هذا الإتفاق أعاد يوسف باشا أغلب العساكر إلى الشام، وبقي هو بشرذمة قليلة. فلما اجتمعت عساكرهم واستعدوا للقتال، أرسل قائدهم بلاغاً للصدر الأعظم يقول فيه: إنكم خالفتم شروط

الصلح حيث أن أهالي مصر أهانوا عساكرنا مراراً عديدة، كما قدّمنا لكم الشكوى في أوقاتها، فلذا لا نخرج من مصر لتأديب من استهزؤا بنا. وبالفعل هجم على مصر فدافع الصدر الأعظم بشرذمته القليلة بإعانة من بعض الأهالي، فلم يقدر على مقاومة الجيش لكثرته عدداً وعدداً، فعاد إلى الشام، ودخل الفرنساويون مصر.

وفي سنة ١٢١٤ خان حكام أفلاق وبغدان الدولة العلية، واتحدوا مع الروسيا (الإتفاق (٤٧))، فعزلتهم الدولة. فأخذت الروسيا هذه المسألة وسيلة وفرصة لإحتلالها المملكتين المذكورتين. فغضب السلطان وأمر بمحاربة الروسيين هناك، وترك الفرنساويين بمصر موقتاً.

وفي سنة ١٢١٥ حصلت مناوشات ومحاربات كانت في الغالب سجالاً.

وفي سنة ١٢١٦ تداخلت إنجلترا بين الروسيا وبين الدولة، فأقنعتها الروسيا بترك الدولة العلية موقتاً وإتحادهما معها لمحو فرنسا. فقبلت وسحبت عساكرها واتفق الثلاث. ثم أرسل السلطان-يوسف باشا الصدر الأعظم إلى مصر بجيش من طريق الشام. وكذلك أرسلت إنجلترا فرقة من جيش ببعض مراكب حربية إلى مصر للإتحاد مع الصدر الأعظم بناء على الإتفاق المذكور. فانتصر الصدر الأعظم براً، وإنجلترا بحراً على الفرنساويين، وأجلوهم عن مصر. ولمعلومية هذه الوقائع لإخواننا المصريين من التواريخ العربية. وفي مقدمتها تاريخ الجبرتي إكتفينا بما ذكر. وبعد ذلك أسرع بونابارت بمصالحة السلطان سليم فقبل منه السلطان.

لكن لما كانت أغراض إنكلترا موجهة إلى محو فرنسا كما تقدّم غضبت هي والروسيا على السلطان سليم واتحدتا عليه (الإتفاق (٤٨)). فهجمت الروسيا على بلاد الدولة براً وبحراً، وأما إنجلترا فإنها أدخلت مراكبها في بوغاز الأستانة، وطلبت من السلطان تسليم إستحكامات جناق قلعة أي بوغاز الدردنيل ودونانمة الدولة إليها، وتسليم بلاد أفلاق وبغدان للروسيا وطرد سفير فرنسا من الأستانة، وأن يتفق معهما على محاربة فرنسا وإلا تضرب الأستانة بمدافع السفن. فحصل إضطراب في السراية السلطانية لطائفة النساء والخدم.

وأما السلطان سليم فإنه كان ثابت الجأش، فلما وصلت هذه المذكرة للباب العالي ذهب رئيس الكتاب الذي هو بمثابة ناظر الخارجية في عصرنا هذا إلى سبستبان سفير فرنسا بالأستانة، وأخبره بذلك، وقال له: إن هذه العداوة من هاتين الدولتين ما هي إلا بسببكم، فقال له السفير: إن خوفكم من هذه المراكب لا يليق بالدولة وعظمتها القديمة لأن هذه السفن لا تضرب الأستانة، ولو

سلمنا جدلاً أنها تضربها فتأثير ضرباتها كتأثير بعض الحرائق التي تحصل بالأستانة في كل سنة، ومع ذلك يلزم تركيب المدافع على طوابي البوغاز، وها أنا أرسل المهندسين من طرفي.

أما السلطان سليم فإنه عقد مجلساً وطلب من أعضائه إبداء آرائهم. وبعد قال وقيل وتشعب الآراء حيث أن بعضهم قال: إننا نقبل الطلبات بعد تحويرها بما يمكن. وبعضهم قال: بالثبات. رجح السلطان القول الأخير. وقال: إن الثبات يلزم والعمل ألزم. فأمر في الحال بتركيب المدافع بالطوابي ليلاً، وعدم إظهار شيء من ذلك نهاراً. فاجتهدوا في ذلك، وذهب سفير فرنسا بنفسه بمن معه لمباشرة هذه الأعمال. وبعد ثلاثة أيام طلب الأميرال الإنجليزي بإلحاح وشدة المجاوبة عن طلباته. فاتخذ السلطان سليم التسويف مسلكاً حتى تم تنظيم الإستحكامات. ثم أرسل للأميرال الإنجليزي خبراً بصفة مجاوبة عن طلباته، مضمونه: إن الدولتين كانتا في سلام ومراكبكم كانت على باب بوغاز الأستانة، فدخولك في البوغاز بغتة وتهديد الأستانة بالضرب، وطلب تسليم إستحكاماتنا ودونانمتنا لكم مغاير للإنسانية، فلذا لا أجاوب ما لم تخرج بسفنك من البوغاز. فلما رأى الأميرال تغيير الأحوال وكثرة المدافع في برّي البوغاز إنسحب بسفنه من أمام الأستانة. ولما وصل بها إلى جناق قلعة ضربت مدافع الإستحكامات سفنه فأغرقت منها سفينتين بستمائة وأربعين نفساً.

وفي سنة ١٢١٧ أو سنة ١٢١٨ إتحدت دونانمة إنجلترة والزوسيا (الإتفاق (٤٩)) فأحرقتا سفن الدولة التي كانت راسية في أوارون.

وفي سنة ١٢١٩ أرسلت الدولة دونانمتها إلى بوغاز الدردنيل. واشتبكت الحرب مع الدونانمة الروسية التي أتت لسد البوغاز. وبعد قتال إنسحبت سفن الروسيا. أما سفن إنكلترة فإنها ذهبت إلى سواحل الشام وإسكندرية واستولت على الأخيرة.

وفي سنة ١٢٢٠ وقعت حرب بينها وبين العساكر المصريين في رشيد. وقيل: كان ذلك سنة ١٢٢١، فانتصر المصريون عليها وذهب محمد علي باشا واليها إلى هناك. ثم انسحب الإنكليز منها ومن إسكندرية. ولمعلومية هذه الوقائع من التواريخ العربية إقتصرنا عن التطويل في ذكر تفاصيلها.

(تنبيه): وقائع البضع سنوات الماضية ذكرت في بعض التواريخ على وجه مخالف في التقديم والتأخير، والمقصود بالذات هو معلومية الوقائع ليس إلا.

وقد تقدم أن السلطان سليم شكل ألايا على النظام الجديد في لوند جفتكك. وفي وقت قريب بلغ ثمانية آلاف نفر. ثم شكل أيضاً ألايا في أسكدار، وكان ذلك مكتوماً عن اليكيجريين حسب الإمكان. فلما اشتدت الحرب بين الدولة والروسيا أمر السلطان سليم بإرسال عساكر النظام الجديد إلى مواقع الحرب، فذهب بهم عبد الرحمن باشا فانتصروا على ضعيفهم من فرق الروسيا مراراً. ولما بلغ ذلك السلطان سليم فرح جداً واهتم في زيادتهم، لكن للأسف لما أشيع هذا الخبر بين اليكيجريين إنبعثت فيهم روح الغيرة والحسد، وحصل بينهم قال وقيل.

وفي سنة ١٢٢٢ إشتدت القلاقل منهم. فأرسل السلطان للسردار جواباً مضمونه: إنه أشيع حصول الغيرة في اليكيجريين من النظام الجديد. فكيف يتصور ذلك حيث أنهم خواص رجال الدولة، والفضل لهم في رفعة شأنها. أما النظام الجديد فما هو إلا فريق من الأمة بتعليم مخصوص في فن الحرب لاستعانة الجيش به على مقاومة الأعداء الكثيرة الغالبين في أكثر الوقائع الحربية منذ أكثر من قرن، حتى سلخوا من أملاك الدولة بلاداً وقلاعاً غير قليلة، فلعدم حصول أدنى وساوس بين أخص أولادنا اليكيجريين يلزم تفهيمهم ذلك. فلم يثمر هذا لدى الأشقياء منهم بشيء، بل زادوا طغياناً وتمردوا. ولقد كان أساس هذه الإرتباكات الدسائس الأجنبية.

وقد قلنا في أول هذا الكتاب أن أصل كل بلاء هو إشتغال الناس بلغو القول وفارغ الكلام بلا ترو ولا تعقل. أما من الدسائس الأجنبية فإن المسيو سبستبان سفير فرنسا قال في أثناء وجود سفن إنكلترا أمام الأستانة لحسين أغا البهلوان أغا اليكيجريين: إن حضور هذه السفن هو بناء على طلب من بعض رجال الدولة الميالين إلى الإنكليز. فلجهل الآغا المذكور إعتقد صحة ذلك، وصار يقول في المواقع العسكرية: إن الإنكليز والمسكوفنيا وأن سلطاننا الأعظم يتعب في غير جدوى، وإن هؤلاء الخائنين بعد أن يسلموا الأستانة للأعداء يكونون ملوكاً، يقرع بذلك أصحاب الكلمة المقربين للسلطان. وصار يكرر ذلك علناً. فلما بلغ ذلك رجال سفارة الإنكليز، قيل: أن بعضهم قال للآغا المشار إليه: إن حضورنا بالسفن للأستانة هو بدعوة من بعض رجال الدولة، وأن سفن الروسيا كادت أن تأتي من البحر الأسود إلى الأستانة، وبعد إجتماعها بسفننا يصير رفع اليكيجريين وإقامة العسكر النظام الجديد بدلهم، لكن من حسن حظهم لم يتم ذلك. فما كان من الآغا المذكور إلا أنه اشتعل بلهيب الغيظ في فؤاده حتى عم ذلك جميع اليكيجريين.

وأما السلطان سليم فإنه كان حليماً سليماً ذا مروءة شفوقاً ميالاً للصفح والعفو، وكان لا يكتم

شيئاً عن رجاله. فنتج من هذه الأقوال الفارغة خلعه ثم قتله وقتل الكثيرين من الأكابر على ما يأتي.

ومصيبة الدولة من لغو النظام الجديد، فلذا أكرر القول بأنه إذا فشى الكلام الفارغ في الأمم يكون سبباً لكثرة مصائبها، فمنعهم من ذلك يكون من حسن السياسة.

ثم إنه زاد غيظ اليكيجريين وصاروا يحقرون عساكر النظام الجديد ويرمونهم بالكفر ومن سوء طالع ذاك الوقت أن موسى باشا الكوسة قائم مقام الصدارة العظمى والشيخ عطا الله الأعرج شيخ الإسلام كانا يكرهان النظام الجديد، ويكتمان ذلك عن السلطان سليم ويخبران الأشقياء بأسراره، ويخبرانه بأخبارهم بخلاف الواقع حسبما يوافق سياستهما، خصوصاً موسى باشا الملازم للسلاطين بمقتضى منصبه. وكان هذا الباشا يقول لليكيجريين: هل يجوز إختلاطكم بمن دخلوا في زي الإفرنج وخرجوا عن دينهم، يعني بذلك عساكر النظام الجديد. فاشتعلت نار الحماقة والغيظ فيهم. فاجتمعوا في آت ميدان بزعامة من يقال له: (قباقجي). فاختبأ أهل الحشمة والأدب في بيوتهم وقفل التجار دكاكينهم، وأرسل الأشقياء المنادين بتعليمات الكبراء مثل موسى باشا. وقالوا في مناداتهم: لا يتأخر أحد عن أشغاله، ولا يحصل منا ضرر لأحد، إنما قيامنا هو لراحة عباد الله ونظام الدولة. فبناء عليه إطمأن الناس وفتحوا الدكاكين. ومن خوف الأشقياء من عساكر النظام الجديد حيث كان موجوداً منهم في جهات إسكدار نحو ثلاثة آلاف تجمعوا بكثرة.

وفي الواقع لو ساعدت المقادير السلطان، وأحضر عساكر النظام الجديد لحراسته لهابه الأشقياء وتفرقوا، ولكن ما قدر يكون.

ثم أنهم أرسلوا للسلطان يطلبون منه (إبراهيم أفندي نسيم الكتخداي، والحاج إبراهيم أفندي ناظر البحرية، ومميش أفندي كتخداي ركاب الهمايون، وأحمد أفندي صفي وكيل رئيس الكتاب أي ناظر الخارجية، وأحمد بك دفتر دار الإيراد الجديد[١]، وأبا بكر أفندي أمين الضربخانة، ويوسف آغا كتخداي والدة السلطان، وأحمد أفندي كاتب السر من رجال أندرون[٢] الهمايون، وأحمد بك مابينجي، وشاكر بك البوستانجي باشي، ولطف الله أفندي من المدرسين)، مع لغو النظام الجديد. فعرض موسى باشا هذا وهذا على السلطان. فلغى النظام الجديد على أمل إكتفاء الحال بذلك. ونادى المنادي في الأستانة بما ذكر.

(١) الإيراد الجديد هو الواردات المعدة لمصروفات النظام الجديد.

(٢) إسم لخدمة السرايا السلطانية ومعية السلطان.

فما كان من موسى باشا إلا أنه عرض على السلطان ثانياً أنه غير ممكن تفرق الأشقياء إلا بإعدام من ذكروهم. فحزن السلطان لذلك حزناً عظيماً حيث كان يحبهم مثل نفسه. ثم قال لموسى باشا: إن إبراهيم أفندي الكتخداي والحاج إبراهيم أفندي وأحمد أفندي كاتب السربيني وبينهم العهد، فاصرف نظراً عنهم، وخلص ما يمكنك خلاصه من الباقين، وأمر من بقي إلى الله تعالى. فما صدق موسى باشا بسماعه هذا القول إلا وحجز مميش أفندي وأحمد أفندي صفي وبكر أفندي وخنقهم في الباب العالي، وشاكر بك في سراي الهمايون. وأرسل رؤوسهم إلى الأشقياء، وكان غرضه الوحيد هو إعدام إبراهيم أفندي الكتخداي، فأرسل وراءه جواسيس، فعرفوه أنه يريد الإختفاء. فأخبر الأشقياء فلحقوه وقبضوا عليه، وبكل إحتقار وإهانة أحضروه إلى آت ميدان. فتبعه علي أغا أحد أتباعه، وقال لهم: أيها الإخوة والرفقاء لا تقتلوا سيدي واقتلوني بدله، وتحضن بسيده وقاية له. وكان العهد والميثاق بين الأشقياء أنهم لا يقتلون أحداً ولا يمسون بسوء غير هؤلاء الأحد عشر شخصاً. فاجتهدوا في تفرقه عن سيده، ولما لم يتفرّق قتلوهما بالخناجر والسيوف. فوقع من إبراهيم أفندي الكتخداي كيس مملوء بالجواهر النفيسة وبعض دنانير، فأخذوه وسلموه لموسى باشا من غير أن يأخذوا منه شيئاً لوضعه في بيت المال كالأصول المتبعة في ذاك الوقت. فلم يضعه في بيت المال، بل أخذه لنفسه. وبهذا تعلم درجة سفاهته وخيانته.

ثم إنه لما تحصل الأشقياء على أغراضهم من قتل من ذكر وإلغاء النظام الجديد. قالوا: إننا نريد المحافظة على السلطان مصطفى الرابع والسلطان محمود الثاني أولاد جنتمكان السلطان عبد الحميد الأول حيث لم يبق من سلالة آل عثمان غيرهما. وبعرضهم ذلك على السلطان سليم قال: لا بأس من حضور أحد الأوجاقيين مع أحد العلماء العظام إلى السراية ليحفظاهما. لكن إستنكف العلماء العظام ذلك عدا محمد أفندي حافظ الدرويش إمام السلطان، فإنه قبل، وحضر مع من يدعى عثمان آغا رئيس السكبانيين [١] الأسبق إلى السراية. وبعد ذلك أرسل السلطان سليم جواباً بخط يده للباب العالي معناه: (إني لم يكن لي ذرية. وأما مصطفى ومحمود أولاد عمي فإنهما أولادي. ولم يكن لهما أحد أولى بهما مني. فإذا أنا معاذ الله قصدت لهما سوءاً أكون سبباً لإنقراض ذرية آل بيتنا وإضمحلال الدولة. فهل يدخل هذا في مخيلة المجانين فضلاً عن العقلاء. فلا يرينا الله ذلك أبداً. وأطال الله عمرهما). فلما قرىء هذا في الباب العالي بكى العلماء الموجودون هناك.

ثم إنه في ثاني يوم الذي هو يوم الجمعة ٢١ ربيع الأول من سنة ١٢٢٢ وقت الصباح إجتمع

---

(١) نوع من العسكر.

أرباب الدولة مع شيخ الإسلام بوجود عارف آغا سكبان باشي للمشاورة. فقرروا أن المسألة إنتهت بإلغاء النظام الجديد، وقتل من قتل، فيلزم فض هذه الجمعية. وكل إنسان يلتفت لما هو مطلوب منه مع إعطاء الخلع والبخاشيش لذويهم. فقال شيخ الإسلام عطاء الله الأعرج: يلزم سؤالهم أي الأشقياء هل بقي لهم شيء من الطلبات. فذهب بعض الحاضرين للإستفهام منهم، فلما سمعوا هذا القول دخلوا في ميدان المشاورة والجدال. ثم قام فريق منهم منفعلاً وذهب إلى شيخ الإسلام المذكور، وقال له: إن السلطان سليم غير مستقل الرأي، وسلم زمام الدولة لأناس من الظلمة وهم يظلمون الأهالي. فوافقه على ذلك بعض الحاضرين، وطلبوا الفتوى من شيخ الإسلام بخلعه فأفتاهم به.

وأما باقي الحاضرين منهم مصطفى بك عزت وحفيد أفندي ومنيب أفندي ومراد زادة أفندي عارضوا في الخلع، وأوسعوا المباحث معهم، وطلبوا أشياء معينة يترتب عليها الخلع. وقالوا: إن السلطان أجابكم بكل طلباتكم، فاتركوا مسألة الخلع. فوافق على ذلك من العصاة مصطفى آغا قزغانجي، وأراد إقناع رفقائه. فما كان من بابوردلي من رفقاء القباقجي إلا أنه قال ما معناه: إنه دخلت النفسانية فيما بين السلطان وعبيده، وبعد الآن لا يقدر أن يكون علينا سلطاناً ولا نقدر على القيام بعبوديته، فالأوفق أن تعمل رابطة متينة لهذه المسألة. فبينما هم في هذه المحاورة، وإذ بالعساكر المجموعة في آت ميدان قد قرأوا الفاتحة على إجلاس السلطان مصطفى، فبوصول هذا الخبر لمجلس شيخ الإسلام قال: ماذا نعمل؟ فقال له العصاة: إن حضرتكم والعلماء تذهبون لإجلاسه. فقال لهم: أنا لا أذهب وحدي وأريد عسكراً. فقالوا له: يكفي خمسمائة نفر قال: لا يكفي. فقالوا له: نحن الآن ألفان، وحين وصولنا للسراية نكون عشرين ألفاً. فبناء عليه قام شيخ الإسلام بالألفين وأكد عليهم بأن لا يدخل فرد واحد من العسكر إلى السراية. فبناء عليه وضعوا رايتين بالقرب من باب السراية. فذهب هو ورفقاؤه إلى الباب العالي، وهناك قابلهم موسى باشا بكل بشاشة ولطافة وفرح فرحاً شديداً. فقال شيخ الإسلام لمنيب أفندي: إذهب مع سكبان باشي آغا. وبعد مقابلة أفندينا السلطان سليم أعرضا عليه أن جميع العبيد يريدون إستراحتكم وإجلاس أفندينا السلطان مصطفى. فقال منيب أفندي: عافوني تكرماً منكم من هذه المأمورية. فعرضوا ذلك على حفيد أفنذي قاضي عسكر الأناضول. فقال: على الرأس والعين. وقام ومعه الآغا المذكور وذهبا إلى السراية، فوجداها مغلوقة الأبواب. فعادا وأخبراهم بذلك فحرروا تذكرة وأرسلوها إلى السراية بعنوان آغا دار السعادة. ومضمونها: أنه لا يمكن تفريق هذا الجمع حتى يتم

إجلاس السلطان مصطفى للسلطنة. فأخذها الآغا وأعطاها للسلطان سليم. فلما قرأها قال: ذلك تقدير العزيز العليم. فقام وأحضر تاج السلطنة وسلمه للسلطان مصطفى.

وأما العسكر فإنهم كانوا مشتغلين بتجهيز الألغام لقلع الأبواب ظناً منهم عدم إجابة طلبهم، ولا تسل عما حصل من الغوغاء حتى أنهم وجدوا أحمد بك مختار المابينجي فقبضوا عليه وقتلوه. ثم ذهب شيخ الإسلام وموسى باشا والعلماء إلى السراية. وذهب الأولان إلى المحل المعد لإنتظارهما. وعرض الأول الكيفية على السلطان سليم، وقرأ نصف الآية ﴿**تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء**﴾[(١)]. فأظهر له السلطان سليم المحبة والإحترام. وفي الحقيقة ما كان يعلم لحد تلك الساعة عداوة الشيخ له ولا خيانته، ولا عداوة وخيانة موسى باشا. فالواجب على السلاطين معرفة أحوال رجالهم خصوصاً المقربين إليهم حق المعرفة بأي طريق كان. ثم إنهما بايعا السلطان مصطفى وتلاهما غيرهما كالمعتاد.

وبعد ذلك طلب الأوجاقيون ورجالهم العطايا والبخاشيش مع أن بعض السلاطين السالفين محوا هذه العادة الذميمة الموجبة أن يتمنى سفهاء اليكيجريين جلوس سلطان جديد كل يوم حيث إنهم عبيد الدنانير والدراهم. ففرق لهم السلطان مصطفى مائة وثمانين ألف قرش، ومن طرف أخته السلطانة (أسماء) عشرين ألف قرش.

ثم في الأيام التالية قتلوا الكثير من رجال الدولة من حزب السلطان سليم.

أما أمور الدولة فإنها اختلت بالكلية لأنها صارت في يد الأوجاقيين، فكان خلع السلطان سليم مصيبة على الدولة حتى نتج منه مصائب ومشاكل داخلية وخارجية.

فمن المصائب الداخلية خلاف ما ذكر عدم تنفيذ أوامر السلطان مصطفى مطلقاً.

وأما الخارجية فإن نابليون بونابارت أمبراطور فرنسا غضب على خلع السلطان سليم، وغير سياسته مع الدولة، واتفق مع إسكندر الأول أمبراطور الروسيا وعرض عليه تقسيم بلاد الدولة، وأخيراً لم يتفقا.

وأما الجيش المحارب فإنه لما بلغه واقعة الأستانة حصل فيه فتور كلي لأنه لما أراد السلطان مصطفى إبقاء إبراهيم باشا حلمي الصدر الأعظم والسردار كما كان لم يقبل، وعين مصطفى باشا

(١) سورة آل عمران، الآية ٢٦.

جلبي اليكيجري الأصل بدله، فصارت أحوال الجيش في فوضى، ولم يكن هناك ضابط قادراً على قيادته. فطلب رجال الدولة مصطفى باشا البير قدار للجيش فذهب في الحال من بلده روسجق بخمسة آلاف فارس إلى سلسترة، فسكنت الفوضى في الحال خوفاً منه لكونه كان مهاباً. وكان يظن أن الصدارة والسردارية تكون له. فلما بلغه مصطفى باشا جلبي سالف الذكر ووصل هناك فعلاً غضب في نفسه.

ولما ظهر من الصدر الأعظم العظمة والكبرياء إحتقره واستمال إليه الجيش، فأغلظ له السردار في المعاملة لأنه لم يعرف شيئاً من السياسة ولا المداهنة لكون أصله من اليكيجريين كما ذكر. فلم يقبل البيرقدار هذه الأحوال وعاد إلى روسجق. وبعد ذلك عاد الجيش إلى حالته الفوضوية.

ثم إن بعض من بقي من رجال حزب السلطان سليم دعوا مصطفى باشا البيرقدار سراً للأستانة لخلع السلطان مصطفى وإعادة السلطان سليم. فجاء ومعه بضعة آلاف من العسكر فدخلها ليلاً وأرسل نفراً لقتل القباقجي فقتلوه ورموا جثته في الشارع.

وفي يوم الخميس السابع والعشرين من جمادى الأول سنة ١٢٢٣ ذهب البيرقدار بمن معه من العسكر إلى الباب العالي، وقبل هذا التاريخ بمدة قليلة أراد موسى باشا الإعتزال من وظيفته ليذهب بغنائمه المنهوبة من مال الدولة وأموال المقتولين فقبل إستعفاؤه. وعين بدله طيار باشا الذي كان من ألد أعداء السلطان سليم.

ثم لما علم الأوجاقيون بوجود البيرقدار بالأستانة، وأن قتل القباقجي هو بأمره إختفى كل منهم من شدة الخوف. ثم طرد شيخ الإسلام من منصبه وأبعد كل من كان على شاكلته من أرباب الوظائف المفسدين كما سيأتي.

هذا ما كان من أمر البيرقدار.

وأما ما كان من أمر الجيش العمومي فإنه قرب إلى الأستانة بالراية الشريفة، فاستعد السلطان مصطفى لإستقبالها كالعادة. فتشاور حزب السلطان سليم في كيفية خلع السلطان مصطفى وإجلاس السلطان سليم ثانياً، فاتفقوا على رأي أحدهم رامز أفندي على أنه بخروج السلطان مصطفى لإستقبال الراية الشريفة، يصير توقيفه في قصر داود باشا. ثم يذهبون إلى السراية لإجلاس السلطان سليم بدون حصول تهلكة. فلما عرضوا ذلك على مصطفى باشا البيرقدار ولم يقبل، وقال ما معناه: لا يليق أعمال هذه السفالة لمن يكون له شرف وإنسانية. فقال قائل منهم لم أقف على

إسمه: إن توقيف السلطان لدى مقابلة الراية الشريفة لا يوافق. وحيث أن المتغلبين أزيلوا فيلزم إغفال المقربين للسلطان. ثم يعقد مجلس بحضور نفس السلطان للنظر في هذا الأمر. واتفقوا على ذلك.

ثم إنه لمخالطة السيد علي باشا القبودان للأوجاقيين المتغلبين طلب البيرقدار عزله، فلم يرض أغلبهم لصلاحه الظاهر حتى أن والدة السلطان مصطفى أرسلت للصدر الأعظم جواباً تقول فيه عنه: إنه مخلص لولدي وقادر على حفظه فلا تعزله. فأرسل الصدر الأعظم للبيرقدار بأن يبقي هذه المسألة وفيما بعد يجري ما هو الصالح للدولة بما يرضى البيرقدار، فغضب وأرسل له رسولاً يخبره بأن إتفاقهم مبني على إزالة جميع المتغلبين. فتحير الصدر الأعظم، وغضب غضباً شديداً، لأنه لم يعلم سر المسألة. فأخبر بأن المسألة هي خلع السلطان مصطفى، وإعادة السلطان سليم. ولكون ذلك غير موافق لمشربه أرسل الخبر للسلطان مصطفى فلم يهتم بذلك. ثم إنه أحضر إليه أحد قرناء السلطان، وقال له: إن الأمر سيمضي، ثم لا ينفع الندم، فليأذن لي السلطان بقتل رفيق أفندي ورفقائه (وهم الذين من حزب السلطان سليم والمدبرون كيفية إعادته للسلطنة)، ثم يصير سد أبواب الأستانة، ونتفق مع الأوجاقيين على طرد البيرقدار ومن معه. فقال نذير أغا وغيره من القرناء: إن البيرقدار خادم الدولة والسلطان فلا نتبع الأوهام. فكان لسان حال الصدر الأعظم حينئذ يقول: (لقد أسمعت لوناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي). ثم إن رفيق أفندي ورفقاءه علموا قول الصدر الأعظم وما انتهى عليه الحال فأخبروا به البيرقدار في الحال ونصحوه بأن التأخير في العمل وخيم العاقبة.

وفي يوم الخميس ٤ ربيع الآخر ذهب البيرقدار ومعه أزيد من خمسة عشر ألفاً من العساكر إلى الباب العالي، وطلب ختم الهمايون المعتاد إعطاؤه للصدور العظام من الصدر الأعظم الحالي بعنف وخشونة. فتحير في أمره، ثم أعطاه له. فسلمه البيرقدار لأحد الجالسين. ثم أرسل الصدر الأعظم مع بعض فرسان عسكره إلى الجيش خارج الأستانة. ثم طلب شيخ الإسلام والوزراء إلى الباب العالي فبحضورهم قال لشيخ الإسلام: لنا أمر يتعلق بالدين والدولة، ويقتضي الذهاب إلى دار السلطنة، هيا بنا. فاندهش الشيخ، وأبطأ في حركته، وقال له: هل أنت إبن عرب قم. فقام مندهشاً من هيبته.

فلما وصلوا إلى باب السراية الأوسط طلب مرجان آغا باش آغا السراية، وقال له: إن عموم رجال الدولة والعلماء وأعيان روملي والأناضول يريدون إعادة جلوس السلطان سليم، فلذا جئنا

هنا، فأخرجوا السلطان سليم لإجلاسه. ثم أرسل أيضاً شيخ الإسلام إلى السلطان مصطفى ليخبره بذلك. فلما أخبره غضب غضباً شديداً، وقال له: أنت متفق معهم حتى أتيت هنا أمامه لخلعي. والله لأقطعنك إرباً. فأراد الشيخ الإعتذار فلم يقبل، وقال له: إمش من أمامي واذهب واصرف الباشا وإلا أفعل فيك ما لا يفعل في أحد. فلما عاد وأراد التظلم مع الباشا لم يمهله أن قال له: يا رجل يا منافق، غيرت المسألة في داخل السراية فاذهب عاجلاً، وآنه هذه المسألة. فذهب ولم يتجاسر على مخابرة السلطان مصطفى. ثم عاد وقال له: إنه لم يقبل النصيحة وأن الباب صار سدّة. ففي الحال شرع الباشا البيرقدار في كسر الباب لدخول العسكر وإحضار السلطان سليم.

وأما السلطان مصطفى فإنه جمع عنده أتباعه وشاورهم في الأمر. فقالوا: إذا أعدم السلطان سليم ومحمود لم يبق أحد من السلالة. فطبعاً لم يكن إذ ذاك وجه لخلعك، فأعطنا رخصة بالدخول على سراية الحريم لهذا الغرض. فأذن لهم. فقام منهم عبد الفتاح وسليم آبا ونذير آغا ومحمد إبن الدالي أيوب وعلي البغدادلي ومصطفى من الجنباينية ومعهم أربعة عشر نفراً من البلطجية والجنباينية.

وأما مرجان آغا باش آغا السراية فإنه لم يحضر السلطان سليم كتنبيه البيرقدار عليه، كما وأنه لم يشارك من تعرض للجناية ظاهراً، أي فعلاً، ولكن كان على رغبته. حتى أن سكوته مع كونه رئيسهم ومسموع الكلمة وكلهم طوع أمره يعتبر شريكاً لهم.

ثم إنهم قتلوا السلطان سليم بالسيوف والخناجر والبلط، ولما إنتهوا من ذلك ذهبوا لقتل السلطان محمود. وإذا بجارية كرجية أحضرت طبقاً مملوءاً رماداً في يدها، وكلما يريد أحد منهم الدخول لقتل السلطان محمود تنثر في عينيه الرماد واحداً بعد واحد حتى لحق بها عنبر أغا وعيسى أغا فأخذاه في السطوح.

وفي أثناء ذلك رمى سليم آبا المنحوس بخنجر على بعد بقصد قتل السلطان محمود فأصابه في ذراعه فجرحه، ثم صدمه أحد الأبواب في حاجبه الأيمن فانجرح.

أما مصطفى باشا البيرقدار فإنه دخل ببعض عسكره بعد كسر الباب فتصادف دخوله وقتل السلطان سليم في لحظة واحدة. أما القاتلون فإنهم أبرزوا جثة الشهيد بقرب الباب توهماً منهم أن البيرقدار عندما يراها كذلك يقطع الأمل ويذهب من حيث أتى. فجاء توهمهم بالعكس. إذ أن البيرقدار لما رأى الجثة على هذه الحالة حزن فوق ما يتصور، وقال: واي أفندم أقطع هذه المراحل وأجيء للأستانة لأجلسك ثم أراك بهذه الحالة. فوالله لأقتلن رجال الأندرون الخائنين عموماً

انتقاماً. ثم حضن الجثة. فلحقه رامز أفندي أحد رفقاء رفيق أفندي الآنف الذكر، وقال له: أمان أفندم. الآن ليس وقت البكاء، والماضي مضى، والغرض خلاص الدولة من التهلكة، وحفظ السلطان محمود. فلما سمع الباشا ذلك ذهبت منه السكرة وجاءت له الفكرة. في الحال نهض مسرعاً ونادى بأعلى صوته: أن ابحثوا عن السلطان محمود. فجرت العساكر في كل جهة وصوب.

أما رجال الأندرون وبالأخص القاتلون فإنهم اختبأوا.

وأما الباشا البيرقدار فإنه من شدّة غضبه وشغفه على رؤية السلطان محمود كان يمر حول السراية، وإذا بالسلطان محمود أنزلوه من السطوح بغاية الصعوبة. فجاء وأمامه أحمد أفندي حافظ إمام أول السلطان ومن تحت إبطيه كل من محمد بك وطاهر أفندي. فقال الباشا بصوت مزعج: من هذا؟ فاندهش الجميع وسكت الغوغاء والأصوات دفعة واحدة. ثم أسرع أحمد أفندي الإمام المومى إليه، وقال له: أفندم هذا السلطان محمود، وقد بايعته على الخلافة، وإتمام المصلحة الخيرية موقوف على همتكم. فقال الباشا خطاباً للسلطان محمود: (آه أفندم. كنت أتيت لإجلاس إبن عمك فرأيته، ويا ليتي كنت فاقد البصر حتى لا أراه بهذه الحالة. والآن أتسلى نوعاً بمبايعتك وسأقتل الذين قتلوه وجعلوه بهذه الحالة، وهم طائفة الأندرون. فسأقتلهم جميعاً بالسيف). فقال له أحمد أفندي الإمام: أفندم ما ذنب طائفة الأندرون حيث القاتلون معلومون، فأفندينا السلطان يأمر بالبحث عنهم وإحضارهم ويجازيهم. فحينئذ قال السلطان محمود مخاطباً للباشا البيرقدار: (يا باشا، أنا أرسلهم لك وأنت إصرف عساكرك من السراية وانزع أسلحتك ونذهب إلى أودة الخرقة الشريفة). فزعق الباشا على عساكره بقوله: أخرجوا. فخرجوا جميعاً بغير أن يتلفظ منهم أحد. فتعجب الحاضرون من حسن طاعتهم بهذه الدرجة، فبقي عنده بضعة أنفار وتفرّق الباقون، وخلعوا أسلحتهم، ونزع هو أيضاً سلاحه عدا بالته المرصعة التي كانت بوسطه. فنظر إليها وقال للسلطان محمود: إن هذه تذكار إبن عمك فلا أقدر أن أنزعها. فرخص له السلطان في حملها. فذهبوا على هذه الحالة إلى مكان الخرقة الشريفة. فأمر السلطان الباشا بتناول الطاتلو والقهوة حسب الرسومات في أرسلان خان[1]، ودخل السلطان محمود بمفرده أودة الخرقة الشريفة.

وقد ذكر المرحوم جودت باشا في تاريخه: أن شجاعة ومهابة مصطفى باشا البيرقدار المشار إليه بلغتا حد الوصف. لكن السلطان محمود كان أهم منه في الشجاعة والهمة مع زيادة الذكاء والعلم

(١) محل خارج أودة الخرقة الشريفة كان معداً لعرض الأمور على السلاطين وصدور أوامرهم فيه. وكان يقال له وقتئذ عرضخانة.

الواسع لأن سنه كان أربعاً وعشرين سنة، ولم يسبق له مخالطة مع عظماء الرجال والجيش فضلاً عما به من الجراحتين. وعقب خلاصه من يد الجلادين قال في مخاطبته له: اؤمر عسكرك بالخروج وانزع أسلحتك ولنذهب إلى أودة الخرقة الشريفة. فهذا لا يصدر إلا من شجاع وذي همة. إنتهى.

وفي أثناء زيارة السلطان محمود الخرقة الشريفة صار البيرقدار يتمشى وإذا بالسلطان مصطفى أقبل في أودة العمامة. فقال: إني لم أتنازل عن السلطنة فمن الذي أجلس محموداً. فقال البيرقدار: من هذا؟ هل هو السلطان مصطفى. قولوا له: ليذهب إلى منزله، وإلا فهو يتسبب لأمر يصدر مني يترتب عليه اللعنة إلى يوم القيامة. فقام أحمد أفندي الإمام مع بعض رفقائه نحو السلطان مصطفى، وقال له: إن قسمتكم في السلطنة قد انتهت فاسترح، وشرف بمحل الحريم الهمايوني. فعزم على ذلك، وإذا بوالدته أتت إلى باب الوسط باكية معربدة، وأخذت تسب البيرقدار، فقال مصطفى باشا: نحن معاشر العثمانيين لا نمس النساء ولا نؤاخذهن. وكانت العادة عند جلوس أحد السلاطين أن تنتظر الساعة السعيدة للمبايعة فيها، ولكن لوجود هذه الأهوال لم تنتظر. وإنما وافق ذلك يوم الخميس رابع جمادى الآخرة الساعة ٩ والدقيقة ٤٠. والطالع كان سعد الأكبر في ٢٨ درجة في برج القوس. فقال المنجمون: الخيرة فيما اختاره الله.

وفي أثناء ذلك رأى البيرقدار مرجان آغا، فقال له: أنت السبب في قتل السلطان سليم لعدم فتحك الباب. ثم سبه وقال للسلطان: إئذن لي بقتل قاتلي السلطان سليم والمتسببين. وظهر في وجهه شدة الغضب، فقال له السلطان: يا باشا، العجلة من الشيطان، والتأني من الرحمن. فاضطر الباشا إلى كظم غيظه. ثم أمر السلطان بإبقاء جميع المأمورين كما كانوا. ثم دخل للحريم وأمر بالبحث عن القاتلين وسجن البوستانجي باشي، وأمر بالبحث عن الباقين. فأحضروا واحد بعد واحد وكانوا هربوا جميعاً.

أما السلطان سليم فإنه لم يتيسر دفنه في ذلك اليوم، بل في ثاني يوم من قتله الذي هو يوم الجمعة. وقد اجتمع لدفنه مصطفى باشا البيرقدار الذي صار صدراً أعظم، وشيخ الإسلام والوزراء والعلماء فدفنوه في جامع لالي، نوّر الله قبره ورحمه رحمة واسعة.

ثم اهتم السلطان محمود بالبحث عن كل من كان له يد في هذه الفتنة وإحضاره حتى بلغ من قتل منهم في البضعة أيام التالية ثلثمائة نفر، منهم موسى باشا القائمقام السابق المعلوم أمره. وأما الشيخ عطا الله شيخ الإسلام السابق فصار نفيه وعوفي من القتل إكراماً للعلم الشريف.

***

[٢٩] السلطان مصطفى الرابع

(إبن السلطان عبد الحميد الأول)

ولد المشار إليه سنة ١١٩٣، وجلس سنة ١٢٢٢.

وقد تقدمت الوقائع والفتن الداخلية. وأما الوقائع الخارجية فإن بونابارت أمبراطور فرنسا غير سياسته مع الدولة كما ذكر، وعرض على الروسيا وأوستريا تقسيم بلاد الدولة العلية. وقال: إنه يستحيل إبقاء الدولة العلية كما يشاهد من أحوالها. فجعل له بلاد البوسنة وألبانيا بما فيها يانية وبلاد اليونان وترحالة ومكدونيا، وللروسيا البغدان والأفلاق والبلغار، ولأوستريا الصرب. وقيل: إن الأستانة إختلفوا فيها. حتى قيض الله للدولة السلطان محمود، فبدأ فيها بتغيير أحوالها من الخطر إلى الصلاح، ومن الضعف إلى القوة. ولم يحصل في مدة السلطان مصطفى شيء يذكر غير ما ذكر.

وفي سنة ١٢٢٣ صار توقيف السلطان مصطفى وجلوس السلطان محمود كما تقدم.

* * *

(أسماء الأمراء والملوك المعاصرين للسلطان سليم والسلطان مصطفى)

أسبانيا	فردياند السابع .
برتغال	مارية .
الروسيا	كترينا الثانية ، ثم باولوص الأول ، ثم إسكندر الأول .
فرنسا	الأمبراطور نابليون بونابارت الأول .
ساردنيا	وقتورا مانويل الخامس .
أسوج	كوستاو الرابع .
دانيمارك	قرستيان السابع .
ألمانيا	فرانسو الثاني .
بروسيا	فردريك كيلوم .
نابولي	فردياند الرابع .
أوستريا	جوزيف .
الونديك	جمهورية .
انكلترا	جورج الثالث .
فلمنك	كيلوم .
الصين	هيوان دانغ .
الهند	دلمراشكوه .

* * *

[٣٠] السلطان محمود عدلي الثاني

(إبن السلطان عبد الحميد الأول)

ولد المشار إليه سنة ١١٩٩، وجلس سنة ١٢٢٣ الموافق سنة ١٨٠٨ ميلادية، بالغاً من العمر ٢٤ سنة، ومدّة سلطنته إثنتان وثلاثون سنة.

وكان محباً للسلطان سليم، وأفكارهما متطابقة. فاهتم بإيجاد النظام الجديد بإسم سكبان إحتراساً من تجديد الفتن من اليكيجريين. لكن لفرط شجاعة الصدر الأعظم، وعدم إلمامه بفن السياسة وحسن الإدارة، بكتم ما يلزم كتمه، والمداراة أحياناً، وشدّة كراهة اليكيجريين له، عادت الفتن كما كانت. وذلك أنه عقب الواقعة الماضية الهائلة المقتول فيها السلطان سليم تخابر اليكيجريون في أمر قتل الصدر الأعظم، فاجتمع فريق منهم ولصقوا ورقة مكتوباً فيها: (روملليدن كلدي برجتاق بيرام أبرتسي ياقلج أو ينايه جق يابجاق) ومعناه أتى من روملي شكلي وسيلعب بعد العيد سيف أوسكين. لكن لم ينتظروا إلى بعد العيد كما قالوا، بل في ليلة الثلاث الموافق ليلة القدر حاصروا الصدر الأعظم في الباب العالي بعائلته.

وأما الصدر الأعظم فإنه أدخل حرمه وجواريه في الغرف الداخلة، ودافع هو ومماليكه بحالة مدهشة، وقتل كثيراً منهم، واستمر ذلك إلى اليوم الثاني الساعة ٨ نهاراً. ولما لم يأت له إمداد من خارج، وتصادف اشتعال النار في المخزن الموجود فيه الجبخان، لم يسلم نفسه ولا أحداً من أتباعه لهم حياً، فحرقوا جميعاً.

ثم هجم الأشقياء على السراية وطلبوا إجلاس السلطان مصطفى، فوجدوه ميتاً. وفي موته خلاف. قيل: إنه مات بالسكتة. وقيل: إنه مات خنقاً. والله سبحانه وتعالى أعلم.

وبعد حصول مضاربات ومناوشات بينهم وبين من قابلهم في أمر المدافعة عن السراية، إنصرفوا بعد أن قتلوا الكثيرين من رجال الدولة.

أما من خصوص الخارجية فإن الروسيا لا زالت مستمرة على الحرب والسطو على بلاد الدولة.

وأما السلطان محمود فإنه فرّق إنجلترا عن الروسيا، وعقد صلحاً معها. ثم استعد لمقاومة الروسيا.

وفي سنة ١٢٢٤ أرسل عساكر بكثرة، واشتبكت الحرب بينها وبين الروسيا التي دست الدسائس في الصرب بالعصيان. فصارت الدولة تحارب الروسيا والصرب في آن واحد. ثم حاصرت الروسيا قلعة سلسترة فقامت الأهالي مع حاميتها في الثالث والعشرين من شهر رمضان، وخرجوا وهجموا على الأعداء بشدة مستميتين، فحمي وطيس المعركة. وبعد أن قتل من الأعداء ألف إنسحبوا إضطراراً. وفي ١٥ منه هجمت الروسيا بجميع قوتها على قرية تاتاريجة، وسدت كافة الطرق إلا مدادية.

فلما رأى جيش الدولة أن أعدائهم يبلغون ضعفيهم تقريباً قاتلوا قتال الموت، حتى كانت واقعة هائلة، وازداد العناد من الطرفين. وأخيراً إنسحبت الأعداء مغلوبين والموتى من كل طرف يبلغون عشرة آلاف. في رواية: أن قتلى العثمانيين ألف غير الجرحى والله أعلم.

وفي سنة ١٢٢٥ زاد إهتمام السلطان بالتجهيزات الحربية، وإذا باليكيجريين بالأستانة ثاروا كعوائدهم، وسفكوا دماء الأبرياء، فاشتغل السلطان بإطفاء نار هذه الفتنة فلهذا وشدة ثوران البلقان تمكنت الروسيا من الإستيلاء على قلعتي هزارغراد وسلسترة. ثم أرسل الجنرال فامنسكي قائد الجيوش الروسية جواباً شديد اللهجة للسردار، مضمونه: أن الدولة العلية إذا لم تسرع بالصلح فلا بد من وقوعه في جوار الأستانة. فأرسل السردار ذلك الجواب إلى الباب العالي فأمر السلطان بعقد مجلس عمومي للشورى في جامع محمد الفاتح.

وأخيراً تقرر بدعوة كافة المسلمين ببلاد الدولة للجهاد لأنه فضلاً عن قلة عساكر الدولة فإنها غير منتظمة وغير مطيعة. فعزم السلطان على القيام بنفسه للجهاد.

وفي جمادى الآخرة إنتصرت عساكر الدولة على الروسيا مراراً، فاضطرت الروسيا إلى الإنسحاب عن محاصرة وارنا، وانسحبت أيضاً مقهورة في ٣ رجب عن روسجق.

ثم إن الدولة أخذت فرقة من العساكر لإستيفاء تأديب الصرب فأدبتهم تأديباً شافياً.

وفي أثناء ذلك عادت الروسيا لمهاجمة روسجق فاستولت عليها وأسرت كثيراً من العساكر.

وفي سنة ١٢٢٦ حصل الصلح في مدينة بكرش، ولم أقف على مضمونه، إنما ردت البلاد من الروسيا إلى الدولة. وكانت مدّة هذه الحرب ثلاث سنوات.

وما تم هذا الصلح إلا وقد ورد خبر بعصيان المماليك في مصر على واليها محمد علي باشا.

وفي سنة ١٢٢٧ قتل أغلب المماليك بالقلعة. ولمعلومية تفاصيل ذلك بالتواريخ العربية كالجبرتي إختصرنا هنا.

وفي سنة ١٢٢٨ عاد الصربيون إلى الثورة. ففي الحال صار تأديبهم.

وفي أثناء هذه المشاغل الخارجية تكوّنت في بلاد الدولة ثورات وفساد من تغلب أكثر أعيان الولايات مع بعض الولاة كعلي باشا تبه دلنلي والي يانية، فاشتغلت الدولة بتأديب ومحو المتغلبين واحداً بعد آخر.

وفي سنة ١٢٣٣ حصل حرب بين الدولة وإيران بدسائس الروسيا، فطالت نحو سنتين لظهور الفتن والعصيان في خلالها. وفي هذه المدة كانت أفكار السلطان مشغولة بخصوص أمر اليكيجريين حيث علم علم اليقين أن أمر الدولة لا ينجح بهذه الطائفة الباغية. وإذا بالأروام في بلاد اليونان قد ثاروا على الدولة بدسائس الروسيا، ومساعداتها لهم سراً. فاستمرت هذه الفتنة بضع سنوات لأن الروسيا إستمالت إليها دولتي فرنسا وإنجلترا للمساعدة في إستقلال اليونان. وظهر من اليكيجريين في خلال فتنة الأروام أمور وحشية من نحو عصيانهم وتهوّراتهم.

وفي سنة ١٢٤٠ إشتدّت الفتنة الخارجية والداخلية.

وفي سنة ١٢٤١ عقد مجلس بأمر السلطان في باب المشيخة بوجود الصدر الأعظم، فقرروا بأخذ من يليق من اليكيجريين لتعليمه بإسم اشكنجي أي بياده. وفعلاً بدىء بالعمل.

وفي ليلة الخميس تاسع القعدة الموافق سنة ١٨٢٨ ميلادية إجتمع اليكيجريون في آت ميدان كعادتهم، وتعرضوا لبعض الأهالي بما لا يليق، وهجموا على بعض البيوت، ونهبوا ما فيها، وهجموا على الباب العالي. فأخرج السلطان الراية الشريفة، وجمع تحتها رجال السراية والعلماء وطلبة

المدارس والأهالي والطوبجية في ميدان السلطان أحمد. ثم أرسل حسين باشا ومحمد باشا ونعمان آغا الطوبجي إليهم في قشلاقاتهم، ودعوهم إلى الإنقياد والتسليم. فأبوا وتمردوا. فأمر السلطان الطوبجية برئاسة نعمان آغا المذكور واليوز باشي إبراهيم آغا الملقب بقرة جهنم بضرب قشلاقاتهم عليهم، فجعلوا عاليها سافلها. وقطع جذور هذه الشجرة الخبيثة. ثم قفل جميع التكايا المملوءة بأهل الإلحاد والضلال الذين نسبوا نفوسهم للحاج بكتاش مع قتل أغلبهم الذين كانوا يستصوبون أعمال اليكيجريين، ويعطون لهم العهود. فبهذه الأعمال أنقذ السلطان بلاد الدولة الواسعة من التهلكة والخراب، وأرسل للولايات بقتل كل من يوجد من اليكيجريين ولم يسلم سلاحه.

ثم إهتم بجمع العساكر النظامية من الأناضول والروملي باسم رديف عساكر خاصة ومنصورة محمدية، وفي زمن قليل بلغ عدد العسكر الجديد سبعاً وثلاثين ألفاً. وعين حسين باشا سر عسكر. فبهذا التدبير إنتشر العدل في الولايات، وآرتاح الأهالي، وقطع دابر العصاة، ودخلت الدولة في طور جديد.

لكن أخذت الأعداء عدم وجود جيش بالدولة فرصة، وبالأخص منهم الروسيا، فطلب الدول الثلاث الروسيا وفرنسا وإنجلترا في سنة ١٢٤٣ إستقلال اليونان، وإعطاء إمتيازات لبلاد الصرب والأفلاق والبغدان، وهجمت الروسيا على بلاد الدولة.

وقد تقدم أن جيش الدولة جميعه لا يبلغ سوى ٣٧ ألفاً، فصارت الروسيا تستولي على بلاد بلا حرب سوى مناوشة الأهالي. فاستولت على مدينتي ياش وبكرش، وأرسلت فرقة أخرى تبلغ خمسين ألفاً إلى بلقان. ثم اتخذت دونانمة الثلاث دول المذكورة على الدولة العلية، فاستولت الروسيا على إيسقاجة وإبرانيل وطولجي وكوستنجة ووارنة في سواحل البحر الأسود، وباقي سفنها مع سفن الدولتين المذكورتين غدرت على دونانمة الدولة في جهة أنا أورين فأحرقوا من سفن الدولة ومصر عشرة، وحاصروا على أربعين. فلعدم أخذ الأعداء لها أغرقوا ونجت عشرة سفن. فكانت خسائر الدولة في هذه الواقعة خمسين سفينة.

ثم استولت الروسيا على أرمنيا وقلاع قارص وأخسخة والقاجق، وقامت بلاد البلقان ضد الدولة أيضاً. وغاية ما أمكن الدولة هو إرسال حسين باشا بعشرة آلاف فلم يمكنه مقاومة الأعداء. وأما السلطان فإنه كان مهتماً بتشكيل العسكر الجديد وإنشاء السفن الحربية حتى إذا بلغ الجيش المقدار اللازم يذهب بنفسه إلى الحرب، لكن ذلك يحتاج إلى زمن طويل والأعداء تستولي على

البلاد بلا مقاومة، حتى بلغت عساكر الروسيا إلى مركز جتالجة قريباً من الأستانة. فانعقد مجلس عمومي في باب الفتوى للشورى في الحالة الحاضرة. فتقرر بأغلبية الآراء قبول طلبات الدول من نحو إستقلال بلاد اليونان وغيرها.

وفي سنة ١٢٤٥ تم الصلح.

وفي سنة ١٢٤٦ عصى داود باشا والي بغداد طالباً الإستقلال. فعزله السلطان، وعين بدله علي باشا رضا. وأعطى له فرقة من العساكر للقبض على داود باشا. فذهب المشار إليه واتحد مع والي الموصل وسائر الولاة المجاورة لبغداد، فاشتبكت الحرب فانهزمت أعوان داود باشا، وتحصن هو بالقلعة، وبعد محاصرته سبعين يوماً قبض عليه حياً، فطلب العفو بواسطة علي باشا، فعفي عنه، وأرسل بعائلته إلى بروسة. وبعد مدة عين شيخاً للحرم المدني بناء على طلبه.

وأما فرنسا فكان مطمح نظرها موجهاً نحو الإستيلاء على الجزائر، فلم تر أحسن فرصة من الوقت الحاضر لضعف الدولة وقلة العساكر. فأخذت في إحداث المشاكل بها بواسطة قنصلها الذي حصل بينه وبين واليها أمور ومشاكل. فأرسلت عساكرها وسفنها، وبعد قتال بينهما إستولت عليها.

وفي سنة ١٢٤٧ تسلطت الأوهام على مصطفى باشا والي إشقودرة حتى أنه لم يقبل نصيحة الدولة. ثم استأمن أعوانه فأمنتهم الدولة، وعاد هو للقلعة فتحصن بها، فحوصر عليه فيها. ثم طلب العفو من السلطان فعفا عنه، وعزل عن الولاية، وأعقب ذلك أن عصى محمد علي باشا والي مصر، وطلب الإستقلال بتحريك من الأعداء الأجانب وأصحاب الأغراض.

وفي سنة ١٢٤٨ أرسل عساكره بقيادة إبنه إبراهيم باشا المشهور، وحصل بينه وبين العساكر الشاهانية جملة وقائع حربية كانت النصرة له في غالبها، حتى بلغ إلى قرب قونية. وامتدّت هذه الحرب لغاية سنة ١٢٥٤.

ومن وقائعها الشهيرة أسر رشيد باشا. وذلك أنه في وادي قونية حصلت واقعة بينهما، فانهزم عساكر مصر، فاتبعهم رشيد باشا. وتصادف ظهور ضباب هائل فقصد الصدر الأعظم رشيد باشا إدخال عساكره إلى قونية. ثم رأى فرساناً مصرية فظنهم أتراكاً، فدخل فيهم، فقبضوا عليه، وانهزمت عسكره.

فبناء عليه وصل إبراهيم باشا إلى قرب كوتاهية. ثم أرسل السلطان خليل باشا القبودان بحراً إلى مصر، فقبض على سفينتين مصريتين بقرب قبرص، وهربت الثالثة. لكن إنتصر إبراهيم باشا

على حافظ باشا بقرب أورفابرا . فاغتم السلطان ، وأرسل خليل باشا المذكور إلى مصر لينصح محمد علي باشا بالإقلاع عن سفك الدماء بين المسلمين ، فلم يفد كما يأتي .

ثم لم يشغل هذا السلطان الغيور صاحب الهمة العلية هذه المشاكل عن إجراء الإصلاحات الداخلية ، وتكميل النظامات ، وتعميم تعيين سفرائه في عواصم أوروبا وإصلاح الضربخانة ، وإحداث نقود جديدة ، وفتح بوستة خانات ، ووضع أساس أصول الكورنتينة ، وأنشأ بين غلطة والأستانة كوبريا ، وبنى جامع الطوبخانة الشريف ، وأنشأ سفناً كثيرة حتى بلغت مائة متنوعة . ثم حصل حريق هائل بالأستانة أتلف عشرة آلاف بيت .

وفي سنة ١٢٥٥ جاء الخبر عقب هذا الحريق الهائل بأن محمد علي باشا لم يقبل النصيحة . ثم اهتم السلطان بتكثير العساكر ، وإذا بمرض إعتراه فمات به ، رحمه الله تعالى رحمة واسعة .

وله من الأولاد السلطان عبد المجيد والسلطان عبد العزيز .

* * *

(أسماء معاصري السلطان محمود من الملوك والأمراء وجهاتهم)

الروسيا	:	الأمبراطور إسكندر الأول ، ثم نقولا الأول .
انجلترا	:	جورج الرابع .
أسوج ونروج	:	شارل الثالث عشر، ثم أسقولوا الأول .
دانيمارك	:	فردريك السادس .
بروسيا	:	فردريك الثالث ، ثم فردريك الرابع .
فلمنك	:	كيلوم الثالث .
أوستريا	:	فرنسو الثاني .
بلجيكا	:	ليؤبولد .
ويرتنبورغ	:	فردريك الأول .
البرتغال	:	جان السادس ، ثم مارية الثانية ومعها رون ميكل .
ساردنيا	:	إمنويل الخامس ، ثم شارل فلكس ، ثم شارل ألبرت .
أسبانيا	:	جوزيف بونابارت ، ثم فارديناند السابع ، ثم قرستين ، ثم إيزابلة الثانية .
فرنسا	:	نابليون الأول ، ثم لوي الثامن عشر، ثم شارل العاشر، ثم لوي فليب الأول .
يونان	:	أوتوني الأول .
ساكسونيا	:	فردريك أوكست .
إيران	:	فتح علي خان .
الصين	:	تاوقوانغ ، ثم إبنه هيان قونفع .
تونس	:	واليها حسين باشا من قبل الدولة .
مصر	:	واليها محمد علي باشا من قبل الدولة .

* * *

[٣١] السلطان عبد المجيد الأول

(إبن السلطان محمود)

ولد المشار إليه في سنة ١٢٣٧، وجلس سنة ١٢٥٥ بالغاً من العمر ١٨ سنة. ومدّة سلطنته إثنتان وعشرون سنة.

وقد تقدّم أن الحرب كانت بين محمد علي باشا وبين الدولة قائمة.

في هذا العام إضطر القبودان أحمد باشا فوزي إلى تسليم دونانمة الدولة الموجودة في البحر الأبيض لمحمد علي باشا، وذلك من سوء تدبير وأغراض خسرو باشا السرعسكر. فعين رشيد باشا للصدارة العظمى.

وفي هذا العام كتب السلطان الفرمان المشهور بكلخانة مضمونه، التأكيد بمساواة جميع الرعايا.

وفي سنة ١٢٥٦ إهتم محمد علي باشا وإبنه إبراهيم باشا بالحرب، وظنا أن موت السلطان محمود، وجلوس السلطان عبد المجيد يكونان سبباً لإتمام إنتصاراتها. فأرسلت الدولة دونانمة عظيمة إلى مينا وسواحل إسكندرية، وأحالت إدارة ولاية مصر موقتاً على محمد باشا عزت. فاستولت الدونانمة على قلاع جونية وصيدا وسوريا، وإنتصرت عساكر الدولة براً على إبراهيم باشا. فلما رأى ذلك مير بشير رئيس المشايخ ترك مساعدة إبراهيم باشا، وانضم إلى عساكر الدولة. وكذلك أهالي ومشايخ جبل لبنان، والشيخ أحمد بك شيخ العربان. ثم استولت عساكر الدولة على قلاع صيدا وعكا وطرابلس وحما وحمص.

أما من جهة الدول فإن إنكلترا وأوستريا والروسيا وبروسيا قطعوا العلاقات مع محمد علي باشا، بل إن إنكلترا أظهرت المساعدة للدولة. ثم بواسطة المذكورين وتعهداتهم بعدم عصيان محمد علي باشا مرة أخرى، تم الصلح على ما هو معلوم. فبناء عليه عادت دونانمة الدولة السابق تسليمها إلى محمد علي باشا إلى الأستانة كما كانت.

وفي سنة ١٢٥٧ ثارت في كريد الأشقياء فأعادت الدولة في الحال الأمن فيها.

ثم اهتمت الدولة ثلاث سنين بالإصلاحات الداخلية وساح السلطان لرؤية الفابريقة التي أنشئت لأعمال الجوخ في أزميد، وساح أيضاً إلى بروسة ومدللو.

وفي سنة ١٢٦١ فتحت في الممالك الشاهانية مكاتب كثيرة لترقية المعارف.

وفي سنة ١٢٦٢ أظهر من يدعى بدرهان بك بجوار الموصل العصيان والفساد. فأرسل إليه عثمان باشا مشير جيش الأناضول فأدبه وأعاد الأمن. وفي سنة ١٢٦٣ أنشىء مدرستان حربيتان بالأستانة لإستخراج ضباط وأطباء.

وفي سنة ١٢٦٥ أظهر نور الله بك في كردستان العصيان، ثم ندم وذهب إلى الأستانة معتذراً للسلطان، فعفى عنه وأكرمه.

وفي سنة ١٢٦٦ ساح السلطان إلى جزائر البحر الأبيض برسم التفتش على الأحوال.

وفي سنة ١٢٦٧ عزل السلطان الشريف محمد بن عون أمير مكة، وعين بدله الشريف عبد المطلب.

وفي سنة ١٢٦٨ أنشىء أربعة قلاع جسام في طريق الحديدة.

وفي سنة ١٢٦٩ طلبت الروسيا إمتيازات في الكنائس الموجودة في ممالك الدولة، والتأمينات الكافية، وغيرها من الطلبات المبهمة المقصود منها,وقوع الحرب من قبل إستعداد الدولة وإيجاد القوة الكافية لمقاومتها، لأنها خرجت من حرب الشام مع محمد علي باشا كما تقدم. وساقت فعلاً قوة هائلة إلى الأفلاق والبغدان.

ففي الحال أرسلت الدولة عساكرها النظامية والرديف المتقاعدين. ففي الوقائع الحربية التي حصلت في جتانة وقلفات وأولتينجة. تشتتت شمل عساكر الروسيا خلافاً لما كانت تظن من أن قوة الدولة كسوابقها. فلما وجدت ما يخالف فكرتها أظهرت التجلد والإهتمام الفائق في تهيئة جيش عظيم حتى أبلغته ثمانمائة ألف.

أما السلطان فإنه كان أرسل رفيق باشا إلى فرنسا وإنكلترا سفيراً ليفهمها إعتداء الروسيا، ونقضها بغير حق للمعاهدة المصدق عليها من الدول. فنصح كل من فرنسا وإنكلترا وسردنيا

الروسيا بعدم الحرب، فلما لم تذعن ساعدوا الدولة العلية براً وبحراً بمئتي ألف عسكري، فقابلتهم الروسيا بحراً بمائة وثلاثين سفينة حربية متنوعة. ولم أقف على مقدار سفن الدول المتفقة التي انتصرت حتى استولت على المدائن والقلاع الموجودة في سواحل البحر الأسود للروسيا. وكذلك إنتصر عساكر الدولة والمتفقين على عساكرها بجوار نهر المالو في جزيرة قريم.

وفي سنة ١٢٧٠ حصلت بعض تلفيات في دونانمة الدولة في واقعة سينوب.

وفي سنة ١٢٧١ حاصر المتفقون مدينة سواستبول، وأغرقوا كثيراً من سفنها، واخربوا قلعتي مقسيمليان وتوردسود وكانتا من أمتن القلاع. ثم إتحدت السفينة المسماة المحمودية والتشريفية مع بعض سفن المتفقين بإرسال مقذوفاتها على المدينة المذكورة، فهدّت قلعتي قسطنطين وقرنتنة، وقيل: كترينة، وطابية تلغرافيا، ونتج من ذلك حريق هائل فأحرق ثلثها. وكانت تلفيات الروسيا هائلة خصوصاً من الضباط المشهورين. ثم انهزمت عساكرها في واقعة إبن كرمان. وكذلك حطمت بضع سفن من سفنها في بحر الصين.

وفي سنة ١٢٧٢ عصت عشائر الأكراد في خربوط. فأرسلت الدولة فرقة من العساكر فأدّبتهم وأعادت الأمن.

وفي أثناء ذلك جاوز أربعون ألفاً من الأروام حدود الدولة بدسيسة روسيا، فتسلطوا على أرمية ودومكة وترحالة. فأرسلت الدولة الفريق شاكر باشا بستة آلاف بيادة وآلاي واحد سواري وبطاريتين من المدافع ومعه عبدي باشا الشركسي بمن معه من العساكر المصرية، ولم أقف على مقدارهم. فوقعت الحرب، فظهرت أولاً علامة الإنهزام من العساكر المصرية، لكن على أثر قدوم شاكر باشا بفرقته إنتهت الحرب بهزيمة الأروام. ثم عينت الدولة عمر باشا الشهير سرداراً على جيشها المحارب للروسيا، فكثرت تلفيات الأخير واستولى المتفقون على مدينة سواستبول، فعجزت الروسيا عن المقاومة، وطلبت الصلح بواسطة فرنسا.

وفي سنة ١٢٧٣ عقد مجلس في ويانة فعينت الدولة رشيد باشا الصدر الأعظم من قبلها، وعينت عالي باشا للصدارة.

ثم عقد مجلس في باريس من دول فرنسا وإنكلترا وساردينيا وأوستريا الروسيا وبروسيا فتم الصلح وانسحبت العساكر.

وفي سنة ١٢٧٤ أنشئت السكة الحديدية بين أزمير وأيدين.

وفي سنة ١٢٧٥ حصل إختلال في الصرب، فخرج منها حاكمها ميلوش بيك، وذهب إلى ويانة. فعينت الدولة بدله إسكندر بيك، فعجز عن إستمالة الأهالي إليه، فذهب قبولي أفندي من قبل الدولة مندوباً للتحقيق. فتبين بأن المدان هو إسكندر بك فعزلته، وولت بدله ميلوش بك ثانياً.

وفي هذا العام وقعت منازعات بين المارونيين والدروز في جبل لبنان.

وفي سنة ١٢٧٦ إجتمع ثلاثون ألفاً من الدروز في خان مرج بقيادة شيخهم إسماعيل عطرش، واجتمع فوق السبعين ألفاً من المارونية في زحلة فاقتتلوا معهم، فقتل منهم كثيرون. فبناء عليه ساقت دولة فرنسا دونانمتها إلى بيروت، واحتلتها بخمسة عشر ألفاً من العساكر.

فلما بلغ ذلك الدولة أسرعت بزيادة قوتها الحربية في الشام، وأرسلت فؤاد باشا ناظر الخارجية المشهور مفوضاً في تسوية هذه المسألة. فقبل وصوله أطفئت نار الفتنة، لكنها سرت في نفس الشام، فهجم أوباش كثيرون من المسلمين على غير المسلمين. فلما وصل فؤاد باشا أخذ المجرمين وسجنهم، ثم أجرى محاكمتهم كل منهم على قدر جرمه.

وفي سنة ١٢٧٧ إنتهت تسوية هذه المسألة. والمشكلة بالحالة التي عليها الآن جبل لبنان، وانسحب الفرنساويون بمراكبهم.

وفي هذا العام توفي السلطان عبد المجيد، رحمه الله تعالى رحمة واسعة. ودفن بتربته المخصوصة بجوار السلطان سليم.

وأولاده ثمانية: السلطان محمد مرادخان الخامس، والسلطان عبد الحميد الثاني حفظه الله ونصره، ورشاد أفندي، وكمال الدين أفندي، وبرهان الدين أفندي، ونور الدين أفندي، وسليمان أفندي، ووجد الدين أفندي، حفظهم الله.

* * *

(أسماء معاصري السلطان عبد المجيد من الملوك والأمراء وجهاتهم)

إنكلترا	: الملكة فكتوريا .
الروسيا	: نقولا الأول ، ثم إسكندر الثاني .
ألمانيا	: كيلوم الأول .
أوستريا	: فرانسو جوزيف .
فرنسا	: نابليون الثالث .
إيطاليا	: إمانويل .
يونان	: أوتوني .
دانيمارك	: فردريك .
البرتغال	: بدرو.
أسبانيا	: الملكة إيزابله .
بلجيق	: ليوبولد .
فلمنك	: كيوم .
نابولي	: فرانسو.
أسوج ونروج	: شارلي .
الصرب	: ميلوش من قبل الدولة العلية ، ثم إبنه ميخال .
أفلاق	: قوزه بك ، ثم شارل من قبل الدولة العلية .
الجبل الأسود	: نقولا بك من قبل الدولة العلية .
سيسام	: فرتيادي بك ، ثم باولاواكي .

آسيا

إيران	: محمد شاه ، ثم نصر الدين
أفغان	: الأمير شير علي .
الصين	: هيان قونغ .
فاس	: عبد الله .
مصر	: محمد علي باشا ، ثم عباس باشا الأول .
تونس	: محمد صادق باشا .

* * *

[٣٢] السلطان عبد العزيز

ولد المشار إليه في سنة ١٢٤٥، وجلس سنة ١٢٧٧، الموافق سنة ١٨٦١ ميلادية، بالغاً من العمر إثنين وثلاثين سنة.

وفي أول جلوسه أطفئت نارعصيان أهالي الجبل الأسود. ثم زار أجداده في بروسة. وبعد عودته إخترع النيشان العثماني.

وفي سنة ١٢٧٨ إهتم بإتمام السكة الحديدية بين أزمير وكوستنجة.

وفي سنة ١٢٧٩ ساح السلطان إلى مصر، وبعودته زينت الأستانة ثلاث ليال.

وفي هذا العام إفتتح المعرض في ميدان السلطان أحمد المسمى سركي عثماني، وهو أول معرض ثم اهتم بالإصلاحات والتعديلات الداخلية.

وفي هذا العام عصت أهالي الجبل الأسود ثانياً، فأرسل لهم عمر باشا السردار. وبعد عدة وقائع حربية إستأمن أهله، فانسحبت العساكر.

وفي سنة ١٢٨٠ حصل إرتباك في شأن النقود حيث أن الأوراق التي كانت أنشئت بدل النقود في زمن السلطان عبد المجيد إعانة على حرب قريم المعروفة بالقوايم، إنخفضت قيمتها طاقات، فأصبحت القائمة التي قيمتها مائة قرش لا تساوي إلا ثلاثين قرشاً بالعملة الذهب أو الفضة وتمشى بعشرين قرشاً وتصبح بأربعين قرشاً، وهلم جراً. فتشكل البنك العثماني بناء على رأي فؤاد باشا الصدر الأعظم، وأنشيء سهام جديدة باسم القونصليد العثماني. فاستردت الحكومة القوائم المذكورة من الأهالي، وأعطت لهم بدلها نقوداً ذهبية وفضية، وهذا هو الأساس لدين الدولة مع المصاريف الجسيمة التي صرفت في الحروب الروسية القريمية التي دامت ثلاث سنين.

وفي هذا العام وضعت أصول الموازين المالية كأصول موازين الدول الأوروباوية، وصار تعميم المجالس النظامية في كافة الولايات، وأرسلت مفتشون كثيرون للنظر في سريان الدعاوى وتطبيقها على النظام.

وفي هذا العام ثارت أهالي كريد المسيحيون بتحريكات أجنبية . فأرسلت الدولة إليهم عساكر بقيادة مصطفى باشا النايلي الكريدلي الصدر الأعظم الأسبق ، ثم عمر باشا السرادار وعالي باشا الصدر الأعظم ، وحسين باشا عوني وعساكر من مصر ، وكانت تأتي إليهم ذخائر ومؤونات وعساكر متطوعة بكثرة من الخارج . فأسر حسن بك غمسز أميرال الدارعة عز الدين السفينة اليونانية المسماة أرقادي ، وبعد تأديب العصاة وإيجاد الأمن عادوا .

وفي هذا العام سنة ١٢٨١ هاجر من قبائل الشراكسة بضع مائة ألف بيت أو عائلة إلى بلاد الدولة لما استولت الروسيا على بلادهم . وأما الدولة فإنها أعانتهم بالمؤنة بضعة أشهر ، وبأدوات زراعية وعربات النقل وعافتهم من الويركو ومن العسكرية .

وفي هذا العام عصت قبيلة عسير باليمن فاستولت على قلعة جذان وبلدة أبي عريش . فأرسلت إليهم الدولة عساكر . وبعد تأديبهم واسترداد القلعة والبلدة عادت .

وفي سنة ١٢٨٢ سار الوباء من الإسكندرية إلى الأستانة ، ومنها إلى بعض جهات الأناضول ، فمات به الكثيرون . وأعقب ذلك إشتعال النار بالأستانة فأحرقت جهة خواجا باشا . ثم سرت إلى المحلات المعروفة بجغال أو غلي وفضلي باشا إلى المحل المسمى أوجلر تحت ميدان السلطان أحمد ، وسرى نوع آخر من ديزواربة إلى كدك باشا وقدرغه وقومقبو إلى ساحل البحر مع المحلات المعروفة بنيشانجي وسراج إسحاق بما يقرب من ثلثي الأستانة ، فأعانت الدولة المصابين . واكتسبت أيضاً من أصحاب المروءة والحمية الإعانات . ثم أطفئت ، وأعقب ذلك إرتفاع الوباء .

وفي سنة ١٢٨٣ ساح السلطان عبد العزيز إلى أوروبا ولما عاد إلى الأستانة أجريت الزينة من طرف الأهالي . ومن مزايا سياحته تعديل مواد الإمتيازات الشخصية الأجنبية بأحسن مما كانت عليه قبلاً لأن هذه الإمتيازات كانت أعطيت لهم عقب إنتصارات الدول في أوقات حرجة .

وفي هذا العام فرّ قوزه بك حاكم المملكتين أفلاق بغدان إلى باريس خوفاً من الأهالي ، فعينت الدولة بدله شارل أحد برنسات بروسيا بشروط معلومة . فجاء إلى الأستانة لتقديم التشكرات للأعتاب السلطانية .

وفي سنة ١٢٨٤ صار لغو المجلس المعروف بمجلس (والاى أحكام عدلية) ، وتشكل بدله المجلس الشوري بالأستانة ، وتشكل أيضاً للمجالس النظامية إبتدائية وإستئنافية ، وتميز وأحدث

ديوان جسيم بالأستانة بإسم (أحكام عدلية)، ومعناه بمصر الحقانية، وصار تعديل و إصلاح كيفية التدريس وزيادة المكاتب.

وفي سنة ١٢٨٥ دعا إسماعيل باشا خديوي مصر بعض ملوك أوروبا الفتح قنال السويس.

وفي سنة ١٢٨٦ زار الأستانة الأمبراطور فرانسو جوزيف أمبراطور النمسا وأمبراطور فرنسا وبعض برنسات أوروبا، فأكرمهم السلطان.

وفي سنة ١٢٨٧ حدث حريق هائل بالأستانة بادئاً من جهة بك أوغلي، فكانت الخسائر جسيمة، فأعانت الدولة والأهالي المصابين.

وفي سنة ١٢٨٨ أنشيء عربات تراموای من الكوبري إلى صماتية وطوب قبوة، ومن قرة كوى إلى أورته كوي [١].

وفي هذا العام مات الصدر الأعظم عالي باشا بمرض الصدر، ودفن في تربته المخصوصة بجوار الجامع السليماني رحمه الله، وكان من أهم رجال عصره. وعين بدله محمود نديم باشا إبن نجيب باشا وتنقحت أصول المعاشات.

وفي سنة ١٢٨٩ عزل محمود باشا المذكور من الصدارة، وعين بدله مدحت باشا المشهور، ثم عزل وعين بدله محمد رشدي باشا المترجم، ثم عزل وعين بدله محمد رشدي باشا شرواني زاده، ثم عزل وعين بدله أسعد باشا، ثم حسين عوني باشا، ثم عاد محمود باشا نديم ثانياً. وكل هذه التبدلات حصلت في ثلاث سنين أعني لغاية سنة ١٢٩٢. فبذا حصل الإرتباك في أمور الدولة. وطلب أهالي بوسنة المسيحيين إمتيازات بدسائس أجنبية وعصوا، فأرسلت الدولة إليهم فرقة من العساكر، ولمساعدة الصرب والجبل الأسود لهم سراً إنكشفت أحوالهم، فأظهروا جميعاً العصيان.

وفي سنة ١٢٩٣ عزل السلطان محمود نديم باشا الصدر الأعظم وحسين أفندي فهمي شيخ الإسلام، وعين بدل الأول محمد باشا رشدي المترجم، وعين بدل الثاني حسين أفندي خير الله.

وفي يوم الثلاثاء ٧ جمادى الأولى سنة ١٢٩٣ خلع السلطان عبد العزيز بموجب فتوى، وجلس بدله السلطان محمد مراد الخامس. فبايعه الناس وكان متأثراً جداً من الأحوال التي رآها قبل جلوسه مما لا يليق حصوله، وزاد تأثيراً من دخول حسين عوني باشا السرعسكر عليه بغير إذنه حين

(١) محلات بالأستانة.

دعاه إلى الجلوس، وموت السلطان عبد العزيز في اليوم السادس من خلعه مشاعاً بأن سبب موته قطعه عروق ذراعيه.

وأعقب ذلك ورود الأخبار بأن عصيان بوسنة وهرسك إمتد إلى الصرب والجبل الأسود والبلغار والأفلاق وبغدان حيث شهروا السلاح في وجه عساكر الدولة جهاراً.

وأعقب هذا وذاك واقعة حسن أفندي شركس الضابط برتبة صاغ قول أغاسي. وتفصيلها: أن الوكلاء أي النظار بالأستانة عقدوا ليلاً مجلساً في سراية مدحت باشا رئيس مجلس الشورى يومئذ الكائنة في طوشان طاش وهو محل بالأستانة، فذهب حسن أفندي المذكور، وكان ياوراً للسلطان عبد العزيز. وقيل: إن شقيقته إحدى سيدات السراية. ولما وصل وأراد الدخول على الوكلاء منعه الحجاب. فقال لهم: إني مأمور بذلك، ومعي تلغراف سرّمهم يتعلق بالجيش المحارب، وضروري من مقابلة السرعسكر. فذهب أحد الحجاب يستأذن فسار وراءه حتى دخلا معاً. ففي الحال أخرج مسدساً من جيبه بسرعة عجيبة وضرب حسين باشا عوني السرعسكر مرتين، ثم راشد باشا ناظر الخارجية فقتل، ثم جرح بعض الوزراء.

أما مدحت باشا وباقي الوزراء فقد هربوا في غرفة أخرى وأغلقوا أبوابها. فقال لهم: والله لا أريد منكم غير مدحت باشا واني غير مفتر ولا مجنون. فقال له بعضهم: إعقل يا فلان وارجع. ولم يفتحوا له الأبواب. ثم تكاثر عليه الحجاب للقبض عليه فلم يقدروا بل جرحوه جراحات كثيرة حتى ضعفت قواه فقبضوا عليه، ثم حكم عليه بالإعدام، ونفذ الحكم. فهذه التأثيرات أوجبت حصول خلل في شعور السلطان مراد، فاهتم الأطباء بعلاجه مدة فلم يثمر. فتشاور الوزراء في ذلك ودعوا مولانا السلطان عبد الحميد أيده الله بنصره فشار عليهم بالصبر والتأني، لعل الله يشفي أخاه. ثم لما قطع الأطباء في مذكرتهم بعدم الشفاء طلبوا فتوى من شيخ الإسلام، فأفتى بأنه مخلوع شرعاً.

وفي يوم الخميس المبارك الحادي عشر شهر شعبان سنة ١٢٩٣ الساعة ٤ والدقيقة ٣٠ جلس للسلطنة الوارث الشرعي شوكتلو مهابتلو ولي النعم السلطان عبد الحميد خان الثاني أطال الله بقاءه، وأيد ملكه بنصره العزيز إنه على ما يشاء قدير، وبعباده لطيف خبير.

* * *

(لاحقة)

واقعة المرحوم السلطان عبد العزيز رحمه الله تعالى رحمة واسعة هي كما ذكرنا حسبما اتضح وقتها بنص التواريخ التركية.

ثم في سنة ١٨٨١ ميلادية تفضل مولانا السلطان بدقة التحقيق، وإعطاء الحرية الكاملة للمحققين. فظهرت أشياء كانت موجبة لإدانة البعض. فصار مجازاة جميع من كان له يد فيها بدرجات مختلفة، منها: نفي مدحت باشا ومحمود باشا نديم إلى الطائف. فمكثا فيه مدة طويلة إلى أن توفيا.

أما أولاد المرحوم السلطان عبد العزيز رحمه الله فهم: يوسف عز الدين أفندي، ومحمود جلال الدين أفندي، ومحمد شوكت أفندي، وعبد الحميد أفندي، وسيف الدين أفندي.

* * *

(أسماء معاصري السلطان مراد الخامس وجهاتهم)

انجلترا : الملكة فكتوريا .
الروسيا : إسكندر الثاني .... أمبراطور.
ألمانيا : غليوم الأول .... أمبراطور.
أوستريا : فرنسو جوزيف .
فرنسا : نابليون الثالث، وبعد محاربة ألمانيا وأسره صارت فرنسا جمهورية .
إيطاليا : إمنويل .
اليونان : أوتون، ثم بعد خلعه جورج الأول .
الدانيمارك : فردريك السابع .
البرتغال : بترو الخامس .
أسبانيا : الملكة إيزابلة .
البلجيك : لا أوبولد .
الفلمنك : كيلوم السادس .
أسوج ونوروج : شارل الخامس عشر.
الصرب : ميلان من قبل الدولة العلية ممتازة .
أفلاق وبغدان : شارل من قبل الدولة العلية ممتازة .
الجبل الأسود : نقولا من قبل الدولة العلية ممتازة .
إيران : الشاه ناصر الدين .
الأفغان : الأمير شير علي خان .
بخارى : الأمير مظفر الدين .
الخوقند : قولي خان .
الخطب : الأمير حبيب الله خان .
كشفر : الأمير يعقوب خان .
فاس : منلا عبد الله .
الحبش : تودور .

مصر : إسماعيل باشا من قبل الدولة العلية ممتازة.

تونس : محمد صادق باشا من قبل الدولة العلية ممتازة.

* * *

تنبيه: يرى من أسماء الملوك والأمراء المعاصرين للسلاطين المتقدمين إختلاف وتشابه ناشيء من تغير أحوال الممالك، وإختلاف الحروف الإفرنكية عن العربية. فمن يلاحظ من حضرات القراء شيء من هذا القبيل، وصح عنده خلاف ما ذكر فليعتمده، حيث أن هذه الأسماء منقولة من كتب التواريخ.

(واقعة تونس)

ولنذكر أحوال تونس ووقائعها الأخيرة إجمالاً ليقف القراء على غلطات أمرائها ووزرائها حتى احتلتها الأجانب إحتلالاً عسكرياً باسم الحماية، وما كابدته الدولة العلية في إستخلاصها أولاً وثانياً من يد الإفرنج. فنقول:

إن أول من تولى فيها بعد الفتح الإسلامي هو عبد الله بن أبي سرح عاملاً لسيدنا عثمان بن عفان الخليفة، في سنة ٢٩ هجرية. ثم كان خلفاؤه من بعده عمالاً تابعين لولاية مصر لغاية سنة ١٥٠.

وفي سنة ١٥١ تولى فيها عمر المهلبي وهو أول المهلبيين عاملاً من قبل أبي جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيين. لكن لم يكن عاملاً بسيطاً كأسلافه، بل كان مطلق التصرف حتى في الحرب والسلم شبه إمتياز.

وفي سنة ١٨١ تولى عليها إبراهيم بن الأغلب وصار بنوه يتوارثون الولاية من بعده حتى أن في سنة ٢٩٧ تولى عليها عبد الله المهدي وكان هو وخلفاؤه مستقلين تقريباً.

وفي سنة ٣٦٥ تولى عليها المنصور بن يوسف الصنهاجي، ثم بنوه من بعده.

وفي سنة ٦٠٢ جاءت دولة الحفصيين وأولهم الشيخ عبد الواحد وكانوا مستقلين.

ثم انتقلت في سنة ٩٨١ إلى الدايات والبايات والبشوات من قبل الدولة العلية.

وفي سنة ١١١٧ إنتقلت إلى الحسينيين وأولهم حسين باشا التركي لغاية سنة ١١٥٣، ثم تولى إبن أخيه علي باشا لغاية سنة ١١٦٩. ثم تولى محمد بن حسين باشا بن علي باشا لغاية سنة ١١٧٢، ثم تولى أخوه علي باشا لغاية سنة ١١٩٦، ثم تولى إبنه حمودة باشا لغاية سنة ١٢١٩، ثم تولى أخوه عثمان باشا لغاية سنة ١٢٣٠، ثم تولى محمود باشا إبن محمد باشا.

وفي سنة ١٢٣٩ تولى إبنه حسين باشا.

وفي سنة ١٢٥١ تولى أخوه مصطفى باشا.

وفي سنة ١٢٥٢ تولى إبنه أحمد باشا.

وفي سنة ١٢٧١ تولى محمد باشا إبن حسين باشا .

وفي سنة ١٢٧٦ تولى أخوه محمد باشا الصادق الذي مكن الفرنساويين من الإحتلال في تونس كما سيأتي ، وكانوا يجتهدون بطرق التذلل للدولة لتوسيع التصرفات حتى صارت تونس ممتازة .

* * *

(أسباب إستيلاء الدولة العلية على تونس والجزائر)

إن الدولة الحفصية ضعف أمرها إلى أن استولى الطليانيون على تونس، فاستغاثت الأهالي بالدولة العلية، فأرسلت إجابة لذلك قوة أخرجت الطليانيين منها، واحتلتها محلهم لحد قروان كطلب أهاليها.

وكانت الجزائر استقلت فلم تتعرض لها الدولة، وكانت عاصمتها تلمسان. فكثرت فيها الحروب الأهلية، وخشيت الأهالي إستيلاء أسبانيا عليها، وفعلاً إستولت عليها. فحضر خير الدين باشا الجزائرلي المشهور المتقدّم ذكره في عصر السلطان سليمان الأول، وذهب إلى الأستانة، وكان هو حاكمها الأكبر وقتئذ، وتنازل للسلطان عنها. فأرسل السلطان مائة سفينة وجيشاً، فطرد الأسبانيين من الجزائر، وعاش هو والياً عليها من قبل السلطان.

ثم انقاد للدولة سائر أهاليها، وخطب للسلطان سليم الثاني إبن السلطان سليمان الأول من سنة ٩٨١. فما كان من حسن الحفصي آخر أمراء الحفصيين إلا أنه إستعان بأسبانيا، ووعدها بتمليكها سواحل تونس. فأعانته وحاربت حيدر باشا الذي لم يكن عنده غير ألف عسكري فلقلة عسكره، وكثرة عسكر عدوه، هرب كما سبق في حينه.

ثم أرسلت الدولة سنان باشا فأنقذها من الأسبانيين ومن حسن الحفصي. وعين لها حيدر باشا المذكور والياً ومعه العساكر الكافية. ومن بعده صار لها حاكمان يسميان بالباي والداي، فتزاحما وصار لكل واحد حزب، فوقع الإختلاف والحروب الأهلية بينهما حتى ملت الأهالي فقتلوا الباي والداي. وانتخبوا حسين بن علي التركي من الأوجاقيين كما تقدم، وذلك في سنة ١١١٧. واسترحموا من الدولة إعتماده والياً عليهم بدون شريك له. فقبلت الدولة وعينته وأنعم عليه برتبة باشا، وهو جد العائلة الموجودة هناك للآن. والأوجاقيون هم الضباط الأصاغر كاليوزباشا تقريباً.

فيعلم من ذلك أن أصل جد عائلة باي تونس هو ضابط صغير عثماني، وقد فوّضت له الدولة في الأمور عدا المعاهدات مع الأجانب والسياسة وما أشبه ذلك، لأن الدولة ما كانت تقصد خلاف راحة الأهالي كما قاله المرحوم السيد بيرم الخامس في كتابه صفوة الإعتبار.

ثم ظهر الفساد والعصيان بأسباب هذه التفويضات حتى أبطل السلطان محمود رحمه الله تعالى هذه العادة. والسبب الأعظم في ذلك هو تسبب حسن باشا والي الجزائر في دخولها تحت الدولة

الفرنساوية من سوء تصرفاته. وساعد باي تونس وقتئذ على ذلك بمنعه نزول القبودان باشا وعساكره المرسلين من الدولة في حلق الوادي لعزل الباشا والي الجزائر حتى لا تحتلها الفرنساويون في حلق الوادي الذي هو مينا بتونس، توهماً من الباي أن إحتلال عساكر الدول بتونس يمس ولايته. أو كان ذلك بدسائس فرنساوية. ومع ذلك لو كان مكن القبودان باشا من النزول في حلق الوادي لما ضاعت ولاية الجزائر التي انبنى عليها إحتلال فرنسا بتونس بعد خمسين سنة من غلط هذا الباي. ثم لعدم وجود أمر بيد القبودان من الدولة على أن ينزل في حلق الوادي بالقوة عاد للأستانة ليخبر السلطان بذلك.

وفي أثناء ذلك إحتل الفرنساويون الجزائر، فلما خاطبه الباب العالي في ذلك مستفهماً عن سبب منعه القبودان باشا من حلق الوادي لم يجد له سبيلاً للإجابة خلاف إرتكانه على لزوم كورنتينة.

ومن أغرب ما يذكر من غلطات حكام المسلمين حصول حرب ما بين والي تونس ووالي الجزائر في سنة ١٢٣٦ عند إشتعال نار فتنة اليونان بإغراء ومساعدات الدول، وإشتغال الدولة العلية بها مع حرج موقفها. فأرسلت رسولاً للتداخل في منع الحرب بينهما. وبالفعل أصلح ذات بينهما (فانظر ما حل بالقطرين من المصائب الحالية). فلما تعين حسين باشا والياً على تونس كطلب الأهالي فرضت عليها الدولة كما فرضت عليها في عقب إنقاذها من يد الطليانيين من إعانة الدولة بالسفن الحربية بلوازمها براً أو بحراً عند الحاجة وهدايا ترسل من الوالي عند ولايته، وعند جلوس السلاطين وعند وجود المناسبات، وأغلب الهدايا كانت من نتايج البلاد كالخيل الجياد، والحيوانات الغريبة، والمنسوجات الحريرية والصوفية، والأسلحة النفيسة المرصعة بالمرجان. واشترطت الدولة أيضاً على أن الخطبة باسم السلطان، والراية تكون من راية الدولة، والنقود باسم السلطان، والجبايات تكون على قدر حكومة تونس الداخلية والحربية فقط، لأن سنان باشا فاتح تونس لما رأى حالتها لم يشترط عليها وقتها خلاف ما ذكر.

وفي سنة ١١٨٤ حصلت نفرة بين فرنسا وعلي باشا باي تونس فجاء أسطول فرنسا إلى سواحل تونس، ورمى بعض الحصون. وبمصادفة وجود مندوب الدولة بتونس لطلب الإعانة الحربية لأن الدولة وقتها كانت في حرب مع دولتي الروسيا وأوستريا، فتداخل المندوب بين فرنسا وباي تونس، وأصلح ذات بينهما. فعاد أسطول فرنسا كما جاء وعادت العلاقات الحسنة كما كانت.

وفي سنة ١٢٥٥ طلب والي تونس أحمد باشا رتبة المشيرية فأنعم عليه بها وبنيشان.

وفي سنة ١٢٥٦ أمرت الدولة والي تونس بأعمال التنظيمات الخيرية على مقتضى فرمان (كولخانة)، فأجاب الوالي الطلب مبدئياً وطلب المهلة.

وفي سنة ١٢٥٨ ألحت عليه الدولة بالتنفيذ، فأرسل إليها رسولاً يطلب إمهاله أيضاً.

وفي سنة ١٢٦٣ كثرت الدسائس الأجنبية في تونس، فخاف الوالي من الدولة العلية توهماً من الوشايات الأجنبية. فاستشعرت الدولة بذلك فأرسلت إليه رسولاً لتأمينه من جميع ما توهم به، وبتأييده في ولايته لمدّة حياته مع إسقاط الأموال المقررة على تونس. ففرح الوالي (وهذا أحد إحتجاجات فرنسا لدى الدول على إستقلال تونس عندما أرادت إحتلالها). ثم التمس الوالي من الدولة جميع الإمتيازات، منها الولاية لآله من بعده.

وفي سنة ١٢٦٥ أرسل له عباس باشا والي مصر مكتوباً ودادياً ينصحه فيه بترك الأوهام، ويحذره من الدسائس الأجنبية. وقال له: إنه لما ذهب للأستانة نال من السلطان ومن رجال الدولة من الإكرام وحسن المعاملة ما يدهش الألباب مع أن أفعال جدّه محمد علي باشا وعمه إبراهيم باشا ضدّ الدولة معلومة. فالأحسن أنك تذهب معي إلى الأستانة، وترى ما تناله من الحظ الأوفر. فأجابه بأنه عبد للدولة، ولم يختلج بفكره شيء مما يتهم به خلاف تمسكه بالإمتيازات السابقة، (قاتل الله هذه الإمتيازات التي أولها إمتيازات وآخرها إجهاز). ثم أرسل إليه عباس باشا رسولاً من العلماء ومعه آخر من التجار ليفهماه أن الدولة تقصد من الإصلاحات والتنظيمات خيراً وجمع كلمة المسلمين، ولا بأس في إبقاء الإمتيازات. ومنها: عدم وجوب ذهاب الوالي إلى الأستانة.

وفي سنة ١٢٧٠ أرسل أحمد باشا والي تونس المذكور أربعة عشر ألف عسكري وفرقاطة شراعية وستة سفن إعانة للدولة في حرب قريم.

وفي سنة ١٢٨١ أرسلت الدولة حيدر أفندي رسولاً للنظر في الثورة العامة التي حصلت في تونس. وأرسلت أيضاً مليوناً ونصفاً من الفرنكات إعانة لتونس من الضيق المالي، فسكنت الثورة. ثم حصلت من الأهالي ثورة عامة وشكوا للدولة من الظلم، فذهب حيدر أفندي بالأسطول العثماني، وأرسلت الدول أساطيلهم، فطلب الأهالي تداخل الدولة العلية بواسطة مندوبها لإصلاح داخلية البلاد، وطلبوا إنضمامهم فعلاً للدولة ورفعوا علم الدولة في أماكنهم.

فحينئذ تداخلت الدول كل على حسب غرضه. فأثرت الحالة على الوالي ووزيره، واستقر الرأي على إرسال شكر للدولة على ما فعلته، والرجاء منها بإرسال فرمان بروابط الإمتيازات بما لم يبق معه مقال يقال. وكان هذا الرأي مملوءاً بالدسائس الأجنبية، ظاهره كما يرى وباطنه كان أساساً لدخول القطر تحت نفوذ الدول الأجنبية. فأرسل الوالي خير الدين باشا الشهير للأستانة بطلب ترك المال، وزيادة الإمتيازات. فذهب وعرض ذلك على الصدر الأعظم فؤاد باشا الشهير. وبعد إجتماعات كثيرة بين الوزراء بالأستانة، تقرر ما مضمونه: إن الصدر الأعظم سيرسل قريباً للوالي فرماناً كما يطلب.

ثم إن السلطان عبد العزيز رحمه الله تعالى قال لخير الدين باشا إني أحترم والي تونس، ولكني متأسف جداً من تصرفاته السيئة التي أهوت بالقطر إلى الخراب والتفليس على غير عذر. فعاد خير الدين باشا.

وفي سنة ١٢٨٨ ظنت إيطاليا أن الفرصة مناسبة لتداخلها في أمر تونس حيث أن فرنسا وألمانيا في حربها، وأن الدولة العلية بعيدة عن تونس، ولوجود لجنة إيطالية بها. وأخفى الباي أغلب الأمور المهمة على الدولة العلية. وكان مصطفى باشا الخيزندار وزير تونس أجر أرضاً واسعة إلى لجنة إيطالية، فأوسعت اللجنة الإمتيازات والحدود. فأرسل الوزير المذكور أحد أعوانه ربما للتسبب في فسخ الإيجار، فادعت اللجنة حصول خسائر لها من تعدي تابع الوزير الذي امتنع من تحمل شيء من ذلك. ففرحت إيطاليا بهذا المشكل، وأمرت قنصلها بقطع العلائق، وتهديد الوالي. ثم جهزت أسطولها للإستيلاء على تونس. فاستشعرت الدولة العلية بذلك، وتداخلت ومنعتها، وانتهى الأمر بدفع تعويض الخسائر بعد ثبوتها، وذلك بناء على أمر الدولة العلية.

ثم إن الدولة أخرت إرسال الفرمان للباي لهذا السبب. فكتب الباي إلى الأستانة بإستعجاله، وكتب خير الدين باشا أيضاً للباب العالي ما مضمونه إن القطر التونسي في خطر، وإن لم تتداركه الدولة تسوء العاقبة. فورد جواب من علي باشا الصدر الأعظم بأن نازلة الفرمان تقضي بإرسال معتمد من قبل والي تونس للتفاهم في النازلة، مع تلميح باستقباح سير الوالي. ففهم أن الدولة غير راضية بأن يبقى الفرمان على مكتوب الصدر السابق. فوجه خير الدين باشا ثانياً بالتفويض، وكان الصدر الأعظم يومئذ هو محمود نديم باشا، فأحضر الفرمان والنيشان المجيدي المرصع. فلما عاد إلى تونس أرسل الوالي لاستقباله مصطفى بن إسماعيل أمير أمراء المقربين إليه، وعقد موكباً إلى خير الدين باشا.

أما مضمون الفرمان بالإختصار فهو: المشير المفخم الحائز للنيشان المجيدي الشريف مع النيشان الهمايوني المرصع وزيري محمد صادق باشا أدام الله اجلاله آمين.

ليكن معلوماً أن الإيالة التونسية التي هي من ممالك دولتنا العلية المتوارثة التي عهدتك كما وجهت سابقاً إلى عهدة أسلافك لم تزل تظهر حسن السيرة، وتنهي إلى طرفنا خلوص النية. فمأمولنا السلطاني هو على مقتضى الشيم المرضية التي جبلت عليها هو الدوام في ذلك المسلك المرضي. ولما كان المقصود الأصلي والمراد القطعي لسلطنتنا السنية هو إرتقاء طمأنينة الإيالة الراجع لدولتنا عمرانها، والراحة لسكانها، ولتمام الإستحصال على هذه المطالب، وما ورد بها أخيراً بكتابك الملتمسين به من جانب الخلافة العلية، قررت وأبقيت أيالة تونس المحدودة بحدودها القديمة المعلومة بضم إمتياز الوراثة وبالشروط الآتية.

وحيث أن مرغوبنا السلطاني على ما تقدّم بيانه هو تزايد عمران تلك الحكومة، وراحة الأهالي، قد سمحت السلطنة السنية بعدم إرسال ما كان يرسل بإسم معلوم من الأيالة لطرف دولتنا العلية بموجب التبعية المقررة لمملكتنا الملوكية. وصدرت إرادتنا السنية بأن يكون والي تونس مرخصاً له في تولية المناصب الشرعية والعسكرية والملكية والمالية لمن يكون متأهلاً لها، وفي العزل عنها بمقتضى قوانين العدل، وفي إجراء المعاملات المعلومة مع الدول الأجنبية كما كان سابقاً، فيما عدا المواد البوليتيكية العائدة إلى حقوقنا المقدسة الملوكية، وتعني بها ما كان كعقد الشروط المتعلقة بأصول السياسة والحرب وتغيير الحدود ونحوها، مما يكون إجراؤه من حقوق سلطنتنا السنية. وعند حلول القدر المحتوم في الولاية وتقديم المفروض لطلب الفرمان الشريف من الوارث الأكبر من عائلتك لطرف سلطنتنا السنية يرسل الفرمان مع منشور الوزراء والمشيرية الهمايوني كما الجاري للآن، بشرط أن تستمر الخطبة بإسمنا السلطاني، وتزين السكة التي تضرب علامة علنية للإرتباط القديم الشرعي لأيالة تونس لمقام الخلافة، وأن يبقى السنجق على لونه وشكله. ومهما وقع من حرب لدولتنا مع أجنبي يرسل عسكر عن تلك الأيالة الشهانية بقدر الإستطاعة طبق ما جرت به العادة القديمة في الجميع. ومع تلك المواد يكون أمر الولاية بطريق الوراثة لعائلتك على أن تبقى سائر المعاملات الارتباطية مع دولتنا العلية جارية مرعية كما كانت سابقاً، وأن تجرى الإدارة الداخلية لتلك الأيالة مطابقة للشرع الشريف، وقوانين العدل التي يقتضيها الوقت والحال، الكافلة بتأمين السكان في النفس والمال والعرض.

فإعلاناً بما ذكر صدر هذا الفرمان الجليل من ديواننا الهمايوني، وأرسل موشحاً أعلاه بخطنا

السلطاني، فخلاصة نياتنا السلطانية إنما هي إصلاح حال تلك الأيالة المهمة المودعة بعهدة صداقتكم وبآل بيتكم لسعادة ورفاهية تبعيتنا، المستظلين بظل عدلنا السلطاني، مع تمام المحافظة على حقوق سلطتنا المحققة بتونس من قديم الزمان، فيلزم الإهتمام بإجراء هذه الشروط المؤسسة. إنتهى في ٩ شعبان سنة ١٢٨٨.

ولما قرأ هذا الفرمان حصل لعموم الأهالي أفراح خارقة للعادة في الحاضرة وفي سائر البلاد وقبائل العربان، ودامت الزينات مدّة ثلاثة شهور متوالية. والسبب في ذلك ما يتعلق بالوالي من إستقرار أمره على أساس متين له ولعائلته، طالما سعى من كان قبله ولم يتحصل عليه. وأما فرح الأهالي فلحصول مرغوبهم من تمام الإتصال بالدولة العلية الإسلامية مع شروط الأمن وحسن الإدارة فيها.

ولم ينكر أحد من القناصل هذا الفرمان، ولم يعارض أحد من الدول، لأن الدولة لم تقصد من هذا الفرمان الأخير الوالي تونس وللأمة التونسية، ولكن جاء الأمر بالعكس من جهل وعدم إخلاص الوالي ووزرائه. حيث إنهم إستناداً على هذا الفرمان إتسعوا في أمور الإمتيازات مع جهلهم بأمور السياسة، خصوصاً مع فرنسا وإيطاليا. وكانوا يخفون أغلب الأمور المضرة بهم على الدولة العلية، حتى نتج من ذلك إحتلال فرنسا فيها.

ومن ضمن أسبابه غفلة الوالي وسماعه الدسائس الأجنبية في إزعاج نفس خير الدين باشا الوزير الشهير الذي صارت تونس بسياسته في مدّة وجيزة بحالته من الإصلاح يحسدها العدو عليها حتى استعفى، وتعين بدله مصطفى بن إسماعيل الذي نشأ في معية الوالي ومن أتباعه، وكان مغرماً بالتجمل بالملابس الفاخرة، حتى كان في أصابعه جملة خواتم، وعلى صدره مجوهرات كثيرة، وسلسلة ساعته كانت مجوهرة.

ومن أسباب الإحتلال أيضاً مادة المسيو ديسانيس الفرنساوي الذي أخذ من حكومة تونس أربعمائة ماشية [١] أرض قابلة للزراعة والسقي لتربية المواشي فيها من خيل وبقر وغنم، وليس للحكومة شيء في ذلك. فحصل خلاف بينه وبين الحكومة، فتداخل قنصل فرنسا في الأمر، وبواسطته منع المذكور دخول أحد من رجال الحكومة في الأرض المذكورة. فأرسل الوزير المذكور

(١) الماشية الواحدة تسعة آلاف وستمائة ذراع تقريباً.

رجالاً فمنعهم القنصل. ثم طلب من الحكومة أربعة مواد الترضية وألقى المسؤولية على من تسبب في النازلة، وعقد مجلس مختلط للنظر في طلب المسيو ديسانسي، والرابع الجواب عن ذلك في ظرف يومين. وقد شاع بإيعاز منه على أن الغرض من إلقاء المسؤولية على المتسبب هو عزل الوزير. فاضطربت أحوال الوالي والوزير واشتد خوفهما، ولم يعلما الدولة العلية بالمسألة. ثم ترجى القنصل بصرف النظر عن الوزير، وإجابة باقي الطلبات، ويضاف إلى ذلك عزل الكاتب الذي ذهب للأرض، فكتب الوالي تلغرافاً لناظر خارجية فرنسا بإرسال رسول إليه ليتكلم معه في المسألة، فأجيب بواسطة القنصل بأنه لا فائدة في ذلك، وأن القنصل معتمد لدى فرنسا فأجاب الوالي بالقبول. ونزل الوزير إبن إسماعيل فزار القنصل وهو بملابسه الرسمية وأعطاه الترضية.

ثم عقد مجلس برئاسة واحد فرنساوي، وكانت النتيجة ظهور الحق بيد المسيو ديسانسي ضد الحكومة. ثم طلب أحد الفرنساويين مد سلك كهربائي فأجيب وكذلك سمح الباي لفرنسا بإتصال السكة الحديدية الجزائرية بتونس.

ومن المتممات لأسباب إحتلال فرنسا أن الوزير إبن إسماعيل سعى في إبدال القنصل، ثم غير مشربه، حتى طمع في ولاية العهد بأن يتولى بعد سيده الوالي الحالي محمد صادق باشا إذا أتم إدخال تونس طوعاً تحت فرنسا. فأحكم مع القنصل المودة حتى قيل: إن بطانة الوزير تأتي إليه معلمة له بجميع أسرار الحكومة وسائر تصرفاتها حتى إتفق الوزير مع القنصل على شروط إدخال تونس تحت فرنسا. غير أن الوالي لم يسعف بالإجابة على تلك الشروط التي قدمها الوزير له سراً خوفاً من الدول ومن الأهالي، لئلا يخبر أحدهم الدولة العلية. فجعل الوالي يسوف العقد من وقت إلى آخر، وجعل الوزير يسعى في إحداث وجه لتداخل فرنسا. فأرسل سراً الرسل للأستانة يلتمسون أن تطلب الدولة رسمياً أو ترسل الأسطول العثماني إلى ميناء تونس، فلم يسعف السلطان إلى طلبه الأعوج وقيل: إنه أساء معاملة إيطاليا لإجبارها على إعلان الحرب على تونس ليطلب من فرنسا الحماية ولم ينجح فيه. ثم أظهر الإستخفاف بقنصل فرنسا ظاهراً، ومال عنه كل الميل، فكتبت رعايا فرنسا لدولتهم بأن حقوقهم في تونس ضائعة وطلبوا الإنتصاف. وإذا بفرنسا قد أتت بخيلها ورجلها إلى حدود تونس معلنة بأن قصدها حفظ حقوقها في جهة الحدود وغيرها. (وهذه الأقوال هي العادية من الدول التي تريد أخذ بلاد الغير أو الإحتلال فيها).

واستفتت فرنسا على هذا العمل بما حرره ناظر خارجيتها إلى سفرائها لدى الدول في ٩ مارس سنة ١٨٨١ ما ملخصه: أيها السيد، أتشرف بأن أرسل لكم جملة رسائل في شأن تونس، وأريد أن

أحقق لكم المقصد إجمالاً، ونخبركم عن سبب إرسال العساكر الآن، وعن النتيجة التي نرجوها. فكم من مرة عرفت الدولة الجمهورية مقاصدها، وأنتم تذكرون ذلك. خصوصاً ما صرح به السيد رئيس الوزراة في المجلس العام، وهو لا يمكن أن يكون فيه أدنى شك من صدقه ومع هذا فإني أريد زيادة الإيضاح لينفعكم لدى الدولة التي أنتم عندها. فتقول: إن سياسة فرنسا في تونس ليس لها إلا مقصد واحد وهو الذي يوضح سريرتنا منذ خمسين سنة، الواجب علينا لحفظ وراحة مستعمراتنا العظمى الجزائرية، (يفهم من هذا أن مقصد فرنسا موجه نحو الإستيلاء على تونس من قبل هذا بخمسين سنة أي من يوم إحتلالها الجزائر). فمن سنة ١٨٣٠ لم تأت دولة من الدول المتتابعة على إنكار مستعمراتنا الإفريقية، وإننا لنعمل الواجب علينا لحفظها من جار عدو أو كثير الأراجيف. وقد كانت القبائل التونسية مخوفين ومحاربين حتى فيما بينهم، وقد فاق على الجميع قبائل وستانة الفراشيش وخمير، ولا تعرف كمية المحاربين، ولا كمية قوتهم. فلذلك إلتزمنا الآن أن نرسل من العساكر عشرين ألفاً. وكان الداعي الأول لإرسال العساكر قهر قبائل حدودنا الشرقية، ولكن لا فائدة في تقرير الأمن والراحة، وأعداؤنا لا يزالون يهددوننا ونحن لا نخاف من الهجوم المنسوب لباي تونس إذا كان منه وحده، لكن نظر القليل في العواقب ألزمنا التحري من إتحاده مع غيره، وهذه تشويشات يمكن أن يأتي لها وقت وتقلقنا كثيراً في الجزائر، وتصل حتى إلى فرنسا. فيلزمنا بناء على ما ذكر أن يكون لنا عند الباي محبة كبيرة وإتفاق قلبي، ويلزمنا جار يعوضنا المحبة التي لنا عليه، ولا يسمع التشويشات الخارجية لضررنا وإستحقار قوتنا الراسخة. ونحن نحترم بالتدقيق منافع الأجانب، وهم يقدرون أن يتوسعوا بثبات مع فوائدنا، والدول يتحققون من أن مقاصدنا من جهتهم لا تتغير وإلى هاته المدة الأخيرة إتحادنا مع دولة الباي المفخم مستمر إلا ما يحدث أحياناً من الإختلاف في دفع تعويضات لقبائلنا المضرورين. ثم في الحين يرجع الإتحاد ويزداد ثبوتاً إلا هاته المدة الأخيرة فإنه بأسباب يصعب الإطلاع عليها قد تغير ميل الدولة التونسية الينا دفعة واحدة، وهذا الحال هو السبب الثاني لإرسال العساكر التي كنا نود التجنب منه. ولكن بسبب السترة الرديئة التي طالما صبرنا عليها ألزمتنا بما هو واقع، لأننا نعترف أن تونس كمملكة مستقلة. وأما الحالة في المخالطة الآن مع الباب العالي فهي مخالطة محبة وميل طبيعي، وبودنا لو كنا رأينا نازلة تونس في منظر آخر غير الذي هي عليه الآن. ولكن قد بان ما يجب علينا مما ذكرناه سابقاً، وأننا نقدر أن نستفهم من الباب العالي إذا كان باي تونس هو والي من قبلهم، فلماذا لم يمنعوا سيرته التي فعلها نحو فرنسا منذ عامين: (ومن العجيب أن فرنسا لا تريد في نفس الأمر أن يطلع الباب العالي على أمور تونس، وكثيراً ما كانت تظهر للباي عدم إرتباطه

بالباب العالي. والأغرب أن فرنسا لم تشتك من باي تونس للباب العالي ولا بخبر بسيط، فبذا إفتراء فرنسا ظاهر. قاتل الله الأغراض السيئة). ولماذا لم يفتشوا ليمنع التحيز الموجود الآن الذي نحن مجتهدون أن ينتهي بشروط تؤمن حدودنا من الهرج المستمر والتشويش المغري البارد ولا نخاف عندما نقول ان لنا في أوربا الرضا العام في جميع الجهات، عدا الجهات التي بها النظر الفارغ المطمس للعقول.

وهذه هي أيها السيد التي خيمت حول الباب وحول تونس، وفي كلا الطرفين فنحن مشمولون بالمحبة. وجميع ما نرجو من الباي هو أن لا يكون عدواً لنا، ولو أن المملكة تنظر لفوائدها فتقدر أن تتحصل من إتحادها معنا على فوائد لا تحصى أكثر مما نحصله نحن منها (فتأملوا) من هذا ونقدر أن نأتي لها بكل خير من المعان الحاصل عندنا.

ففي سنة ١٨٤٧ فعلنا فيها البريد.

وفي سنة ١٨٥٩ وسنة ١٨٦١ فعلنا التلغراف.

وفي سنة ١٨٧٧ وسنة ١٨٧٨ فعلنا السكة الحديدية بطول خمسين فرسخاً من حدود الجزائر.

وفي هذا الزمان تفعل بها سكتين حديديتين.

إحداهما لتربط تونس بإبن زرت [١] من جهة الشمال وطولها عشرون فرسخاً.

والأخرى تربط تونس بالسوسة من جهة الجنوب (يا ليتها لم تفعل شيء من ذلك حيث أنها سموم قاتلة).

وسنبتدي عن قريب في إبتداء عمل مرسى في نفس تونس لتدخل المراكب (الفرنساوية طبعاً) من الشط، ومن حلق الوادي إلى ذات القاعدة. وإن الحناية الجميلة التي تأتي بالمياء العذبة إلى تونس قد أصلحها أحد المهندسين الفرنساويين. ولما ترجع الخلطة الطيبة فإنا لا نزال نفعل أشياء حسنة، ومنارات على الشطوط، وطرقاً داخلية توصل بين البلدان، ونسقي الأرض بالترع الكبيرة في البلاد التي بها أنهر كثيرة ولكن هاته البلاد أهلها ليسوا معتنين بتلك الأنهر، وكذلك الغابات، وكذلك نعمل إستخراج المقاطع الموجود بها كل نوع من المعادن، وكذلك ترتيب الفلاحة في الأراضي الحسنة.

(١) مينا بتونس.

وبالجملة إن مملكة تونس خصبة وغنا قرطاجنة القديمة يدل على ذلك. وتحت الحماية الفرنساوية يمكن أن تزال جميع الحجب عن المنافع الطبيعية في هاته البلاد، ونقدر أن نزيد أشياء أخرى وهي أنه إذا كان الباي يعتمد علينا في الترتيب الداخلي في المملكة، فإنا نفعل الخير الذي يسهل علينا عمله. منه ترتيب كيفية قبض الإيرادات والمصروفات ودفاتر الحسابات على مقتضى ما نستعمله نحن في ماليتنا. ومنه أيضاً خير عظيم: وهو ترتيب العدلية على الأصول التي فعلتها الدول في ترتيب العدلية في مصر. وفائدة هاته التراتيب لا ترجع إلى فرنسا وحدها، بل للمملكة ولجميع الدول المتمدنة التي نحن منها. (وأين التمدن مع هذا النهب). فلا يمنعنا شيء من عملنا في تونس مثل الذي فعلناه في جزائرنا، والذي فعلته إنجلترا في الهند، إذا نحن جعلنا باي تونس متكفلاً بمطالبنا الحقانية فهو الدليل على ما نحسبه دائماً من أن تونس مملكة مستقلة من غير أن نراعي بعض آثار للتبعية بالإسم فقط لبعض أسياد قد تركوها مدة قرون. (فانظروا أيها الأمراء العرب ومن على شاكلتهم كيف تفسر الدول الطامعة في بلادكم تفويضات الدولة العلية، وتوسيع إمتيازات بعض الممالك الإسلامية بقصد زيادة العمران وراحة الأهالي. فكلما اشتد الإرتباط بين الممالك الإسلامية وبين الدولة العلية قوي الحفظ من الإغتيال والعكس بالعكس).

وقد تظهر تلك التبعية نادراً ولو تحسب المدة التي هي فيها مستقلة لكانت أكثر من مدة التبعية.

ففي سنة ١٥٣٤ أخذها المشهور بباربوروس خير الدين أربع أو خمس مرات بانتصاره على إسبانيول.

وفي العام الذي بعده أخذها شارلكين، وكذلك في سنة ١٥٥٣.

ثم أخذها داي الجزائر في سنة ١٥٧٠.

ثم أخذها الدونجوان النمساوي في سنة ١٥٧٣.

ثم في طول القرن السابع عشر كانت تحت ظل الإنكشارية من غير حكم، (فانظروا المغالطة بجعل الدولة العلية وحكمها فيها ينسب للإنكشارية)، ورؤساهم الموسومون بالدايات كانوا إذ ذاك أربعين، فقسموها تقريباً كالمماليك الذين قسموا مصر.

ثم في سنة ١٧٠٥ كان أحدهم المسمى بحسين بن علي، الذي أصله كريكي أو كرسكي صار مسلماً وكان هو أحذقهم، فعرف كيف يستميلهم وقتل جميعهم واشتهر بالباي وبعصيان العساكر أقام العائلة الحسينية.

ومن ذلك الوقت لم تزل الإمارة فيهم على هيئة السيادة الإسلامية، ولهم الآن مائتا سنة تقريباً وهو مستقلون. والرابطة الحقيقية بينهم وبين الباب العالي هي رابطة دينية، وهم يعترفون بالخليفة إلا أنهم ليسوا تحت السلطان.

ومما يوضح هذا أنهم لا يدفعون له أداء إلا عند ولاية كل باي يرسل هدية تعظيماً لرئيس الديانة القاطن بالقسطنطينية (ما أعجب هذه التفسيرات الخداعية). وفي باقي مدّة الولاية فلا مسألة سياسية يمكن أن تذكر غير هاته التحية الودادية. فليس لأمير المؤمنين حق آخر على باي تونس. والمملكة تعقد شروطاً كدولة مستقلة مع دول الأجانب، وتعقد معهم إتفاقات برضاء الباي فقط.

وعلى هذا النمط وقعت معاهدة مع فرنسا في سنة ١٧٤٢، وكذلك في العام الثالث والعاشر، وفي سنة ١٨٢٤.

وهكذا صارت المعاهدة [١] المهمة في ٨ أغسطس سنة ١٨٣٠ التي تمنع ملك العبيد والتلصص في البحر. ولا يلزم التكلم على المعاهدات الباقية كالتي في شأن صيد المرجان. وإن الباب العالي لا يحكم على الولاية إلا حكماً وقتياً وهو راض باستقلالها.

ومما يؤيد هذا أنه في القرن الثامن عشر لم يقبل تشكي دول أوروبا من التلصص البحري والسعي البربري، وليس له حكم عليهم، وهو ليس مولاهم، وهو لم يضمن السرقات التي فعلوها مخلة بتجارة البحر المتوسط. وإن دول أوروبا عملوا الحرب عشرين مرة مع المملكة من غير عقد الحرب مع تركيا.

وفي سنة ١٨١٩ كانت معاهدة إكس لاشبيل حكمت على تونس بمنع التلصص البحري من غير أن يطلب من الباب العالي التداخل على أنه متسيد على تونس.

وفي سنة ١٨٣٣ حاربت مملكتا ساردنيا ونابلي تونس من غير أن تحاربا العالي لأنهما يريان مثل ما نرى أن تونس مستقلة. ثم إن علاقة تونس مع فرنسا وقت أخذ الجزائر على النحو السابق مع واسطة تركيا. ولما قدم إلينا أحمد باي في سنة ١٨٤٣ قوبل بكل ما يلزم من التعظيم للمملوك،

---

(١) لم تكن الولاية التونسية مأذونة من الباب العالي بإجراء المعاهدات مع الدول، ولا التداخل في السياسة. فإذا كانت هذه المعاهدات حقيقية تكون من باب الخيانة. وهكذا الأمراء يغلطون.

والباب العالي لم يتوجع إذ ذاك من علمنا التعظيم الملوكي. وكذلك جميع أوروبا لم تلم على ذلك لأن رأيها موافق لرأي اللورد أيردين الذي يقول في تسجيله ضد أخذنا الجزائر المكتتب بتاريخ ٢٣ مارس سنة ١٨٣١ إن الدول الأوروباوية يفعلون من مدّة طويلة المعاهدات مع الدول البربرية مثل الدول المستقلين وخصوصاً تونس، فإنها لا تحسب نفسها إلا حرة.

والدليل الواضح الحق التي لا ينكره أحد هو عمل القوانين في تونس المسماة بويورلدي، وحلف عليها الباي الموجود بتونس محمد الصادق لما جلس على الكرسي في ٢٣ أيلول سنة ١٨٥٩ مثل ما حلف أسلافه، فإن قانوناً واحداً منها وهو المسمى بالقانون النظامي لمملكة تونس قد إحتوى على مائة وأربع عشرة مادة، وانتشر بالعربي والفرنساوي في تونس. ولم يصرح فيه ولا بكلمة واحدة تقول السلطان.

ومما لا يقدر أن يشك أحد معه في إستقلال الباي ما نشر في الصحيفة الرابعة من المقدّمة في ذلك القانون ونصه: إن الموظفين الكبار التونسيين إختاروه بكلمة واحدة ليكون رئيس الدولة على مقتضى قانون الوراثة المعروف في المملكة. وفي ذلك القانون فصول تامة شرحت الحقوق والواجبات للملك، وحالة الأمراء من العائلة الحسينية، وحقوق واجبات الرعايا، وكيفية خدمة الوزراء، وترتيب خدمتهم، والمجلس الكبير بالمملكة، والمداخيل والحساب، ولا شك أن من يطلع عليها يجد ذلك البيان. ومع هذا فهو دليل واضح على إستقلال مملكة تونس، وجميع المعاهدات التي بين الدول وبين تونس منذ الثلاثة قرون الأخيرة لم تقل إلا مملكة تونس وملك تونس، ومنها خمسة عشر أو عشرون معاهدة أمضيت من فرنسا فيها ذلك القول. (وليس هذا بعجيب لان فرنسا من منذ خمسين سنة تعمل الأمور المسهلة لإستيلائها على تونس. فكل هذه المعاني والألفاظ في المعاهدات هي وضع يدها، لتتخذها حجة لها عند الفرصة كما هو الحاصل. وإنما عدم إدراك الباي ووزراؤه معنى هذه الدقائق، وفرح الوالي بإسم الملك الفارغ مما يعار عليهم وعلى أمثالهم).

وأيضاً المعاهدة التي وقعت مع إيطاليا في سنة ١٨٦٨ مذكور فيها مملكة تونس.

فبناء على ما تبين من الأدلة القطعية المتعدّدة فالباب العالي لا يقدر أن يتعجب من إنكار فرنسا لسيادته على تونس.

وفي سنة ١٨٣٥ أدخل تحت سيادته طرابلس، وأراد أن يعمم سيادته على تونس فرأى قوّة فرنسا المضادة له منعته من مقصده.

وفي سنة ١٨٤٥ أتى مابينجي السلطان إلى تونس، ومعه فرمان ليقلد الباي منصب الولاية، إلا أنه لم يقبل منه.

ثم مضت عشرون سنة من غير تجربة جديدة. لكن في أواخر سنة ١٨٦٤ رجعت التتميمات القديمة، وإنما هاته المرة كانت المملكة بنفسها هي التي طلبت التقليد، ولكن هذا كان من الغريب إذ وقع من الأمير الذي هو حتى لذاك الوقت بعينه وهو يظهر المدافعة عن إستقلاله، وهذا إنما كان من الإشارات القوية التي خوفت الباي من حالته أمام الباب العالي فأرسل-لذلك أمير الأمراء خير الدين إلى القسطنطينية ليعرض ويأتي بالفرمان، وهاته المرة أيضاً عارضت فرنسا في ذلك. وعوضاً عن الفرمان السلطاني، فالباي ومستشاروه إلتزموا بالرضاء بمكتوب وزيري متضمن ما في الفرمان.

ثم اغتنم الفرصة وقت مصيبتنا في سنة ١٨٧١، وتمموا ما كانوا ممنوعين منه. سواء كان في مدّة لوي فيلب الذي كان في الغالب أسطوله يمنع الأسطول التركي من القدوم إلى تونس في مدّة الأمبراطور الذي لم يقلل من العزم المشار إليه.

وفرمان ١٥ تشرين أول سنة ١٨٧١ الذي اتخذوه تحت ظل مصيبتنا إنتشر في ١٧ تشرين الثاني في باريط على يد خير الدين باشا بإسم السلطان، وقبله الباي الذي كان طلبوه له مع عدم الإرتياح.

فرنسا على كل حال سجلت بقوة، وحسبت الفرمان باطلاً، وكأنه لم يقع، ومن مدّة عشر سنين لم تبطل شيء من عملها عندما يقتضي الحال. ومع نجاح الباب العالي هو بنفسه له شك في إجراء حق فرمان بتاريخ سنة ١٨٧١ الذي ضرب إستقلال مملكة تونس المتقادم. وهذا الفرمان إنتشر قليلاً على أنه عند الغالب لا يعرف، ما عدا بعض الدول التي لها فوائد، تأولوا في ترتيب الفرمان المذكور بأن تونس تكون جزء تحت يد الباب العالي مع أن حكم باي تونس باق كما كان يعرف من منذ مئتي سنة. غير أن الباي صار والياً أي والياً عاماً على إيالة تونس.

وعلى موجب ذلك فالوراثة في الحقيقة لم تكن مستمرة في العائلة الحسينية، خلافاً لما ذكره الفرمان. بل الوالي يعزل بإرادة السلطان. ومن الممكن أن يعرف الباي ضرره وضرر ملكه وحريته وحياته التي هي غلطة كبيرة حسبما أشاروا عليه بها. ومحمد الصادق ليس له خوف من جهة فرنسا،

ولو مع ما عمل من الشر معها. ومع هذا فهي ليست ضده، لا لذريته ولا لذاته ولا لدولته. ومن جهة الباب العالي فهو بالعكس، وله الخوف الكبير منه لأنه يمكن أن يبدله بحسب الحال. إنتهت.

وإذا تأملها المتبصر وتدبر معانيها يجدها مخالفة للواقع، سيا في بعض الأحوال التاريخية، كما يتبين من مقابلة ما ذكر في تاريخ تونس وسياستها وصلتها مع الدولة العلية من المكاتبات الرسمية التي تكررت، حتى من موظفي فرنسا. ويؤكد ذلك أيضاً في لوائح الباب العالي ولائحته الأخيرة. فإن الحالة لما بلغت الدرجة الأخيرة تظاهر والي تونس بأن أرسل للباب العالي مكاتبات بالتشكي من فرنسا، وأرسل إلى نواب الدول تسجيلاً على ذلك أيضاً.

ولما تحقق الباب العالي الأحوال رسمياً، أرسل عدة لوايح إلى سفرائه محتجاً لدى الدول بالمحافظة على المعاهدات، وبالأخص معاهدتي باريس وبرلين الوارد فيهما أملاك الباب العالي، وعدم جواز مسها.

وأخيراً أرسل وزير خارجية العثمانية إلى سفراء الدولة مما يوضح فيها مقاصد الدولة. وملخصها كما يأتي:

في عشرة مارس سنة ١٨٨١ بالقسطنطينية إن إعلاماتي المختلفة عرفت فطانتكم الوقائع التي صارت في المسألة التونسية. وقد نسبت لبعض القبائل البدويين بجهة الجزائر بالهجوم. فالحكام التونسيون أعلنوا بأنهم حاضرون ليضبطوا من غير تراخ. فالدولة الفرنساوية حكمت بأن يلزمها إرسال عدد وافر من العساكر الذين قد استولوا على جزء عظيم من الولاية، ولم يبعدوا عن المركز إلا ببعض فراسخ. فمن غير إلتفات إلى ما كنا أكدنا به على حضرة الباشا [1] ليأخذ التدابير اللازمه لتمهيد الراحة في المواضع الثائرة، فدولة الجمهورية لا تريد أن تنظر المخالطة الإقترانية بتونس مع السلطنة العثمانية التي هي محسوبة جزءاً متمماً للسلطنة المذكورة. على أن سيادة السلطان التي ليس فيها خلاف على هذه الولاية وهي سيادة لا تنكرها أي دولة من الدول عموماً، وهذا الحق بقي للآن صحيحاً، ولم ينقطع من زمن فتحها في سنة ١٥٣٤ ميلادية بخير الدين باشا.

وفي سنة ١٥٧٤ بقليج علي باشا وسنان باشا، وكانت الدولة العليّة أرسلت إلى تلك المواضع قوة عظيمة براً وبحراً، ومن زمن ذاك الفتح فالتأسيسات التي فعلها الباب العالي هي أن جميع ولاة تونس يتوارثون الولاية من ذرية الوالي الأول المسمى من السلطان، ويتقلدون إلى الآن المنصب

(١) يقصد به باي تونس.

منه، وفرمانات الولاية تبقى في خزنة الديوان. وكذلك جميع المكاتبات التي تأتي منهم للباب العالي فإنها تارة تكون في شأن مخالطتهم مع الدول الأوروباوية، وتارة تكون في شأن أحوالهم الداخلية، والتي لهاته المدّة الأخيرة، فإن الباب العالي من إستحفاظه على حقوقه زيادة على كونه يسمي الوالي العام فإنه يرسل من القسطنطينية إلى تونس قاضياً وباشكاتب الولاية. ولم يكن إلا من ترحم الدولة العلية أن منحت الوالي أن يسمي هو بنفسه هذين الموظفين. وأيضاً فاتباعاً لمذهب وخصوصية سيادة السلطان، فإن الخطب يذكر فيها إسم جلالته، ويضرب على السكة أيضاً، وفي وقت الحرب ترسل تونس الإعانة إلى التخت، وعلى حسب العادة القديمة يأتي للقسطنطينية دائماً أناس رسميون ليقدّمون تعظيمات الوالي وخضوعه لأعتاب السلطنة، وليقبلوا أيضاً الإذن اللازم من الباب العالي لأمور عظيمة في الولاية.

ثم إن الباشا الموجود الآن والتونسيون طلبوا زيادة في التفضل، وأعطى ذلك لحضرته السنية بالفرمان المؤرخ في سنة ١٨٧١ وتعرف به جميع الدول. والآن قد استغاث الوالي بسيده الحق ليعينه على الحالة الرديئة التي وقعت فيها تونس الآن، وهاته الأشياء التحقيقية لا ينكرها أحد. فهل تريدون أن تعرفوا الآن تقريرها بالتاريخ وبالمكاتبات الرسمية هو سهل، لكن نقتصر على المهم منها، لئلا يطول الكلام في هذا التلغراف. ففي المعاهدات القديمة التي بين تركيا وفرنسا تعدد ألقاب الحضرة السلطانية، ويكون منها لقب سلطان تونس. فانظر مثلاً معاهدة ١٠ صفر سنة ١٠٨٤ هجرية، وسنة ١٦٦٨ ميلادية. وفي هاته المعاهدات أيضاً يوجد بأن كل المعاهدات التي بين الدولتين تجري أيضاً لفظ تونس.

وفي نصف القرن السابع عشر أي في ١٥ صفر سنة ١١٦٦ أرسل السلطان فرماناً للباي والحاكم الكبير بالولاية في رضا الباب العالي بأن قنصل فرنسا يجمع خدمات قناصل الدول الذين لم يكن لهم إذ ذاك نواب بالقسطنطينية كالبرتغال وغيرهما. والقنصل وكالته هي حماية السفن تحت الراية الفرنساوية في المراسي مشهورة بالولاية. والفرمان يمنع تداخل قناصل الإنجليز واللؤلانديين من التداخل في خدمة نائب فرنسا، وذلك سند مؤرخ ٩ رمضان سنة ١١٩٧ هجرية المتقرر بمعاهدة ١٢ ربيع آخر سنة ١٢٠٥، فإنه يأذن حكام الجزائر وتونس وطرابلس الغرب بأن يجمعوا على إسم السلطان السفن التجارية لسلطنة الرومان. وأيضاً فإن الإتفاق الذي تقدّم هذا السند وتم ١٥ شوال سنة ١١٦١ هجرية بالإذن من السلطان، وكان هذا الإتفاق وقع بين الحكام المذكورين والسلطنة المذكورة فإن الوالي العام بتونس وهو إذ ذاك في رتبة بكليربكي، ونال إسم

علي باشا. ويذكر في مقدمة كل مكتوب ممضي عليه منه هاته الكلمات بعينها، وهي مولانا السلطان الغازي محمود.

وعلى ذكر وقائع ذاك الزمان أستطرد لكم الإذن الصادر من الباب العالي في ١٥ ربيع الأول سنة ١٢٤٥ هجرية وسنة ١٨٢٧ ميلادية لحكام الجزائر وتونس وطرابلس الغرب. فإنه يأمرهم أن لا يتداخلوا في الخلاف الواقع بين النمسا ومملكة المغرب. وكذلك الإذن الصادر لوالي تونس في ١٤ صفر سنة ١٢٤٧ هجرية وسنة ١٨٣٠ ميلادية فإنه يأمر بترتيب العسكر النظامي بالولاية على نمط الترتيب العسكري النظامي العثماني. وأيضاً قد أتى مكتوب معين للطاعة من الباشا التونسي لجلالة السلطان في سنة ١٨٦٠ وذلك الباشا هو الذي سماه السلطان والياً عاماً، وقد نشر هذا المكتوب في جميع صحن أوروبا من غير أن يعارض ولا من جهة واحدة.

ونزيدكم شيئاً آخر وهو أنه في سنة ١٨٦٣ في واقعة القرض التونسي الذي وقع في باريس من غير رضاء الباب العالي كان رسيود وأروان ولويس وزير خارجية الأمبراطور نابليون الثالث قد أعلن رأيه بناء على شكايات الدولة العثمانية، وقال: إنه يلزم إما الباشا بتونس أو الصراف الذي يريد عقد القرض معه أن يطلب رضاء الباب العالي ليصح هذا القرض وللمدافعة على حقوق الباب العالي فإن الوزير الفرنساوي أرسل يقول هذا الكلام للصراف المشار إليه.

وها نحن نضع بثبات الكلام السابق لدى ميزان العدل والحق الذي للدول الممضين على معاهدة بارلين، وإنا لمتحققون بأن فكر الدول محيط بدلائل كثيرة في الواجبات العمومية التي يقتضيها المؤتمر المحترم، وأنهم يريدون أن يفعلوا بالعدل قولنا الذي قدمناه، وأنهم يتحفظون على حقوق الباب العالي المحفوظة بالمعاهدة المذكورة، ويصلحوا الحال بين الدولتين فرنسا وتركيا في علائقهما التي لهما في هذه الولاية المرؤوف بها التونسية المتممة للسلطنة العثمانية.

والمرغوب من جنابكم أن تتكلم مع وزير الخارجية في مضمون هذا التلغراف، وتشرح له ما تراه نافعاً، ولكم الإذن بأن تعطوا نسخة من هذا لجناب الوزير إذا طلب. إنتهى.

الإمضاء: **مصطفى عاصم**

ومما لا شك فيه أن فرنسا لم تنازع قط في أن تونس من ممالك الدولة العثمانية في وقت من الأوقات، حيث أن وزير الروسيا سأل وزير فرنسا في مجمع فيينا عقب حرب قريم، عن تعيين الممالك العثمانية للجهل ببعضها، ومنها تونس. فأجابه الوزير الفرنساوي بأن لا شك ولا نزاع في

كون تونس من الممالك العثمانية، وإن كانت لها إمتيازات. وكذلك في سائر المعاهدات من قبل إحتلال فرنسا على الجزائر بمدد طويلة مرعية الإجراء في تونس كما بالممالك العثمانية. ولكن عند الفرص الدول عندها المعاهدات كلا شيء، وعند الأغراض وتيقن إحداهن بقوة نفسها. ويعلم ذلك من محاورة سفير إنجليزي في الأستانة إذ ذاك مع جلالة السلطان. ويتبين منها عدم وفاء الدول بالمعاهدات.

وحاصل المحاورة المذكورة هي ما علم من تلغراف المسيوغوشن سفير إنجليزي في الأستانة إلى وزير خارجيتها بتاريخ ١٩ نيسان سنة ١٨٨١. وملخصه: يقول السفير إني وجدت جلالة السلطان مشغول الفكر بهذه الأفعال. وبناء على ما عندي من الإذن أعلنت له بأن الدولة الإنجليزية تريد بقاء الحالة الموجودة في تونس. والنائب الإنجليزي بتونس له الإذن ليرشد الباي إذا استشاره بأن يعين فرنسا في تقرير راحة الحدود. وإني أرجو أن جلالته يشير على الباي أيضاً.

فالسلطان سكت بعض دقائق، ثم ظهر على وجهه الغضب، وقال: إنه فهم من كلامي أن الدولة البريطانية ولم يقل العظمى تريد بقاء الحالة على ما هي عليه في تونس، ولها نفع ذلك.

وفهم أيضاً أنا أشرنا على محمد الصادق بأن يعين العساكر الفرنساوية، فنبهته عظمته بأني ما قلته: أن الدولة الإنجليزية تنتفع بإبقاء الحالة الموجودة، ولكنها تظهر تمني ذلك فقط على هذه الكيفية، وتتأسف كثيراً من فتح مسألة جديدة في الشرق. وأنا لا نفتكر أن توجد فوائد خصوصية لإنجلترا مربوطة بأي كيفية كانت في أحوال تونس.

فعند هذا أجاب السلطان بأنه لم ير كيف يجمع بين رجائنا في إبقاء حالة تونس على ما هي عليه، ومع ذلك نشير على الباي بأن يعين العساكر الفرنساوية، فهذان الشيآن لا يتوافقان لأنه على رأيه يكون دخول العساكر الفرنساوية إلى تونس ناقضاً للحالة الموجودة الآن. فسكت السفير (طبعاً).

وفي تلغراف آخر منه، يقول أيضاً: إن الجلسة التي وقعت بيني وبين الباش وكيل كان يطلب فيها صحبة إنجلترا. وقال: إن الدولة الإنجليزية تقدر أن تعمل مع الدولة العثمانية المساعدة، وأن الباب العثماني يكون ممنوناً إذا كانت إنجلترا تريد أن تفعل معه ذلك. فقلت له: إن ما كنت قلته لكم قد وقع، والذي كنت أقوله دائماً هو أنه يأتي زمن تكون فيه تركيا متذكرة بأن صحبة إنجلترا لها لازمة. وقد تكلم على الحاجة الأكيدة الآن، وتكلم أيضاً على رد مودة إنكلترا. فتبعته وقلت:

ما هو دليل المودّة الذي أظهرته تركيا لإنجلترا منذ بعض سنين؟ وفي أي وقت اتبعتم إشاراتنا النافعة للسلطنة التركية؟

نعم إن الترك قد عملوا غاية جهدهم ليتركوا المودة التي في رأي العموم في إنجلترا، ورجوعها الآن ليس بسهل.

فحضرته العلية أجاب بأن جميع الأشياء الآن تتغير، من غير أن يظهر على وجهه الغضب من الكلام الذي قلته له قصداً، واستمر في طلبه الإعانة.

وأنا شرحت له أن مسألة تونس ونازلتها مثل النوازل الأخرى الشرقية، ولا تقدر إنجلترا على إتمامها وحدها، ومع هذا فليس لنا فائدة خصوصية، وسياستنا متمسكة بالموافقة الأوروباوية، ولا دولة تريد قيام عسر جديد قبل أن تتم الإعسارات القديمة. وكل دولة تكون حازمة إذا كانت تفتش كل واسطة بحصر النازلة التونسية في حدود ضيقة أقل ما يمكن، لئلا تقوم نازلة تدخل فيها الدول بأراء مختلفة. فجنابه العالي يقدر يفهم من جملة كلامي بأن ليس لي إذن لتقرير الرجا بأن تكون الدول العظام الأوروباوية يظهرون أنفسهم مختلفين على نازلة مختلطة بين الباب العالي وتونس، والطلب الخصوصي من إنجلترا ليس بالموافق لحالة الباب العالي منذ بعض سنين مع الدول المشار إليها. إنتهى.

من يتأمل لهذه الأقوال يعلم ما هي أحوال وأعمال أوروبا ضد الدولة.

ولما احتج بعض الجزائر والوزراء على الوزارات الإنجليزية حين ذاك في مسألة تونس لم ينفع بشيء، حيث الوزراء إذ ذاك كانوا أحرار ورئيسهم غلادستون المشهور بكراهته للإسلام والسلطان.

بل قالوا: إن الباب الذي فتح لفرنسا في تونس هو من أعمال سلسبوري لما كان في مؤتمر برلين، حيث قال لوزير فرنسا في مؤتمر برلين عند مشاحنته معه في مسألة قبرص: إن إنجلترا لا تعارض فرنسا إذا أرادت الإستيلاء على تونس، على شرط أن ترضي فرنسا بذلك الدولة العثمانية صاحبة الملك لا اغتيالاً.

ثم إنه لما أعلن وزير فرنسا الأول برضا إنجلترا على ذلك في مجلس النواب، فأعلن وزير خارجيتها حين ذاك بالتكذيب. وما ذلك إلا تحفظاً على ما يريد لدولته، حتى إذا حصل مشاحنة بين الدولتين، كان لإنجلترا وجه في نقض ما حل بتونس.

وأما دولة الروسيا فلا شك أنها يسرها كل ما يضعف الدولة العثمانية، فلذا كانت ممنونة من واقعة تونس، وكانت مساعدة لفرنسا.

وأما ألمانيا فأجابت السفير العثماني بأن الأولى للدولة العثمانية الإضراب عن مسألة تونس.

ولا يخفى أن ذلك كان في مدة بسمرك. وله في ذلك فوائد وملحوظات كثيرة، وكل لبيب يفهم الأوجه التي كان يقصدها. وكان أول من بادر بأمر نائبه في تونس بإتباع سياسة فرنسا فيها، وتبعتها على ذلك النمسا.

وأما إيطاليا فإنها تجرّعت من ذلك الغصص، ولكنها لما كانت غير كفؤ لم يسعها غير السكوت.

ولما عبرت عساكر فرنسا حدود تونس معلنة بأنها تريد تأديب قبيلة خمير من أعراب الجبال الشمالية عند حدود الجزائر لم يتعرض لها أحد بالمصادمة لأن حكومة تونس كانت موافقة في باطن الأمر مع فرنسا، ومع ذلك فما كان عندها تحت السلاح ألفا عسكري.

فليتأمل من أعمال هذا الباي الوالي الممتاز على أمة عددها نحو مليون ونصف، ولم يكن عنده ألفا عسكري مع وجود الأوامر السلطانية مشدّدة بتنظيم جيشه على النظام العثماني. وقيل: إن علي ابن الزي تابع الوزير التونسي كان يخبر قنصل فرنسا ونائبها بأسرار الحكومة.

ولما وصلت عساكر فرنسا لبلد يقال لها كاف، وبجوارها باجة، إشتبكت حكومة تونس بالقول: إنها مستعدة لتربية قبائلها الذين تشتكي منهم فرنسا. وقيل: إن هذا وسيلة ظاهرية فقط. وقيل: إن الباي ندم بعد ذهاب السكرة ومجيء الفكرة. ومع ذلك فقد أوعز الوزير بواسطة تابعه المذكور إلى نائب فرنسا بأن لا واسطة مفيدة في الدخول تحت فرنسا إلا قدوم شرذمة من العساكر إلى قصر الوالي، والإحاطة به، إذ النسوة لما ترى ذلك تصرخ من الخوف، فيضطر الوالي إلى الإمضاء على الشروط، ويجد العذر عند الأهالي بذلك.

ولما بلغت المسألة لحد هذه النقطة، أرسل خبراً بالسلك الكهربائي للباب العالي يقول: إنه قد علم أن فرنسا تطلب عقد شروط، ولا يعلم ما هي، فماذا يعمل؟ فأجابه الباب العالي: بأنه يحيل كلما يطلب منه على الباب العالي، ولا يمضي شيء.

وقبل ذلك أشاع أصحاب الأخبار أنه في عزم الدولة العلية إرسال خير الدين باشا إلى تونس معتمداً في حسم النازلة لمعرفته بأحوالها وسياسة الأهالي والأجانب، ولكي يكون عوناً على إبقاء

الحالة المعروفة فأرسل الوالي تلغرافاً للباب العالي يطلب أن يكون المرسل غير المشار إليه، فتعجب كل عاقل على المقاصد من ذلك الطلب. إذ تلك الحالة لا تدع مجالاً للشخصيات، سيا وقد سبقت من خير الدين باشا إلى الوالي المجاملة، وعدم إكتراثه بما فعله معه عند حلوله بالأستانة، وترقيه فيها. فبذا كل مطلع على الباطن زاده ذلك تيقناً في التواطؤ على تلك الأعمال، لأن وجود مثل خير الدين باشا في تونس لا يروج عليه ما يروج على غيره. ومع مجاراة الباب العالي وتقليله لمواقع النزاع قدر الإمكان لتأمين الوالي حيث أظهر الميل للدولة، فإنه أسرع إلى إمضاء الشروط مع فرنسا. والحال أن مداد الباب العالي بنهيه عن إمضائه لم يجف، هو ولم يخبر الباب العالي بعد ذلك بشيء حتى سأله عما شاع من إمضائه. فأجابه: بأنه مكره على ذلك. وكل ما ورد بعد ذلك من الباب العالي سلمه إلى نائب، فرنسا مدّعياً أن الشروط قاضية بذلك. (فليتأمل).

وهذه هي المعاهدة:

إن دولة جمهورية فرنسا ودولة باي تونس أرادوا أن يقطعوا بالمرة التحير الذي وقع قريباً في حدود الدولتين في شطوط تونس، وأرادوا أن يربطوا مخالطتهم القديمة التي هي مخالطة المودّة والجوار الحسن، فاعتمدوا على ذلك، وعقدوا معاهدة في نفع الجهتين المهمتين. فعلى موجب ذلك رئيس الجمهورية الفرنساوية سمى وكيله موسيو الجنرال تريار الذي يتفق مع حضرة الباي السامية على الشروط الآتية:

أولاً: المعاهدات الصلحية والودادية والتجارية وغيرها الموجودة الآن بين الجمهورية الفرنساوية وحضرة الباي يتحتم تقريرها واستمرارها.

ثانياً: ليسهل للدولة الجمهورية إتمام الطرق للتوصل للمقصود الذي يعنيه الجهتان العظيمتان، فحضرة الباي ترضى بأن الحكم العسكري الفرنساوي يضع العساكر في المواضع التي يراها لازمة لتتقرر وترجع الراحة والأمان في الحدود والشطوط. وخروج العساكر يكون عندما يتوافق الحكم العسكري الفرنساوي والتونسي على أن الدولة التونسية تقدر على تقرر الراحة.

ثالثاً: دولة الجمهورية تتعهد لحضرة الباي بأنه يستند عليها دائماً، وهي تدافع عن جميع ما يتخوف منه لضرر ما، إما في نفسه أو عائلته أو فيما يحير دولته.

رابعاً: دولة الجمهورية تضمن في إجراء المعاهدات الموجودة الآن بين دولة تونس والدول المختلفة الأوروباوية.

خامساً: دولة الجمهورية تحضر نحو حضرة الباي وزيراً مقيماً لينظر في إجراء هاته المعاهدة، وهو يكون واسطة فيما يتعلق بالدولة الفرنساوية وذوي الأمر والنهي التونسيين، وفي كل الأمور المشتركة بين المملكتين.

سادساً: إن النّواب السياسيين والقناصل الفرنساوية في الممالك الخارجية يتوكلون ليحموا أشغال تونس وأشغال رعيتها. وفي مقابلة هذا، فحضرة الباي يتعهد بأن لا يعقد معاهدة عمومية من غير أن تعلم بها دولة الجمهورية، ومن غير أن يتحصل على موافقتها من قبل.

سابعاً: دولة الجمهورية ودولة حضرة الباي أبقوا لأنفسهم الحق في أن يؤسسوا ترتيباً في المالية التونسية، ليمكن لهما دفع ما يلزم من الدين التونسي العام. وهذا الترتيب يضمن حقوق أصحاب الدين.

ثامناً: إن غرامة الحرب يغصب عليها القبائل العصاة بالحدود والشطوط. وتفعل دولة الجمهورية مع حضرة الباي فيما بعد شروطاً على كميتها وكيفية دفعها، ودولة حضرة الباي تضمن في ذلك.

تاسعاً: للمدافعة على منع إدخال السلاح والآلات الحربية للمملكة الجزائرية الفرنساوية، فدولة باي تونس تتعهد بأن تمنع الأشياء المشار إليها من جزيرة جربا ومرسى قابس، وسائر المراسي الجنوبية في المملكة.

عاشراً: إن هاته المعاهدة توضع لدى رضا دولة الجمهورية، وترجع في أقرب مدّة ممكنة لحضرة الباي السامية.

حرر في ١٢ مارس سنة ١٨٨١ بالقصر السعيد.

الإمضاء

محمد الصادق باي والجنرال باريار

ومما يتهم به الوالي طلبه ظاهراً من قنصل فرنسا، وقايد العساكر أن يمهلاه مدّة للتأمل من حالة الشروط. فأجابه القنصل بأنه لا داعي إلى ذلك حيث أن الشروط بقيت عند وزيرك مدّة، وتأملتها أنت أيضاً، ولم يبق إلا الإمضاء. وكذلك قيل أن السيد محمد العربي زروق ورئيس مجلس البلدي وأحد أعضاء مجلس الشورى أصر على عدم موافقة الإمضاء على الشروط، وأنه لح على

الوالي بذلك بالمجلس، ونصحه بأن ما يخشى منه بعدم الإمضاء سيقع لا محالة بعد الإمضاء. فالتمسك بالبراءة الأصلية أسلم وأشرف.

وقال: بأن جميع الأهالي لا تطيع الوجهة المذكورة، وعلى فرض قهرهم فيكون الوالي على شرفه. وربما اضطرت الدول والدولة العلية إلى التداخل بوجه يحسن الحال.

فلم يلتفت لكلامه، بل عزل من جميع وظائفه، وجعلت عليه مراقبة في داره، وحجر عليه من مخالطة الناس، وتحقق مزيد الإضرار به، إلى أن إحتمى بقنصلاتو انكلترا. وسافر عن وطنه، وأقام بالأستانة. ويشهد صراحة للتواطؤ ما صرح به البارون بي لنك الفرنساوي في تشرين سنة ١٨٨١ بما وقع في هاته المسألة عند إرساله لإستقراء أمر تونس في كانون الثاني سنة ١٨٨١ من إجابته الوالي إذ ذاك بأنه يقبل الشروط إذا كان الواسطة فيها فردينادلسبس.

ومع ذلك كله لم تعلم الدولة العلية بشيء من أعمال الوزير التونسي.

ثم إن فاتحة أعمال نائب فرنسا بعد إمضاء المعاهدة، طلبه من الوالي نفي علي بن الزي حالاً لكي لا يبوح بالأسرار التي اطلع عليها. فنفي إلى حصن قابس.

ثم ذهب الوزير إسماعيل إلى باريس في سفينة فرنساوية حربية شاكراً لإنعام فرنسا بتلك المعاهدة، ومعلناً لها بأنه يصدق في خدمتها أزيد مما كان يبذله سابقاً، فقلدته فرنسا بأكبر نيشان لها مع الشريط الكبير. ورجع إلى تونس. ولم يلبث بضعة أشهر حتى ورد الأمر على الوالي من وزير فرنسا بعزله، لأن نائب فرنسا بتونس ذهب إلى باريس، وتفاوض مع دولته فيما يسلكونه في تونس، حيث أن الأعراب والجهات الجنوبية أعلنوا بأنهم لا يطيعون الوالي، حيث إنه بغى على الدولة العثمانية بدخوله تحت حماية فرنسا وأنهم بايعوا أمير المؤمنين قديماً وحديثاً. فلا يحل لهم الخروج عليه.

ثم هرب عن الوالي جميع عساكره فاضطرت فرنسا لتعبئة الجيوش لإطاعة الأعراب. وكان من جملة التدابير عزل ذلك الوزير الذي يتوقع منه أن يفعل معهم مثل ما فعل مع البلد. وكان مثله كمثل الوزير العلقمي الذي أدخل التتر في بغداد، وتسبب في انقراض الخلفاء العباسيين.

ثم سكن رئيس العساكر الفرنساوية بدار المملكة في بطحاء القصبة، وصارت الحكومة لا تتصرف في شيء إلا بأمر الوزير الفرنساوي، سواء كان في الداخلية أو في الخارجية، حتى تفاقم

الضرر، وعظم الكرب على القبائل والبلدان بما حصل فيهم من العساكر الذين أقاموا بقروان وسوساً وهدموا سفاقس وخرجوا من قابس بعد دخولها، ثم عادوا اليها.

ومن ضمن خطايا الوالي والوزير أو شدّة جبنهما ما يعلم من هذه الحركة، وهي أن قائد عساكر فرنسا أحضر شرذمة من عساكر فرنسا أمام قصر الوالي، سواء كان بإيعاز من الوزير التونسي كما قيل، أو غير ذلك، وبيده نسخة المعاهدة بالحماية. فلما رأى محمد باشا الصادق الباي العساكر الفرنساوية أمام قصره. وكان القائد أرسل له في داخل القصر نسخة المعاهدة للتوقيع عليها. فقبل أن يسأل عن أسباب حضور العساكر طلب المهلة أربع ساعات. وقيل: إنه حرر تلغرافاً للباب العالي يصف له الهيئة. وقيل: بل بلغ الباب العالي من سفيره بباريس. فما كان من الباب العالي إلا أنه حرر في الحال تلغرافاً شديد اللهجة لسفيره في باريس وباقي سفرائه في عواصم أوروبا بالإحتجاج، وطلب سحب العساكر من أمام قصر الوالي وإنهاء المسألة بالمخابرات السياسية. فحرر ناظر خارجية فرنسا وقيل الحربية للقائد بسحب العساكر من أمام القصر، وأن المخابرة جارية مع الباب العالي في هذا الشأن.

ولما ورد تلغراف للقائد ردّه بإنهاء المسألة، وسحب العساكر بمعنى أن الباي رغب حماية فرنسا دون العثمانية.

فالعجب كيف يطلب الوالي مهلة أربع ساعات التي لا تكفي لوصول التلغراف للباب العالي لأن تبادل التلغراف بين الباب العالي وفرنسا وتونس يستغرق مدّة أطول من ذلك وكانت النتيجة أن أمضى الوالي الشروط في الحال.

أما ناظر خارجية فرنسا فإنه أسرع بمخابرة سفراء دولته في عواصم أوروبا بكل سرور عن مضمون تلغراف القائد على أن الباي إختار حماية فرنسا عن سيادة الباب العالي على تونس، وأمرهم بتقديم المذكرات للدول بذلك ليجيبوا الباب العالي على احتجاجه، وقد كان.

ثم جدّد الباب العالي الإحتجاج على أن تونس ليست للباي أي واليها، وأنه لا يتنازل عن حقوقه حين سنوح الفرصة وحفظ الحق لنفسه على ذلك، وأرسل لسفرائه في العواصم الأوروباوية بما فيها فرنسا للتسجيل والثبوت.

وفي الواقع فإن الذي كان يمكن إجراؤه هو ما ذكر حيث إذ ذاك كانت الدولة العلية خرجت من حرب الروسيا حديثاً، وما كان من الصواب أن تحارب فرنسا وقتها، خصوصاً سياسة الدول

ضد الدولة كانت مجتمعة . وكانت فرنسا تعلم ذلك . وهكذا الدول الزاعمة بالتمدن تتخذ الفر
على طرائق غير شريفة للإغتصاب ، ومجردة من الشهامة والمروءة والآداب مثل ما كان يفعل م
الشرق .

* * *

(ترجمة وصية بطرس الكبير)

من بطرس الأول إلى كل من يخلفني على تخت الروسية التحية، فإن الله سبحانه وتعالى لم يزل منذ بداية الأبد في إعانتنا، وأسدل فضله علينا بما حملني على الإعتقاد بأن الأمة المسكوبية تتسلط إذا شاء الله على الممالك الأوروباوية.

والدليل على ذلك أن الأمم الأوروباوية قد هرم أكثرهم، وأخذ البعض منهم في التلاشي. فإن أدركت الروسيا تماماً قوتها، لا شك أنها تتغلب على سائر الممالك لما لها من شوكة الشبوبية.
وعندي أن هجوم الأمم الشمالية على أوروبا من أحكام القدرة الإلٓهية التي لا بد من نفوذها، كما وقع سابقاً عند هجوم الأمم المذكورة على مملكة الرومانيين فأحيتها بعد إضمحلالها، وأنا وجدت روسيا جدولاً صغيراً فتركتها نهراً كبيراً. وأرجو أنه باعتناء من يخلفني تصير بحراً عظيماً يغطي بمياهه أوروبا بأسرها، ولا يتعرض لسيلانه عرمرم. فحملني هذا الإعتقاد على أن أقرر هنا الأصول التي لا بد من إتباعها، نظراً إلى إدراك هذا المقصد المعتبر. وهي:

أولاً : على ملوك الروسيا ملازمة الحرب لتكون جيوشهم دائماً على حال الرياضة والإستعداد. فلا يكفوا عن الحرب إلا لإصلاح شأن المالية، وجبر ما نقص من العساكر، وتربص فرصة الهجوم على الأعداء. فالحرب والصلح يتناوبان حسبما تقتضيه الحاجة، نظراً إلى توسيع دائرة شوكتنا وفلاح البلاد.

ثانياً : عليهم أن يجلبوا من سائر الأقطار الأوروباوية العارفين بالفنون الحربية مدّة الحرب. أما مدّة الصلح فعليهم جلب من اشتهر من العلماء، لتنتفع الروسيا بما يلائم الأخرى من دون خسارة مالها طبيعة.

ثالثاً : عليهم التداخل في سائر أحوال الممالك الأوروباوية، خصوصاً ألمانيا لقربها إلينا.

رابعاً : التداخل في أحوال بلونيا وفي إنتخاب ملوكها حتى لا تنتخب إلا المحب للروسيا، وإدخال جيوشنا بها لحماية هؤلاء الملوك إلى أن يتيسر التسلط على البلاد رأساً فإن تعرضت الدول الأخرى تجب الإجابة إلى مطالبهم إلى أن نقدر على إسترجاع ما سلمناه.

خامساً : نأخذ من مملكة السويد ما يمكن أخذه، ونجعل بينهم وبين الدانيمرك عدواناً دائماً.

سادساً : لا يتزوج أهل بيتنا إلا بنات ملوك ألمانيا لتأكيد المحبة بين روسيا وألمانيا، وتكثير وسائل المواصلة بينهما.

سابعاً : يجب الإعتناء بمحالفة إنكلترا، لما لها من الحاجة إلى أشجارنا لسفنها، ولما نستفيده منها، نظراً إلى صلاح شأن أسطولنا فضلاً عن فائدة تبديل مالنا من الخشب وغيره من النتايج بذهب إنكلترا، وما ينشأ منه من كثرة المواصلة بين تجارنا وتجارها.

ثامناً : نمتد بقدر الإمكان من جهة الشمال وعلى شواطىء البالتيك، كما يجب السعي بالإمتداد من جهة الغرب وعلى شواطىء البحر الأسود.

تاسعاً : نقرب إلى القسطنطينية والهنود بقدر الإمكان، فمن ملك القسطنطينية فقد ملك الدنيا. فبناء على ذلك ينبغي ملازمة الحرب مع الترك ومملكة الفرس، وجعل ترسخانة بشواطىء البالتيك والبحر الأسود. وهذا من اللازم لنجاح ما قصدناه. وينبغي أيضاً تعجيل مملكة الفرس بالإضمحلال، وتنشيط التجارة التي كانت بين الشام وجبل قاف. فنتقدم إلى الهند التي هي مخازن الدنيا. وإن تحصلنا على ذلك فلا حاجة لنا بذهب إنكلترا.

عاشراً : يجب السعي في تأكيد المحبة مع دولة النمسا بإسعافها ظاهراً على ما قصدته من التسلط على ألمانيا، مع أننا نحرض عليها ملوك ألمانيا سراً.

الحادي عشر : نشارك النمسا فيما قصدناه من إخراج الترك من أوروبا. فإن ظفرنا بالإستيلاء على القسطنطينية، وأظهرت دولة النمسا شيء من الغيرة لأجل ذلك. فإننا نحث دولة من دول أوروبا على محاربتها، أو نسلم لها جانباً مما تحصلنا عليه ونسترجعه في أول فرصة.

الثاني عشر : نجمع سائر الإغريق ببولونيا وبممالك النمسا، ونسعفهم بقدر الإمكان بالحماية والدفاع عنهم حتى يكونوا لنا أحباء ما بين الأعداء.

الثالث عشر : بعد الإستيلاء على مملكة السويد، وغلبة الفرس وبولونيا، والتسلط على الممالك العثمانية، وجمع جيوشنا، ودخول أساطيلنا بالبالتيك والبحر الأسود، نشرع في المفاوضة السرية مع فرنسا ودولة النمسا، في قسمة الدنيا بيننا. فإن إرتضت إحدى الدولتين ما نعرضه عليها نستعين بها على قهر الأخرى. ثم نهجم عليها ونغلبها، ولا يصعب علينا ذلك حينئذ حيث يكون بيدنا ملك المشرق ومعظم أوروبا.

الرابع عشر : إذا امتنع كلتا الدولتين المذكورتين مما نعرضه عليهما، وهذا مما يبعد وقوعه، يجب السعي بتحريض إحداهما على الأخرى، فتتربص الفرصة ونهجم على ألمانيا بجيش عظيم، ونوجه أسطولين إلى البحر المحيط والبحر الأوسط للإستيلاء على فرنسا، وبعد قهر فرنسا وألمانيا لا يصعب الإستيلاء على باقي أوروبا. ا هـ.

* * *

هذه هي تصوّرات هذا الأمبرطور المشهور في عصره أنه من أهم الرجال من منذ مائتي سنة تقريباً، ولقد اهتم خلفاؤه إهتماماً زائداً حتى تحصلوا على بعض مما كان يتمناه بتمزيق مملكة بلونيا، والإتفاق المستمر مع دولة النمسا، والإستيلاء على بعض من ممالك إيران، ومن ممالك كانت تحت سيادة الدولة العلية كالقريم والداغستان. ولكن كل هذه الأمور كلا شيء بالنسبة لهذه الوصية.

والحمد لله فالدولة العلية التي كان ينظرها بالتأخر الزائد وقرب الإضمحلال موجودة، وهي أقوى بضعفين عما كانت عليه إذ ذاك. ونسأل الله تعالى أن يمن علينا بتأييدها واستمرار تزايد قوتها، إنه على كل شيء قدير. آمين.

وحيث قد أتت الأحوال والظروف بما لم يكن في الحسبان حتى وجدت دولة ضخمة من أمم ضعفاء في نظر بطرس الأكبر وهي دولة ألمانيا، فضلاً عن نمو دولة إنجلترا التي ما كان يحسب بطرس الكبير لها حساباً غير أخذ ذهبها، فلذا خلفاء بطرس الكبير قطعوا آمالهم بتنفيذ هذه الوصية ويئسوا منها بالمرة.

(حوادث مبادىء الحرب الروسية العثمانية الأخيرة)

قد ثار ممالك البوسنا وهرسك والصرب والبغدان والأفلاق والجبل الأسود والبلغار في سنة ١٢٩٢ كما تقدم بالتحريضات الأجنبية. وأعقب ذلك واقعة المرحوم السلطان عبد العزيز، وما أعقبها من المسائل حتى كانت الدولة في أحرج الحالات. وكان حزب يرغب تشكيل مجلس نواب كبرلمانات أوروبا. ولما جلس مولانا السلطان حفظه الله وأيده بنصره أمر بذلك، وأصدر الإدارة السلطانية المشهورة بخط يده للصدر الأعظم محمد رشدي باشا. ثم اهتم حتى قهر كافة الأمم العاصية المذكورة رغماً عن مساعدة الروسيا لهم سراً.

هذا من أمر الداخلية، وأما من أمر الخارجية فإن أحوال الدول وإختلاف أغراضهم ومشاربهم المعلومة تحركت. وفي مقدمتهن الروسيا، التي استعدت للحرب في ظرف نحو ربع قرن أعني من حرب قريم في سنة ١٢٧١ لغاية سنة ١٢٩٤ تؤخذ الثأر من الدولة العلية، ولأغراض أخرى فحركت هذه الثورات البلقانية وحرضت الدول على أن يبطشوا بالدولة العلية. فأظهروا الشدّة على الدولة عدا الأمة المجرية التي هي حكومة ممتازة تحت دولة النمسا، فإنها أظهرت للدولة المحبة الحقيقية رغماً عن إجتهاد وإهتمام النمسا بعرقلة ذلك. وأخيراً عقدت الدول مؤتمراً بالأستانة من سفرائهم وهم ستة، وقرروا ما يأتي:

أولاً: تغير حدود الجبل الأسود الممتازة حكومته بإعطائه بعض أراض من ممالك الدولة.

ثانياً: تشكل لجنة من مندوبي الدول الأوروباوية لتعيين تلك الحدود.

ثالثاً: إبقاء حكومة الصرب على حالتها السالفة بأن تكون لا لها ولا عليها وتقرر حدودها.

رابعاً: الولاة الذين يتعينون في بوسنا وهرسك والبلغار ينتخبون من جانب الباب العالي مع موافقة دول أوروبا على ذلك، وإبقائهم في مأمورياتهم مدّة خمس سنين.

خامساً: نظراً إلى الموقع الجغرافي نقسم تلك الولايات إلى ألوية، ويتعين لها متصرفون من جانب الباب العالي بعد إنتخاب أولئك الولاة لهم.

سادساً: إنشاء مجلس مركب من ثلاثة أعضاء لكل من الولايات ينتخبون من مجالس الولايات لتحرير دخل الولاية وخرجها، وإنتخاب أعضاء مجالس الإدارة

وتوزيع الضريبة السلطانية على الأهالي ما عدا رسوم الجمارك والدخان الراجعة للدولة العلية .

سابعاً : إبطال طريقة إلتزام مداخل الدولة، وإسقاط البقايا السابقة لكل من الولايات الثلاث .

ثامناً : دخل الولايات المذكورة عدا ما هو راجع للدولة كالدخان والجمارك يعطى منه قسط لخزينة الدولة العلية . والقسط الثاني يصرف في مصالح الولايات المذكورة . وينظم لكل منها دستوراً للعمل بذلك .

تاسعاً : ترتيب المحاكم النظامية .

عاشراً : إعطاء حرية الأديان . (وهذا موجود من أول وجود الدولة العلية بل والمسلمين) .

الحادي عشر : تنظيم الحرس الأهلي .

الثاني عشر : العفو العمومي عما سبق من الجنايات السياسية (فليتأمل) .

الثالث عشر : إعطاء رخص للأهالي في شراء الأراضي السلطانية .

الرابع عشر : الشروع في تنفيذ تلك الشروط قبل مضي ثلاثة أشهر .

الخامس عشر : يعين لجان من طرف دول أوروبا للملاحظة على إجراء تلك الشروط . ا هـ .

* * *

فلم تقبل الدولة هذا القرار، بل إحتجت بأنها دولة قانونية حرة . فجميع أصناف رعاياها على السواء، خصوصاً بالقانون الأساسي الذي أحاط به المملكة السلطان الغازي عبد الحميد حفظه الله .

وقدمت مع الإحتجاج صورة الخط الشريف الآتي : وزيري سمير المعالي مدحت باشا : إن سطوة سلطنتنا كانت في حالة القهقرى في الأيام السالفة، وأسباب ذلك التقهقر لم تكن ناشئة عن المشاق الخارجية فقط، بل وقعت من أجل الإنحراف عن الطريق المستقيم في الإدارة الداخلية أيضاً، حتى ضعفت الأماني . ووثوق الرعايا بالدولة، ولذلك كان المرحوم والدنا الماجد السلطان عبد المجيد منح بعض أصول في تحسين الإدارة معروفة بالتنظيمات الخيرية، إشتملت على تأمين جميع الرعايا في أنفسهم ومالهم وعرضهم وشرفهم طبقاً لقواعد الشريعة المطهرة والتنظيمات

المذكورة هي التي كانت سبباً لإبقاء السلطنة محافظة على لوازم الأمنية إلى الآن. ومن آثارها المشكورة أنها سهلت لنا مساعينا في تأسيس هذا القانون الجديد الذي اقتضته آراء رجال دولتنا التي نتجت عنهم بحريتهم حيث استندوا إلى تلك الأمنية. وقد تيسر لنا في هذا اليوم الإعلان به. ولما كان هذا اليوم من الأيام السعيدة فإنه يلزمني أن نذكر الآن المقدّس المرحوم والدنا، ونصفه بعنوان محيي الدولة، ولنذكر مقاصده الحسنى. ولا شك أنه كان سعى بنفسه في إدخال السلطنة في العهد القانوني الذي سنستظل به الآن. ولو توفرت مدّة تأسيس التنظيمات الخيرية الأسباب المتوفرة الآن، لكان والدنا المرحوم أسس إذ ذاك أحكام هذا القانون الأساسي. ولكن العزة الإلهية قدرت أن يكون هذا التبديل السعيد الذي هو الكفالة العظمى لخير رعايانا في مدّة ولايتنا. ولله المنة على ذلك.

ومن المعلوم المقرر أن أصول إدارة الدولة صارت مغايرة للتبديلات المتتابعة التي وقعت شيئاً فشيئاً في تصرفاتنا الداخلية، وفي زيادة خلطتنا مع دول الأجانب. وغاية مرغوبنا إزالة جميع الأسباب المانعة للأمة وللبلاد من الإنتفاع بالنتائج الطبيعية التي لهم الحق فيها كما يلزم. وأن نرى جميع رعايانا قد حازوا الحقوق التي من علائق الأمم المهذبة، بحيث يكونون كلهم متعاضدين بنية سالمة في التقدم والألفة والإتحاد، فكان من الواجب إتخاذ طريقة نافعة مستقيمة للحصول على المقصد المذكور، ووقاية حقوق الدولة ومحو الخطيئات والغلطات الناتجة من الأعمال الغير مباحة الناشئة من وجود التصرف الإستبدادي بيد نفر واحد أو بعض أنفار. وأن تمنح حقوقاً متساوية لجميع الطوائف المركبة منهم الأمة. وأن نجعلهم في حالة يمكنهم معها الإنتفاع بخير الحرية والعدل. ولا فرق بينهم في ذلك. وهذا هو الوجه الوحيد الصالح لحماية جميع المصالح وضماناتها.

وهذه القواعد الكلية أنتجت وجوب عمل آخر مفيد للغاية، وهو وجوب تقييد أساس إدارتنا بصورة شورية قانونية. ولذلك لما أصدرنا خطنا عند حضورنا على كرسي السلطنة قررنا بلزوم إحداث مجلس للأمة (برلمنتو). وقد اشتغلت جمعية خاصة مشكلة من رجال دولتنا وأهل العلم والموظفين والأعيان في تأسيس أصول هذا القانون بغاية التدقيق. ثم وقع التأمل منها بمجلس وزرائنا والموافقة عليها. وهذا القانون إشتمل على إثبات الحقوق الراجعة للذات السلطانية، وحرية جميع الرعايا العثمانيين السياسية والعرفية، ومساواتهم لدى الأحكام السياسية والعرفية أيضاً، وبيان مسؤولية الوزراء والموظفين ومتعلقات وظائفهم، وحق مجلس الأمة في الإحتساب على أعمالهم، واستقلال المجالس الحكمية في خدمتها، والمعادلة بين دخل الدولة وخرجها معادلة حقيقية، وقسمت التصرفات الحكمية بالأوطان مع بقاء النظر الأعلى فيها للدولة. وجميع هذه

الأصول المطابقة لأحكام الشريعة المطهرة ولضروريات الوقت ولمرغوبنا قابلتم النية الحسنى التي شأنها تحقيق الخير للجميع حيث أن ذلك غاية المراد.

وقد جعلت إتكالي على الله، وعلى إمداد رسوله في ذلك، وأنطت لعهدتهم هـذا القانون بعد أن وقعت عليه بإمضائي السلطاني. ويقع العمل به حالاً بحول الله تعالى في جميع جهات السلطنة.

فالآن صدرت إرادتنا بأنكم تعلنون بهذا القانون، وتجرون العمل بمقتضاه من هذا اليوم. كما يجب عليكم أيضاً إتخاذ جميع الوسائل اللازمة المتأكدة للإشتغال في تهيئة التراتيب التي تضمن ذكرها القانون المذكور.

والله تعالى المسؤول أن يقرن بالنجاح سعي كل من اشتغل فيما يؤول إلى نجاة السلطنة والأمة.

كتب في ٧ ذي الحجة الحرام سنة ١٢٩٣. ا هـ.

مع أن أعضاء المؤتمر لم يلتفوا لهذا الأمر، بل سافروا جميعاً من الأستانة دفعة واحدة مظهرين العداوة والتهديد للدولة العلية.

وكان هذا الرفض عن رأي الأمة لأنها عقدت مجلساً من وجوه أجناس رعايا الدولة، حتى حضره المعروف بالدراية الفريق رستم باشا وزير حربية ولاية تونس، إذ ذاك حيث كان رسولاً عن باي تونس في تهنئة حضرة مولانا السلطان المعظم بالجلوس. فاجمع جميع أولئك الأعيان على اختلاف دياناتهم على رفض تلك المطالب. وقالت النصارى واليهود: نؤثر إراقة آخر نقطة من دمائنا، وصرف آخر درهم من مالنا على حفظ شرف مملكتنا من الاهانة بالتجزئة. وكان ذلك نفاقاً من أغلبهم عدا الإسرائيليين ومسيحيي الأرانطة وبعضاً من الأروام، والأخيران لم يرغبا ذلك حسداً للحكومات المطلوب إستقلالها وإمتيازها.

فلما رفضت الدولة ذلك الإقتراح هاجت الروسيا وماجت، وحرضت الدول على الدولة العلية، قولاً بأنها أهانت جميع دول أوروبا.

ومع ذلك قال اللورد سلسبوري الذي كان من أشد المخاصمين للدولة في المؤتمر المذكور عندما استقر بمجلس الوزراء في إنجلترا: لقد أنصف القوم في رفضهم المطلب (ونحن يصعب علينا معرفة سر المسألة في اختلاف قول اللورد).

ثم إن الروسيا زادت في الإلحاح على الدول بالبطش بالدولة العلية، فاجتمع سفراء الدول في

إنجلترا شبه مؤتمر، واستقر أمرهم على إرسال لائحة للدولة العلية.

هذا ملخص تعريبها:

إن الدول التي تعاطت عموماً أسباب سلم المشرق، واشتركت لهذا المقصود في مؤتمر الأستانة، قد رأت أن الطريقة الوحيدة في بلوغ المقصد الذي اعتمدت عليه هي المحافظة على التوافق الذي وقع من حسن البخت بينهم. ومع ذلك يجددون تقرير أمريهمهم، وهو من مصالح العموم، أعني تحسين حالة أمم النصارى بالممالك العثمانية، وإجراء الإصلاحات في بوسنة وهرسك والبلغار حسبما قبله الباب العالي، على أن يجريها من تلقاء نفسه. وكذلك اعتبر عقد الصلح مع الصرب حجة.

أما ما يتعلق بالجبل الأسود فإن الدول تعتبر عقد الصلح معه أمراً مرغوباً فيه، ولا بد له من توطيد يقع به تعديل الحدود، وتعطى حرية الجولان في نهر البويانة، لأن الدول تعتبر التأويلات التي تقع أو ستقع بين الباب العالي وهاتين الولايتين كأنها تقدمت خطوة إلى السكون الذي هو الداعي لرغبتهم العمومية. ولهذا يستدعون الباب العالي لتوكيده بترجيع العساكر على قدم السلم، ولا يبقى منها هنالك غير عدد العساكر اللازمة لتقرير الراحة، ويبادر إلى إجراء الإصلاحات اللازمة للراحة. وخير الولايات في أقرب وقت حتى يقع ما اشتغل به المؤتمر، وقرروا بمقتضاه أن الباب العالي حاضر إلى إجراء القسم المهم من تلك المطالب. وقد كان ظهر الدول بالنظر إلى إستعدادت الباب العالي الحسنة ومصالحه الحقيقية في إجرائها أنها متيقنة بما أملته من أن الباب العالي حيث انتهز هذه الفرصة الحاضرة فإنه يقوم بجزمه لإجراء الوسائل المعدة لتحسين حال النصارى حقيقة. وهذا المطلوب من الأمور الضرورية لراحة أوروبا.

وحيث سلك هذه الطريقة علم يقيناً أن من شرفه ومصلحته أن يجتهد في ذلك العزم على وجه مستقيم. فتطلبت الدول إذ ذاك أن تلاحظ كيفية إجراء الدولة العثمانية مواعيدها بواسطة وكلاءهم في الأستانة ونوابهم وإذا بات مأمولهم عديم النجاح مرة أخرى بأن لم يتحسن حال النصارى رعايا حضرة السلطان بكيفية تمنع رجوع التشعبات التي تضطرب لها دائماً راحة المشرق، فربما يظهر لهم من الواجب أن يقرروا أن مثل هذا الحادث لا يوافق مصالحهم، ولا مصالح أوروبا. وفي هذا الحال تتخذ الدول بإعلان ما يرونه عموماً من الطرق التي ستظهر لهم إلتزاماً لتقرير الخير لأمم النصارى، ومصالح السلم العمومي.

كتب في لوندرة في ٣١ مارس سنة ١٨٧٧. ا هـ. صفوة الإعتبار.

فلما أرسلوها للدولة العلية كالبلاغ الأخير رفضتها بناء على طلب مجلس العموم. وإن لها الحق

في ذلك، حيث أن لها حقاً في إدارة شؤون بلادها بغير وسائط الدول، وعدم ترك ممالكها عرضة للضياع والتجزئة، وبأن معاهدة باريس بعد حرب قريم القاضية بإتحاد الدول يحفظ أملاك الدولة. ومعنى ذلك أن الدولة العلية من ضمن الدول ذوات النظام والقوانين، ويلزم ترك العداوة القديمة بينها وبين أغلب الدول. فظننت أن الدول لا تتحد ضدّها كما كان يحصل سابقاً.

ومع ذلك فإن جلالة السلطان ومدحت باشا رغبا الملاينة مع الدول، والدخول في المخابرات السياسية لتعديل هذه المطالبْ في البلاغ الأخير، فلم يقبل المجلس وأصر على الرفض بالمرة، فقبل السلطان هذا الرفض لعدم سلب حرية المجلس. لكنه كان سبباً في وقوع الحرب الأخيرة الهائلة. وكانت سجالاً بينهما حالة كون الأمم البلقانية والجبل الأسود والبوسنة والهرسك الرومانية البالغ قدرهم نحو خمسة عشر مليوناً من رعايا الدولة مع الروسيا ضدّ دولتهم، وفضلاً عن ذلك فإن الدولة العلية حاربت الأمم المذكورة مدّة سنين حتى قهرتهم، كما أنها لم تكن في استعداد مخصوص لهذه الحرب، حيث لم تظهر الروسيا العداوة لها من عهد حرب قريم مكراً، مع أنها كانت تستعد لها سراً منذ ربع قرن.

ثم قامت الحرب على ساق وظهر من صناديد العثمانين ما هو معروف، حتى أقر سائر الأجناس لهم بأنهم أمة لم تزل حية شديدة، سيما ما بدا من عسكر البطل الغازي عثمان باشا المشير فإنه قاتل في بلفنا التي صيرها حصناً عظيماً في مدّة حربه بجيش لا يبلغ الأربعين ألفاً جيشاً عرمرماً من الروس والرومان وغيرهم يتجاوز مائة وعشرين ألفاً، وقتل منهمْ ما ينوف عن عدد جيشه.

ولولا سابقة القدر المعلوم بعدم إنجاده لما تيسر للروس الغلبة بمجرد حصار جيشه حتى اضطر إلى الهجوم لخرق الحصار بمن بقي سليماً من جيشه الذي قدره سبع وعشرين ألفاً، فتراكمت عليه مائة ألف أو يزيدون إلى أن جرح وكاد أن يخرق الحصار لولا الجرح، فاضطر إلى التسليم. فأقبل عليه القيصر بنفسه، ولما سلم له سيفه قال له: إن مثلك أيها البطل يحق له الفخر الدائم، ورد إليه سيفه، وكفى بها شهادة له وشرفاً. هكذا ذكره السيد محمد بيرم في كتابه (صفوة الإعتبار). رحمه الله.

ومصداق ذلك ما أخبرني به المرحوم راشد باشا كمال، وكان رحمه الله هناك من أول حرب الصرب والعصاة لغاية إنتهاء حرب الروسيا بصفته ضابطاً بالجيش المصري في مسألة بليفنا بنحو ما ذكره السيد محمد بيرم. وزاد بقوله: إن الروس هجموا في أوائل الحصار مراراً عديدة، وارتدوا بخسائر فاضحة أي بأربعين ألفاً على التقريب. ثم تيقنوا أنه من المستحيل أخذها هجوماً، فالتزموا باستدامة الحصار. فلو جاء الإمداد بالمؤونة والذخيرة لم يمكنهم أخذها، وربما كانت الحرب سجالاً حتى في السنة التالية. وربما ينتهي الأمر بغير غرامة حربية.

ثم أخبر رحمه الله تعالى عن نشاط وشجاعة وصبر عساكر الدولة بما يحير العقول، حيث أن في أغلب الوقائع الحربية كان الروس والأعداء ضعفي العدد، والحرب كان سجالاً، وأحياناً تنتصر عساكر الدولة بما يجبر الروسيين على الإنسحاب.

وقال أيضاً: إن الروسيا كانت تمتاز بثلاث: كثرة العساكر بزيادة عن الضعفين، وكثرة فرسانها بما يبلغ خمسة أضعاف على التقريب، وطوبجيتها كانت أرقى وأكثر بزيادة عن ضعف ونصف. وأما إمتياز عساكر الدولة فكانت بأربع: الشجاعة الفائقة، والنشاط والصبر والحماس في حب لقاء العدو. ا هـ.

وبالإختصار فإن الروسيا وجدت من الصعوبة ما يخالف ظنها من قبل الحرب حتى اضطرت بطلب هدنة، فبذا قامت عساكر الدولة بما أوجب لله عليهم. جازاهم الله خيراً.

ومع ذلك فإن هذا من الواجبات الدينية، فقد ورد في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تَضَمَّنَ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ في سَبِيلِهِ لاَ يُخْرِجُهُ إلاَّ جِهَاداً في سبيلي، وإيماناً بي، وتصديقاً برسلي، فهو علي ضامنٌ أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة. أ هـ»(١). والحق يقال إنهم ليوث هذا العصر.

ومن هذا القبيل ما حكي عن ضابط مصري أنه كان مع ضابط عظيم أجنبي في مدينة جدّة، وإذا بعسكري تركي مار الهوينا مطأطأ الرأس بغير جورب أمام نفسه، لا يلتفت يميناً ولا شمالاً. فقال الضابط الأجنبي للضابط المصري: هل ترى هذا العسكري وحالته؟ فقال له: نعم. فقال: إنه عند الحرب يكون مثل الفرخ الأسود الكبير، يعني بذلك تشبيه بالديك الرومي عندما يرى شيء أحمر يهيج وينفش ريشه ويحمر وجهه. ويريد بذلك شدة حماسهم وبأسهم وتغير أحوالهم العادية عند الحرب. ولله الحمد على شهرة شجاعة وصبر عساكر الدولة قديماً وحديثاً، ونسأل الله تعالى دوام قوّتهم ونشاطهم وحفظهم هم وضباطهم الكرام تحت ظل مولانا أمير المؤمنين السلطان عبد الحميد خان نصره الله آمين.

وكان الفراغ من ترجمة وتأليف وتبييض هذا الكتاب

في شهر الحجة سنة ١٣٢٢ الموافق شهر دسمبر سنة ١٩٠٤

* * *

---

(١) الحديث رواه مسلم في كتاب الجهاد باب أفضل الجهاد والخروج في سبيل الله ورواه البخاري أيضاً بنحوه. ومالك في الموطأ في باب الترغيب في الجهاد بلفظ: تكفَّل بدل تضمَّن.

فهرست

مطالب | صفحة

مطالب **صفحة**

مطالب **صفحة**

مطالب | صفحة

مطالب | صفحة

مطالب	صفحة

(تمت الفهرست)